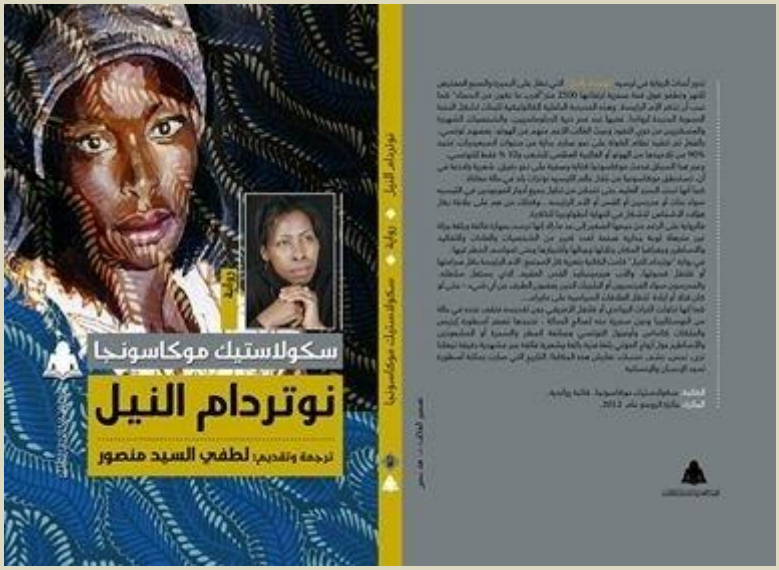
رواية
سكولاستيك موكاسونجا
نوتردام النيل
ترجمة وتقديم: لطفي السيد منصور
نوتردام النيل
رواية
سكولاستيك موكاسونجا

نوتردام النيل

سكولاستيك موكاسونجا

ترجمة وتقديم: لطفي السيد منصور

المقدمة

ولدت سكولاستيك موكاسونجا عام ١٩٥٦في رواندا لعائلة تنتمي لعرق التوتسي، وهي تعيش وتعمل حاليا في باس- نورماندي. في عام ١٩٦٠، انتقلت عائلتها إلى منطقة غير آمنة من رواندا، نياماتا في بوجيسيرا. في عام ١٩٧٣، طردت من المدرسة وتم نفيها إلى بوروندي. استقرت في فرنسا عام ١٩٩٢. وفي عام ١٩٩٤ (عام التطهير العرقي للتوتسي من قبل الهوتو) حيث قتل أكثر من مليون شخص في مائة يوم، علمت أن سبعة وعشرين من عائلتها كانوا قد ذبحوا، من بينهم أمها.

وبعد ذلك باثني عشر عاما دخلت إلى عالم الكتابة بعملها الذي نشر في جاليمار كباقي أعمالها في سلسلة (continents noirs) (النيانزي أو الصراصير) الذي كان بمثابة سيرة ذاتية. وفي عام ٢٠٠٨ نشرت(امرأة عارية القدمين)ويعتبر هذا الكتاب تكريما لأمها ولكل الأمهات الشجاعات. وحصلت بها على جائزة (seligman)وهي جائزة ضد التمييز العنصري. ثم مجموعة "البطن النهم" (L'Iguifou) وهي مجموعة قصص رواندية تؤكد شعرية حقيقية: فمع كل صفحة ينفتح أفق من الألوان، الزهور، الأشجار، من العصافير، من الأحاسيس اللمسية؛ باختصار، مقتطفات من الجمال

تقف أمام قسوة الإنسان لتحدث التوازن في هذا العالم بين الجمال والقبح وبين الإنسانية واللاإنسانية.

ثم تأتي روايتها التي بين أيدينا "نوتر دام النيل" في عام ٢٠١٢ لتتوج في نفس العام بجائزة أمادو كوروما(*) وجائزة الروندوالمرموقة .

وعن هذه الرواية تقول موكاسونجا" كنت قد كتبت هذه الرواية ؛حتى لا أنسى. كنت أقول لنفسي ماذا لو استيقظت ذات صباح ووجدتني عاجزة عن حكي هذا التاريخ، سيكون كل هؤلاء الناس قد ماتوا بالفعل."

لكنها ماذا سجلت من هذا التاريخ وهذه القصة وهي التي طردت من المدرسة لإنها توتسي، والتي ماتت أمها ضمن قرابة الثلاثين من أهلها؟

هل كتبت مشاهد القتل والذبح لتغلف قلبها بالكراهية ولتغرقنا في هذه البحار الدموية التي مات فيها ما يقرب من مليون في مائة يوم؟

لا لم تفعل ذلك؛ لأن ذلك لن ينتج أدبا ولا حتى تأريخا. فالأدب لاينتجه الدم ولا الكراهية والتأريخ ليس ابن الذاتية أحادية النظرة حتى وإن كانت من وجهة نظر المظلوم/المقتول/ المضطهد...

لقد حاولت موكاسونجا – كما قالت– خشية أن تنسى الكارثة التي حلت برواندا وبعرقها وعائلتها أن تدونها، كما أظن أنها حاولت التطهر– مم تطهر وهي المقتولة لا القاتلة؟– من الكراهية؛ الكراهية التي ستكون أشد فتكًا من الهوتو.

تدور أحداث الرواية في وحول ليسيه "نوتردام النيل" التي تطل على البحيرة والمنبع المفترض للنهر وتطفو فوق قمة صخرية ارتفاعها ٢٥٠٠ متر" أقرب ما نكون من

السماء" كما تحب أن تذكر الأم الرئيسة. وهذه المدرسة الداخلية الكاثوليكية للبنات تشكل النخبة النسوية الجديدة لرواندا. ففيها نجد فخر ذرية الدبلوماسيين، والشخصيات الشهيرة والعسكريين من ذوي النفوذ وحيث الغالب الأعم منهم من الهوتو، بعضهم توتسي، قليلون للغاية أو حصة ضئيلة. وبالفعل تم تنفيذ نظام الكوتة وعلى نحو صارم بداية من سنوات السبعينيات، فنجد ٩٠% من تلاميذها من الهوتو أو الغالبية العظمى للشعب و١٠ % فقط للتوتسي.

وعبر هذا السياق قدمت موكاسونجا كتابة وصفية على نحو دقيق، شعرية ولاذعة في آن، تستنطق موكاسونجا من خلال عالم الليسيه توترات بلد في حالة معاناة.

كما أنها تبنت السرد العليم حتى تتمكن من تناول جميع أدوار الموجودين في الليسيه سواء بنات أو مدرسين أو القس أو الأم الرئيسة ...وكذلك من هم على علاقة بكل هؤلاء الأشخاص لتشكل في النهاية أنطولوجيا للذاكرة.

فالرواية على الرغم من حجمها الصغير إلى حدٍ ما ، إلا إنها ترسم بمهارة فائقة وبلغة مشفاة غير مترهلة لوحة جدارية ضخمة لعدد كبير من الشخصيات والعادات والتقاليد والأساطير وجغرافيا المكان بتلالها وجبالها وأشجارها وحتى لمواسم المطر فيها.

إن رواية نوتردام النيل تحكي التفاهات التي تشكل الدراما اليومية لهؤلاء المراهقات: منافسات البنات، اختيار أفضل كريم " مبيض"، ركوب دراجة بخارية مع صبي، أينبغي أم لاينبغي السماح له بمداعبة نهديها؟

لقد قامت الكاتبة بتعرية كل المجتمع: الأم الرئيسة بكل صرامتها أو فلنقل قسوتها تغض الطرف عن ذلك السفير الذي يأتي ليضاجع خطيبته في الليسيه وتحمل منه. والأب هيرمينيجيلد القس المقيم يستغل سلطته ليقيم علاقات مع البنات. والمدرسون

سواء الفرنسيون أو البلجيك يغضون الطرف عن أي شيء – حتى لو كان قتلًا أو إبادة– لتظل العلاقات السياسية على مايرام. فساد السلطة العسكرية التي تفيد بناتها سواء بمراكز آبائهم أو بسيارت الجيش وإمكاناته. الرئيس الدكتاتور الذي يجب أن تعلق صورته حتى في أحقر دكان .....

كما إنها تناولت التراث الرواندي أو فلنقل الأفريقي دون تقديسه فتقف عنده في حالة من النوستالجيا و دون سخرية منه لصالح الحداثة. فنجدها تضفر أسطورة إيزيس والملكات كانداس وأوصول التوتسي وصانعة المطر والسحرة أو المشعوذين والأساطير حول أرواح الموتي بلغة فنية رائعة وشعرية فائقة عبر مشهدية دقيقة تجعلنا نرى، نحس، نشم، نمسك، نعايش هذه الحكاية/ التاريخ التي صارت بمثابة أسطورة تمجد الإنسان والإنسانية

الحياة في هذه المدرسة الداخلية صارمة لأن هذه المدرسة هي حاضنة تفريخ النخبة النسوية الرواندية، كما أنها تمنح فرصة الحصول على زيجة رائعة" إنهن ليسوا مجرد زوجات صالحات، أمهات صالحات بل أيضًا مواطنات و مسيحيات صالحات، ولا تكون الأولى دون الأخرى"

نعم المدرسة صارمة لكن بنات المدرسة كما قلنا هن بنات كبار رجال الجيش ورجال الأعمال والنافذين في الدولة لذا نجدهن يصنعن قانونهن الخاص : واحدة تُدخل إلى المدرسة خطيبها بل، وتحمل منه، وأخرى تجعل من نفسها زعيمة فتشكل مجموعة من الشباب(الشبيبة) للقضاء على التوتسي خاصة البنات الموجودات في المدرسة؛ بينما الأم الرئيسة عاجزة،المدرسون عاجزون، حتى نوتردام النيل (مادونا رواندا) عاجزة لدرجة أن انكسر أنف التمثال وتهمشمت بعض أجزائه بل وسلطة الله نفسها عاجزة، بل غابت عن رواندا التي صارت مملكة الموت لا مملكة الرب: " لم أعد

أريد البقاء في هذا البلد. رواندا، إنها بلد الموت. أتذكرين ما كنا نقوله عن التعاليم المسيحية: طوال اليوم، يجوب الله العالم، كل مساء، يعود إلى بلده، يعود إلى منزله في رواندا. حسنًا، فيما كان الله يتجول، استولى الموت على مكانه، عندما عاد، صفق الباب في أنفه. أقام الموت مملكته فوق بلدنا رواندا المسكين. لديه مشروعه: قرر أن ينجزه حتى النهاية. سوف أعود عندما تعاود شمس الحياة شروقها من جديد على رواندانا. "

١ – نوتردام النيل

ليس هناك مدرسة ليسيه أفضل من ليسيه نوتردام النيل. وليس هناك أعلى منها كذلك. ٢٥٠٠ متر، يعلن المعلمون البيض بفخر. ٢٤٩٣، تصحح الأخت "ليدوين" معلمة الجغرافيا. "نحن أقرب ما نكون إلى السماء" همست الأم الرئيسة وهي تشبك اليدين.

يتزامن العام الدراسي مع موسم الأمطار، في أغلب الأحيان يُظلِّلُ الغيم الليسيه. وفي بعض الأحيان الأخرى، النادرة جدًّا، يكون الجوُّ صحوًا. حينئذ نلمح– في الأسفل تمامًا– البحيرة الكبيرة كغدير ماء صغير من الضوء الأزرق.

الليسيه هي للبنات. أما الأولاد فيبقون في الأسفل، في العاصمة. لقد شُيدت الليسيه من أجل البنات، عالية جدًّا، بعيدة جدًا؛ لإبعادهن، ولحمايتهن من الأذى، ومن إغواءات المدينة الواسعة؛ ولذا تكون آنسات الليسيه موعودات بزواج رائع. يجب أن يبلغن ذلك عذارى، على الأقل لا يقعن في الحمل قبل ذلك. عذارى، هذا أفضل. الزواج، مسألة خطيرة. فالمقيمات في الليسيه بنات وزراء، وكبار ضباط الجيش، ورجال أعمال، وأثرياء التجار. زواج بناتهم، مسألة سياسية. الآنسات يشعرن بالفخر: يعرفن ما يستحققنه. ما يزال الوقت طويلًا حتى يعتمد الأمر على الجمال فقط. بالنسبة للمهر، لا تحصل عائلاتهن إلا على الأبقار وأباريق الجعة التقليدية. كما سيكون هناك حقائب مملوءة بالأوراق المالية، حساب وفير في بنك بيلجوليز، في

نيروبي، في بروكسل. فبفضلهن، ستُثرى الأسرة، ستؤكد العشيرة سلطتها، ويبسط النسب نفوذه. تعرف آنسات ليسيه نوتردام النيل ما هن جديرات به.

الليسيه قريبة جدًا من النيل. من منبعه كما يظهر. ولكي نذهب إليها، نتخذ مدقًا حصويًا يقتفي طريق التلال. يؤدي المدق لأرض مسطحة حيث تركن "اللاند روڤر" النادرة، سيارات السائحين الذين يجازفون للوصول إلى هنا. لافتة إرشادية: منابع النيل ←200 م. درب شديد الوعورة يؤدي لركام من الحصى، حيث ينبجس من بين صخرتين جدول ماء رفيع. بداية تُحجز مياه المنبع في حوض أسمنتيٍّ قبل أن تَصُب عبر شلال صغير في جدول غير محدد، حيث نفقد أثره عبر أعشاب المصب وتحت أشجار السرخس التي يمتلئ بها الوادي. على يمين المصب، شُيد هرم نُقش عليه:" منبع النيل. بعثة كوك 1924" الهرم ليس شاهقًا: تلمس بنات الليسيه دون مجهود قمته المتكسرة، يقلن إن ذلك يجلب لهن سعادة. ولكن ليس من أجل الهرم تأتي بنات الليسيه إلى المنبع. لا تذهبن هناك في نزهة جبلية، بل تذهبن هناك للحج. يقع نصب نوتردام النيل بين الصخور الضخمة التي تطل على المنبع. ليس كهفًا على الإطلاق. كان التمثال مصونًا داخل محرس من الصفائح المعدنية. وعلى القاعدة، نقش: "**نوتردام النيل، 1953**". إنه (المونسينيور) النائب الرسولي الذي قرر تشييد التمثال. كان قد نال الملك من البابا المباركة بتكريس البلد للملك المسيح. ولقد أراد المطران أن يكرس النيل للعذراء.

ما نزال نتذكر مراسم الافتتاح. الأخت "كيزيتو" الطباخة العجوز شبه العاجزة، كانت هناك. كل عام، تصنع من ذلك حكاية للتلميذات الجدد. نعم، إنها مراسم رائعة، كالتي نراها في الكنيسة، في العاصمة، في عيد الميلاد، أو في الإستاد، يوم العيد الوطني.

لقد كان المندوب المقيم ممثلًا، بينما كان المدير موجودًا، تحوطه حاشية من عشرة جنود. أحدهم كان معه بوق، وآخر يحمل علم بلجيكا. كان هناك الرؤساء ونواب الرؤساء وزعماء القبائل المجاورة، كانوا يصطحبون نساءهم وبناتهم بتسريحات شعر عالية مزدانة باللؤلؤ، وراقصيهم الذين يحركون أعرافهم كالأسود البواسل، وبشكل خاص قطعانهم من أبقار النيامبو طويلة القرون التي كانت قد زُينت بأكاليل الزهور. كان يغطي المنحدر حشد من الفلاحين. ما كان ليخاطر بِيْضُ العاصمة بالسير في هذا المدق السيئ الذي يؤدي إلى المنبع. لم نلحظ سوى السيد "فونتوناي"، يجلس بجانب المدير، أتى صاحب مزرعة البن يجاورهما. إنه الموسم الجاف. السماء صافية. فوق القمم ليس هناك أتربة.

انتظرنا وقتًا طويلًا. أخيرًا لمحنا، على درب التل، طابورًا طويلًا حيث تعلو همهمة من الصلوات والتراتيل. شيئًا فشيئًا أخذنا نميز النائب الرسولي الذي تعرفنا عليه من قلنسوته وصولجانه. بدا كأحد ملوك المجوس الذين يظهرون في كتاب تعليم الدين المسيحي. يتوالى التبشيريون: كانوا يعتمرون، كحال كل البِيض في تلك الفترة، خوذة المستعمر، لكن كانت لهم لحًى ويرتدون أثوابًا طويلة بيضاء مرصعة بمسبحة كبيرة. فرقة أطفال فيلق مريم فرشت المدق بأوراق الزهور الصفراء. ثم أتت العذراء. كان يحملها أربعة من الإكليريكين، بسروال قصير وقميص أبيض، على محفة من شرائح البامبو المجدولة والتي ينقل عليها الزوجة الشابة لأسرتها الجديدة أو الموتى نحو مثواهم الأخير. لكننا لم نتمكن من رؤية المادونا[١] التي كانت متدثرة بحجابٍ أزرق وأبيض. في الخلف يتدافع "رجال الدين الأصليون" ثم، يسبقها رايتها وعلم البابا الأصفر والأبيض، تتشاجر جماعة تعليم الكتاب المسيحي التي، على الرغم من عصيّ الموجهين، تشتت على المنحدرات خارج الدرب.

[١] اشارة لكنيسة السيدة العذراء في لورد في فرنسا حيث إنه في عام ١٨٥٨ كانت قد ادعت فتاة تدعي برناديت أنها رأت العذراء ثماني عشرة مرة في لورد

وصلت المسيرة إلى الوادي، حيث ينبجس المنبع. نستودع محمل المادونا التي لا تزال مخفية تحت الحجاب بالقرب من غدير الماء الصغير. وصل المدير أمام النائب الرسولي وأدى تحية عسكرية. تبادلا بضع كلمات فيما كان الموكب يستقر حول المنبع وحول التمثال الذي كان قد رُفع على قاعدة عمود صغيرة. النائب الرسولي واثنان من الكهنة التبشيريين صعدوا خمس خطوات. بارك المطران الجمع ثم استدار نحو التمثال، وتلا صلاة باللغة اللاتينية التي يردد بها الكاهنان. حينئذ، إثر إشارة من المطران، أماط أحد المساعدين اللثام فجأة عن التمثال. جلجل البوق، انخفض العلم. جلبة كبيرة اجتازت الحشد. ملأت النساء بصرخات الفرح الحادة الوادي، حرك الراقصون أجراس كواحلهم. العذراء التي بزغت من الحجاب كانت تشبه بالفعل عذراء لورد[٢] وفقًا لصورة العذراء التي استطعنا رؤيتها في كنيسة الإرسالية، نفس الحجاب الأزرق، نفس النطاق اللازوردي، نفس الثوب الضارب في الصفرة، لكن نوتردام النيل كانت سوداء، وجهها أسود، يداها سوداوين، قدماها سوداوين، نوتردام النيل كانت سيدة سوداء، أفريقية، رواندية، لما لا؟ " إنها إيزيس، صاح السيد "فونتوناي"، لقد عادت!"

بقارورة مفعمة بالحيوية بارك النائب الرسولي التمثال، بارك المنبع، بارك الحشد. ألقى عظته. لم نفهم كل شيء. كان يتحدث عن العذراء المقدسة التي تُدعى هنا نوتردام النيل. قال: "قطرات هذا الماء المقدس تمتزج بالمياه المنبثقة من النيل، تمتزج بتدفقات المجاري المائية الأخرى لتصبح نهرًا، عابر البحيرات، عابر المستنقعات، متدحرجًا عبر الشلالات، مقتحمًا رمال الصحراء، راويًا صوامع الرهبان القدماء، واصلًا إلى قدم أبي الهول المدهوش، إنها كما لو كانت هذه القطرات المقدسة، بنعمة نوتردام النيل، سوف تُعمّد أفريقيا كلها وإنها، أفريقيا التي أصبحت مسيحية، سوف

[٢] اشارة لكنيسة السيدة العذراء في لورد في فرنسا حيث إنه في عام ١٨٥٨ كانت قد ادعت فتاة تدعي برناديت أنها رأت العذراء ثماني عشرة مرة في لورد

تنقذ هذا العالم من الهلاك. وأنا أرى، نعم أنا أرى، هذه الحشود من كل الأمم ستأتي للحج، ستأتي للحج في جبالنا، لتقدم الشكر لـ نوتردام النيل."

بدوره تقدم الزعيم "كياتار" أمام قاعدة التمثال واستدعى بقرته "روماتو" التي قدمها لملكة رواندا الجديدة. لقد مزج مديحها بمديح مريم قائلًا إنها سوف تجلب اللبن والعسل الوفير. صيحات سرور النساء وصلصلة الأجراس تنسجم مع الهبة كفأل حسن.

بعد بضعة أيام، أتى عدة عمال من الإرسالية لتشييد منصة بين الصخرتين الضخمتين، فوق المنبع.ولقد وضع عليها التمثال وحُفظ في محراب من الصفيح. وبعد ذلك بكثير، على بعد كيلومترين من هنا، شُيدت الليسيه. بالضبط للاستقلال.

ماء المنبع المقدس، ربما تمنى النائب الرسولي أن يصبح إعجازيًا، كماء كنيسة لورد. لكن لا يحدث أي شيء هناك. ليس هناك سوى "كاجابو" المعالج والسمام– إنه كما نريد– الذي يملأ أباريق صغيرة سوداء على شكل القرع. يغمس فيها جذور ذات أشكال مثيرة للقلق، جلود ثعبان مسحوقة، خصلات من شعر أطفال ولدوا ميتين، دم جاف من حيض البنات الأول. إنه من أجل الشفاء، إنه من أجل الموت. إنه على حسب.

لفترة طويلة، زينت صور مراسم تنصيب التمثال الردهة الطويلة التي كانت بمثابة غرفة انتظار الزوار أو أولياء أمور التلميذات الذين كانوا قد طلبوا لقاء الأم الرئيسة. الآن لم يعد يتبقى منها سوى واحدة: تلك التي نرى فيها النائب الرسولي وهو يبارك التمثال. والأخريات لم نعد نستدل منها إلا على آثار الرسومات المستطيلة، وتقريبًا باهتة جدًا، حيث إنها كانت قد تركت خلف الكنبة المصنوعة من الخشب الصلب، دون وسائد، والتي كانت تستدعى إليها التلميذات التعسات من قبل المرعبة الأم

الرئيسة دون أن تجرؤن حتى على الجلوس. ومع ذلك لم تكن قد دمرت الصور. كان قد عثر عليها كل من "جلوريوزا " و"موديستا" و" ڤيرونيكا" يوم أن كن قد كلفن بإزالة التراب عن المكان، في طرف المكتبة، حيث تتكدس السجلات. هناك، تحت كومة من الجرائد والمجلات القديمة (كينياماتيكا، كوريريرا، إيمانا، لامي، جراند لاك، إلخ) اكتشفن الصور، إلى حدٍ ما صفراء اللون، ومكرمشة، بعضها لا يزال تحت لوح زجاج مكسور. كانت هناك صورة المدير وهو يؤدي التحية العسكرية أمام التمثال بينما، خلفه، ثمة جندي كان يخفض العلم البلچيكي. كانت توجد صور راقصي الأنتور[٣]، ضبابية بعض الشيء، لأن المصور، غير البارع، كان يريد أن يلتقط قفزتهم المدهشة في الجو، على الرغم من أن العُرف الليفي وجلد النمر كان يلفهم بهالة شبحية. ثم كانت هناك صور الزعماء وزوجاتهم في أبهة كبيرة. كانت معظم هذه الشخصيات الرفيعة موضوع عليها علامة ضخمة بالحبر الأحمر وبعضها تخفيه علامة استفهام بالحبر الأسود.

– عانت صور الزعماء من" الثورة الاجتماعية"، قالت "جلوريوزا " وهي تضحك. جرة قلم، ضربة ساطور ثم تفو... انتهى التوتسي.[٤]

– وهؤلاء الذين عليهم علامة استفهام؟ سألت "موديستا".

لا بد أنهم من نجحوا في الهرب، للأسف! لكنهم الآن في "بوچومبورا" أو في "كمبالا" حيث، الزعماء الكبار، فقدوا أبقارهم، ولم يعودوا فخورين، إنهم يشربون الماء كالمنبوذين الذين أضحوهم. فلآخذ الصور. سوف يستطيع أبي بالفعل إخباري من هم سادة السوط هؤلاء.

---

[٣] الأنتور intore إحدى الرقصات التي تعبر عن الثقافة الرواندية ويستعرض فيها الراقصون بشكل تعبيري مشاهد الحرب والمعارك.

[٤] التوتسي جماعة اثنية رواندية

سألت "ڤيرونيكا" متى- حول صورة الفصل التي تؤخذ كل عام عند العودة- سوف يوضع عليها هي أيضًا علامة حمراء.

بالنسبة لتلميذات نوتردام النيل، الحج الأعظم، في مايو. شهر مريم. إنه يوم طويل ورائع، يوم الحج. تستعد له الليسيه قبله بفترة طويلة. ندعو حتى تكون السماء رءوفًا. الأم الرئيسة والأب "هيرمينيچيلد"، القس المقيم بالليسيه، أصدرا أمرًا بالعبادة التاسوعية. دعيت كل الفصول للانتقال بالتناوب إلى المصلى للابتهال إلى السيدة العذراء المباركة: حيث في ذلك اليوم، طردت الغيوم! على أي حال، في مايو، من الممكن، أن تتباعد الأمطار قليلًا، يقترب موسم الجفاف. الأخ " أوزيل "(هو الذي ينحني عند الحاجة على الأمعاء الزيتية للمولدات ومحركات شاحنتي التموين، والذي يجعجع بلهجته الغنتية في صبيان الميكانيكية أو السائقين، والذي يعزف آلة الأرغن ويقود الكورس)، الأخ "أوزيل" إذًا، منذ شهر، يردد التراتيل التي ألفها على شرف نوتردام النيل. المعلمون البلچيكيون والشبان الفرنسيون الثلاثة المتعاونون تضرعوا بلجاجة للمشاركة في المراسم. أخبرت الأم الرئيسة سرًا هؤلاء الأخيرين بأنهم سوف ينالون الكثير من الاحترام بارتدائهم بدلة ورابطة عنق، وسوف يكونون متوافقين مع احتفالية اليوم أكثر من دون هذه البناطيل ذات النسيج الخشن التي تسمى بلو چينز، وإنها تعتمد على هيئتهم المحترمة لتضرب المثل الرائع للتلميذات. الأخت المديرة- والتي نسمع جلجلة صرة المفاتيح المعلقة بحزامها الجلدي- ذهبت لتختار من المخزن علب الأطعمة المحفوظة من أجل النزهة الخلوية: بيفي، سردين، مربات، جبنة الكرافت. وأخذ ذلك منها جزءًا كبيرًا من الليل. وأحصت بدقة صناديق فانتا البرتقال بالنسبة للتلميذات وبعض زجاجات البريموس المخصصة لـ القس المقيم، وللأخ "أوزيل"، وللأب "أنچلو"، أب الإرسالية المجاورة الذي كان قد دُعي. أما بالنسبة للأخوات الروانديات، المعلمات والمشرفات فقد خصص لهن قنينات مكسوة بالقش

من نبيذ الأناناس، وشيء خصوصي للأخت "كيزيتو" التي حفظت بعناية قصوى سر قائمة الطعام.

بكل تأكيد، في ذلك اليوم كان هناك القداس غير المنتهي، التراتيل، الصلوات، عشرات صلوات المسبحة، لكن كان هناك بشكل خاص الضحكات، الضحكات المجنونة للبنات، التسابقات المجنونة، المجون، التزحلق على أعشاب المصب. الأخت "أنچليك" والأخت "ريتا"، المشرفتان تصرخان بصوت عالٍ بصفيرهما وتصيحان:" انتبهوا، هناك خور" .

تُفرش عدة حصر للنزهة. ليس الأمر كما في غرفة الطعام، إنه إلى حدٍّ ما فوضوي، نجلس كما نريد، نقرفص، نمدد، نلطخ بعضنا بالمربى. المشرفات، واهنات القوى، ترفعن الأذرع للسماء. الأم الرئيسة، الأخت "چيرترود"، المعاونة الرواندية للرئيسة، الأخت المديرة، الأب "هيرمينيچيلد"، والأب "أنچلو" كانوا جالسين على كراسي قابلة للطي. المعلمون أنفسهم كان لهم الحق في الكراسي، لكن المعلمين الفرنسيين فضلوا الجلوس على العشب. إنها الأخت "ريتا" التي كانت تقدم البيرة للسادة: ليس هناك سوى رواندية واحدة تعرف اللياقة جيدًا. من الواضح أن الأم الرئيسة رفضت شراب البريموس الذي قُدم لها، الأخت المديرة استسلمت لفعل الشيء نفسه. سعدت بنبيذ الأناناس من الأخت "كيزيتو".

نادرون هم الحجاج المنضمون لطالبات الليسيه. تعتزم الأم الرئيسة طرد الدخلاء الذين أغراهم– بحجة التعبد– مشهد كثرة البنات المجتمعات. بناء على طلبها، عمدة مدينة نيامينوبي اعتمدت عليه الليسه في منع الدخول للمنبع. حتى السيدة زوجة الوزير والتي دعت بعض الصديقات للاستفادة بسيارتها المرسيديس استغربت من الحاح بنتاها الذي وجد بالفعل مشقة في إقناع رجل الشرطة في رفع الحاجز. لكن

ثمة زائر لم تستطع الأم الرئيسة صرفه، إنه السيد "فونتوناي"، صاحب مزرعة البن. خافت منه البنات بعض الشيء. يقال إنه يعيش وحيدًا في فيلته الكبيرة المتهدمة. لقد تخلى عن معظم مزراع البن. لا نعرف هل هو مجنون أم ساحر أبيض. ينبش الأرض بحثًا عن عظام أو عن جماجم. عربته الچيب القديمة تجهل المدقات، تترجرج ويصطك حديدها فوق منحدرات الجبال. تبرز دومًا في وسط الرحلات الخلوية. يُحيي الأم الرئيسة رافعًا قبعته البوشمان بحركة مسرحية، كاشفًا عن جمجمته الحليقة:" أضع عند قدميك احتراماتي، الأم المبجلة." هذه التي وجدت بالفعل صعوبة في إخفاء ثورتها. السيد "فونتوناي"، نهارك سعيد، لم تكن منتظرًا، فلا تأت لإزعاج حجنًا.– أتيت إكبارًا لك أم النيل"، رد مديرًا ظهره. ببطء قام بجولة على كل حصيرة حيث كانت تتناول تلميذات الليسيه غداءهن، يتوقف في بعض الأحيان أمام واحدة منهن، يسوي آليا نظارته، يحدقها وهو يهز رأسه في حالة من الرضا، ويقوم برسم كروكي لبروفيلها في مفكرة صغيرة. تحت نظرته الحادة، تخفض الفتاة المنتقاة الرأس – وكذلك لما يقتضيه بالتأكيد الأدب – لكن بعضهن لم يستطعن الامتناع عن أن يوجهن له خلسة ابتسامة لطيفة. الأم الرئيسة التي لم تجرؤ على التدخل خوفًا من إثارة فضيحة أكبر أيضًا تابعت بقلق شئون المزارع العجوز. في النهاية، هذا الذي اتجه نحو الحوض الصغير الذي تحتجز فيه مياه المنبع، يلقي في مياه النيل الأولى، بعض التويجات ذات اللون الأحمر الفاقع التي أخرجها من أحد جيوب سترته العديدة، ثم رفع ذراعيه ثلاث مرات نحو السماء، مفتوح الأيدي، متباعد الذراعين وهو يغمغم ببعض الكلمات غير المفهومة. حال وصول السيد "فونتوناي" لمركن السيارات وسماع كركرة موتور عربته الچيب، تقف الأم الرئيسة وتأمر:" يا فتياتي فلنصدح بالتراتيل."تردد معها طالبات الليسية ككورس بينما تشاهد بعضهن على مضض تبعثر سحابة ترابية أثارتها الچيب.

في العودة، تفتح "ڤيرونيكا" كتاب الجغرافيا. ليس من السهل تتبع مجرى النيل. في البداية لم يكن له اسم، ثم يحمل أسماء عديدة. يبدو أنه يخرج من كل مكان. يختبئ في بحيرة، يخرج منها ثانية، إنه أبيض، يختلط بالمستنقعات، من ناحية أخرى، هناك أخوه، الأزرق، في النهاية، وبسهولة، يجري يمينا، من كل جانب، إنها الصحراء، يلعق قدم الأهرامات، العظيمة هناك، بعد أن يتفرق، ويتشابك، إنها الدلتا وكل ذلك ينتهي في البحر الذي، يقولون عنه، أكبر بكثير من البحيرة.

تدرك "ڤيرونيكا" أن شخصًا ما، في ظهرها، ينحني في نفس الوقت التي تنحني فيه على صفحة الكتاب.

– إذًا ،"ڤيرونيكا"، فلتبحثي عن طريق العودة إلى بلدك، هناك حيث أتى أقاربك.لا تقلقي، سوف أصلي لـ نوتردام النيل حتى تحملك التماسيح على ظهرها أو بالأحرى في بطنها.

بالنسبة لـ "ڤيرونيكا"، ضَحِكُ " "جلوريوزا "" لن يتوقف أبدًا حتى في كوابيسها.

٢ – العودة

كم يبدو مظهر ليسيه نوتردام النيل مدعاة للفخر! فمن العاصمة، المدق المؤدي إليها يتفرع بشكل لا نهائي عبر متاهة الوديان والروابي، ومن ثم، في النهاية، حيثما نتوقع أنه سيضيق، يتسلق بعض ثنيات جبال"الكيبيرة"(الجبال التي تُطلِق عليها كتب الجغرافيا، دون وجود بديل أفضل، سلسلة كونجو النيل) وعندئذ يُكتشف مبنى الليسيه

الضخم: يمكننا أن نقول إن القمم قد تباعدت لتفسح لها مكانًا، هناك، على حافة الجانب الآخر، ذلك الذي نلاحظ في الأسفل منه البحيرة المتلألئة. في الأعلى تمامًا، فوق الجبل، تتلألأ، بالنسبة للتلميذات الصغيرات، كقصر مشرق بأحلامهن بعيدة المنال.

كان يمثل بناء الليسيه مشهدًا لا يمكن أن ننساه بسهولة في" نيامينوبي". حتى لا يفوتهم منه أي شيء، تخلى الرجال دائمو البطالة عن أباريق بيرة الملهى، وغادرت النساء مبكرًا جدًا حقول الفاصوليا والإلوزينا[١]، إلى دقات الطبول التي تعلن نهاية اليوم الدراسي، يهرع أطفال مدرسة الإرسالية ويزاحمون الحشد الصغير الذي كان يشاهد ويعلق على الأعمال حتى يكونوا في الصف الأول. كذلك الأكثر جرأة كانوا قد تركوا المدرسة ليراقبوا على طول المدق سحابة العفار التي تعلن عن مقدم الحافلات. مجرد أن يصل الموكب لمستواهم، يسرعون خلف العربات ويحاولون الإمساك بها. نجح منهم البعض، وآخرون سقطوا فوق المدق وبالكاد تجنبوا أن تدهسهم الحافلة التالية. عبثًا كان السائقون يصرخون في محاولة منهم لطرد سرب المتهورين. أوقف البعض حافلاتهم، وأثناء نزولهم، لاذ التلاميذ بالفرار، تظاهر السائق بالجري وراءهم، لكن، بمجرد أن تدور الحافلة مجددًا، تبدأ اللعبة من جديد. في الحقول ترفع النساء فُئُوسهن نحو السماء في شكل علامة تدل على العجز واليأس.

كانت الدهشة العظيمة تنتاب الجميع لعدم رؤيتهم أهرامات الطوب المشتعلة وهي تحرق، عرضُ الفلاحين وهم يحملون الطوب على الرأس، وهذا ما كان يحدث عندما يطلب اللوموبادري[٥] من المؤمنين تشييد فرع جديد أوعندما يستدعي عمدة المدينة

---

[١] نبات أحادي الفلقة من عائلة النجيليات أحد أنواعها ينتج الذرة الرفيعة
[٥] أحد رجال الدين

السكان، يوم السبت، للأعمال المجتمعية، لتوسيع المستوصف أو منزله. لا، هناك، في "نيامينومبي"، كان هناك موقع إنشاء حقيقي من البيض، موقع إنشاء حقيقي من البيض الحقيقيين، مع محركات رهيبة مزودة بكماشات حديد تثقب وتحفر الأرض، ومع حافلات تحمل آلات تحدث ضجيجًا جهنميًّا وتبصق أسمنت، أفراد يصيحون على البنائين بالأوامر باللغة السواحلية وكذلك على البيض، والأفراد القادة هم الذين لا يقومون بعمل أي شيء سوى مشاهدة صفحات كبيرة من الورق التي يبسطونها كقصاصات الأقمشة عند الباكستاني والذين يصبحون شديدي الغضب، وكأنهم يبصقون نارًا، عندما كانوا يستدعون بالقرب منهم صغار الأفراد السود.

في أسطورة موقع الإنشاء، ما تم الحفاظ عليه، وما يزال يُحكى، إنها قصة "جاكير". الحالة "جاكير". دائمًا ما يثير هذا الضحك. في نهاية كل شهر، إنه يوم الدفع في "نيامينومبي". يوم ٣٠، يوم خطر. خطر بالنسبة للمحاسبين المُعرضين للمطالبات الأكثر عنفًا في غالب الأحيان من الأُجراء. خطر لعمال اليومية، الذين كانوا يعرفون أن، ذلك اليوم، الـ ٣٠، اليوم الوحيد الذي كانت تعرف تاريخه زوجتهم، فلم تكن زوجتهم في الحقل لكن كانت تنتظرهم على عتبة الحجيرة من أجل تسلم الفلوس التي يعطيها لهن زوجهن، التحقق من الحساب، ربط الصرة الرقيقة في سلسلة على شكل الموز، إدخالها في إبريق صغير تخبئه تحت القش في وسادة السرير. الـ ٣٠، إنه يوم كل المناوشات، كل أشكال العنف.

يتم إعداد طاولات تحت قطع من القماش المشمع أو سقيفة من القش أو البامبو. كان ذلك للمحاسب. "جاكير" كان محاسب. إنه من كان يدفع أجر عمال اليومية. كان نائب سابق لرئيس "نيامينومبي" وكان قد تم " تصفيته" على غرار كثيرين من قبل سلطات الاحتلال ليحل محله نائب رئيس، في المستقبل القريب يكون عمدة المدينة، ويكون من قبائل الهوتو الآن. كان قد استوظف لأنه كان يعرف كل الناس، فكل

هؤلاء الذين كانوا قد استوظفوا مكانه كانوا لا يتحدثون اللغة السواحلية. فبالنسبة للآخرين، البنائين الحقيقيين، كانوا يأتون من أماكن أخرى– يتحدثون اللغة السواحلية– والمحاسبون كانوا يأتون من العاصمة. كل هذا العالم كان يقف في طابور أمام طاولات المحاسبين، تحت الشمس، وتحت المطر في كثير الأحيان. دائمًا ما كان هناك صرخات، تدافع، نزاعات، اعتراضات، وتشاتم. الأذرع الضخمة التي كانت تحرس الموقع كانت تعيد إقرار النظام، تُسكت الناشزين بالضرب بالعصا، عمدة المدينة وشرطيوه لا يريدون التورط، كذلك البيض. لذا تبوأ "جاكير" مكانه تحت السقيفة، وخزينته الصغيرة تحت ذراعه. كان يجلس على الكرسي، يضع خزينته الصغيرة على الطاولة، ثم يفتحها. كانت مملوءة بالأوراق المالية. يفرد ببطء الورقة المسجل فيها قائمة أسماء هؤلاء الذين سيقوم بالدفع لهم، الذين ينتظرون منذ ساعات، تحت الشمس أو تحت المطر. بدأ في النداء: بيزيمانا، هابينيزا... يتقدم عامل اليومية إلى الطاولة. كان "جاكير" يضع أمامه القليل من العملات الورقية والمعدنية التي تعود له. كان عامل اليومية يبصم بأصبع مسود بالحبر أمام اسمه ويرسم "جاكير" علامة (+) زائد وهو يوجه له بعض الكلمات. طوال اليوم، يعود "جاكير" ثانية الرئيس الذي قد كانه.

لكن ذات يوم، لم يُر "جاكير" وهو يأتي وخزينته الصغيرة تحت ذراعه. سرعان ما فهمنا أنه قد هرب بالخزينة الصغيرة المملوءة بالأوراق المالية. قيل: رحل إلى بوروندي. إن "جاكير" ماكر، هرب بأموال البوزنجو[٦]، لكن هل سنتقاضى رواتبنا الآن؟ كنا معجبين بـ"جاكير" وكنا نحقد عليه: لم يكن ينبغي عليه أن يأخذ النقود المخصصة لأهل "تيامينومبي"، كان يستطيع تدبر أموره بأن يأخذ النقود من خزينة أخرى. ومع ذلك انتهى الأمر بتقاضي عمال اليومية رواتبهم. لم يعد أي شخص

[٦] الأناس الذين أتوا إلى شرق أفريقيا وأقاموا بها فترة طويلة

يحقد على "جاكير" ولم يعد يُسمع عنه أي كلام لمدة شهرين. كان قد هجر زوجته وابنتيه. لقد استجوبهم عمدة المدينة، وراقبهم رجال الشرطة. لكن "جاكير" لم يكن أطلعهم على مجريات مشاريعه غير الشريفة: سرت شائعة أنه بنقوده كان ينوى الارتباط بزوجة جديدة، أصغر سنًا وأكثر جمالًا، في بوروندي. ثم عاد إلى "نيامينومبي"، الأيدي موثقة خلف الظهر، بين اثنين من الجنود. لم يصل قط إلى بوروندي. كان خائفًا من المرور بغابة "نينجوي" بسبب النمور، القرود الكبيرة وأيضًا من فيلة في الغابة لم تعد موجودة منذ فترة طويلة. لقد طاف كل البلاد، الخزينة الصغيرة تحت ذراعه. في منطقة بوچيسيرا[٧]، كان قد حاول عبور المستنقعات الكبيرة، لقد تاه، كانت بوروندي قريبة تمامًا لكنه دار حول نفسه بين نباتات البردي دون أن يبلغ الحد أبدًا. بالفعل لم يكن هناك أي شيء يشير إلى الحد. انتهى الأمر بالعثور عليه، على حافة المستنقع، منهكًا، ناحلًا، لكنه متورم الساقين. لم تعد الأوراق النقدية سوى كتلة إسفنجية تعوم داخل خزينته الصغيرة المملوءة بالماء. حتى يكون مثالًا، رُبط يوم بطوله في ساري خشبي في مدخل الموقع. العمال الذين يمرون من أمامه لا يسبونه، لا يبصقون عليه، يخفضون الرأس ويتظاهرون بعدم رؤيته. جلست زوجته وابنتاه عند قدميه. من حين لآخر، تنهض إحداهن لتمسح له وجهه وتسقيه. حُكم عليه، لم يمكث طويلًا في السجن. لم يعد يُرى مجددًا في "نيامينومبي". ربما ذهب أخيرًا إلى بوروندي مع زوجته وابنتيه، لكن من دون حقيبته الصغيرة. اعتقد البعض أن البوزونجويين كانوا قد استجلبوا سحرًا مؤذيًا على الأوراق المالية، وأن هذه الأوراق الملعونة كانت قد جعلت المسكين "جاكير" يدور حول نفسه ولذلك لم يستطع الوصول أبدًا إلى بوروندي.

[٧] منطقة في الناحية الشرقية برواندا عاصمتها نيامانا

الليسيه، مبني كبير مكون من أربعة طوابق، أعلى من الوزارات في العاصمة. المُستجِدات، في البداية، اللاتي قدمن من الريف، لا تجرؤن على الاقتراب من نوافذ المهجع، في الطابق الرابع. "هل سنذهب للنوم في سكن عالٍ كصغار القردة؟" كن يقلن. القديمات والقادمات من المدن سخرن منهن، يدفعنهن نحو النوافذ: انظري في الأسفل تمامًا، كن يقلن، سوف تسقطين في البحيرة." ومع ذلك تعودت المستجدات في نهاية الأمر المكان. المصلى، الكبير تقريبًا مثل كنيسة الإرسالية، مشيد أيضًا بالأسمنت، بينما قاعة الألعاب الرياضية، الإدارة والورش والجراج حيث يسيطر بالصياح العالي الأخ " أوزيل " كانت مشيدة بالقرميد. يشكلون فناء كبير يغلقه جدار به بوابة حديدية تحدث صريرًا، عندما تُغلق مساءٍ أو عندما تفتح صباحًا، يكون أقوى من رنين الجرس أو المنبه.

بعيدًا إلى حدٍ ما، توجد منازل صغيرة بلا أدوار والتي تسمى، كما نود، فيلات أو أجنحة أرضية، فيها يقيم المدرسون المساعدون. يوجد أيضًا منزل أكبر من المنازل الأخرى، ذلك ما كنا ندعوه دومًا الجناح الأرضي، وهو مخصص للضيوف من كبار الشخصيات، السيد الوزير إذا أتى، النائب الرسولي الذي ننتظر زيارته كل عام. يُستضاف فيه بين الحين والآخر بعض السائحين القادمين من العاصمة أو من أوروبا لمنابع النيل. بين هذه المنازل والليسيه، توجد حديقة بها مروج خضر، بساتين من الزهر، وخمائل من البامبو وبشكل خاص حديقة خضروات. يزرع فيها عمال البساتين الكرنب، الجزر، البطاطس، الفرولة، كما يوجد مربع للقمح. ثمار طماطم "الإنينيه" التي كانوا يحصدونها تسحق بحجمها المتغطرس، الطماطم الصغيرة المحلية المسكينة. تحب الأخت المديرة أن تُجري زيارة لضيوفها إلى بستانها المستجلب حيث أشجار المشمش والخوخ المهاجرة تعاني بشكل واضح الحنين

لمناخها الأصلي. تكرر الأم الرئيسة أنه يجب على التلميذات التعود على الأطعمة الحضرية.

شُيد جدار عالٍ من القرميد للحد من المتطفلين واللصوص. وليلًا، يطوف الحراس المسلحون برمحهم ويراقبون بيقظة البوابة الحديدية.

انتهى الأمر بسكان "تيامينومبي" بعدم الاهتمام بالليسيه. بالنسبة لهم، إنها كصخور ضخمة من منطقة "روتار" والتي يبدو أنها قد تدحرجت على المنحدر الجبلي وتوقفت هناك، لا يعرفون لماذا، في هذه المنطقة، في "روتار". إلا أن أعمال بناء الليسيه قد غيرت الكثير من الأشياء في الناحية. على نحو سريع جدًا، كانت قد أقيمت عدة متاجر حول مخيم البنائين: تجار كانوا حتى ذلك الحين قريبين من الإرسالية، وآخرين كانوا قد قدموا من مكان غير معروف، دكاكين كان يباع فيها مثل كل الدكاكين سجائر بالواحدة، زيت النخيل، الأرز، الملح، جبن الكرافت، سمن المرجارين الاصطناعي، زيت المصابيح، بيرة الموز، وابور الجاز بريموس، الفانتا وفي بعض الأحيان أيضًا، وليس كثيرًا، الخبز ...، ملاهٍ تسمى فنادق حيث يؤكل كباب الماعز مع الموز المشوي والفاصوليا، أكواخ للنساء المسرحات بعار كبير من القرية. عندما اكتمل الموقع، رحل معظم التجار، كل النساء المسرحات رحلن، لكن بقي ثلاثة ملاهٍ، عدة دكانين وخياط: أنشأ ذلك قرية جديدة على جانب المدق المؤدي إلى الليسيه. كذلك بقي السوق الذي انتقل بالقرب من كبائن العمال في طرف الدكاكين.

حتى الآن كان لا يزال هناك يوم يجذب انتباه الفضوليين والمتبطلين من "تيامينومبي" أمام ليسيه نوتردام النيل. يوم الأحد بعد ظهيرة العودة، في أكتوبر، في نهاية موسم الجفاف. يُهرع نحو ممر جانبي من المدق للتطلع إلى عرض السيارات التي تحمل

التلميذات إلى الليسيه. كان هناك سيارات المرسيدس، "الرانج روڤر"، عربات الجيب العسكرية الضخمة حيث يصرخ السائقون بشدة، يزمرون بالكلاكس، يقومون باشارات تهديد كبيرة في محاولة لمضاعفة الأجرة، عربات النقل الصغيرة، العربات الميني باص المحملة بالفتيات والتي تجد مشقة في صعود المنحدر الأخير.

واحدة تلو الأخرى، نزلت تلميذات الليسيه أمام الحشد الصغير الذي كان معقودًا على مسافة من الحاجز السلك الموضوع من قبل شرطيّ المقاطعة وعمدة المدينة شخصيًا. كانت قد جابت ضجة من المشاهدين عندما كانت قد نزلت "جلوريوزا "، المسبوقة بأمها والمتبوعة بـ"موديستا"، من السيارة المرسيدس السوداء ذات الزجاج الملون." إنها صورة طبق الأصل من أبيها، كان قد علق عمدة المدينة الذي كان قد قابل الرجل العظيم في اجتماع للحزب، تحمل بالفعل الاسم الذي منحه لها أبوها، "نييرامازوكا"، إنها البلطة"، ولقد كرر ملاحظته بصوت عالٍ إلى حدٍ ما حتى يسمعه جيدًا الجنود المحيطون به ويشيعون من حولهم اضطرابًا صاخبًا من الإعجاب. "جلوريوزا "، بقامتها المهيبة، تشبه بالتأكيد أباها: زميلاتها، بصوت خفيض، يلقبونها بالماستادون[٨]. كانت ترتدي تنورة لونها أزرق بحري تكشف بالكاد عن ربلتي ساقيها العضليتين وصديرية بيضاء مزررة حتى العنق حيث ينتفخ صدر سخي. عدسات نظارة مستديرة وسميكة تشهد على السلطة المسلم بها التي تنبعث من نظرها. صرف الأب " هيرمينيچيلد" النظر عن الصغيرات الجدد اللاتي دخلن في لمح البصر ولأنه كان مسئولًا عن التجميع والأمن بتوجيه إشارة لصبيين من الليسيه كي يأخذا الحقائب التي كان يحملها السائق الذي يزين ثنية صدر سترته الأزرار المذهبة، هرع نحو القادمات الجدد و، متقدمًا الأخت "جيرترود" المسئولة عن الاستقبال، ليرحب بالأم والبنت بالمعانقات المعتادة ومرتبكًا عبر أشكال ترحيب لا تعد ولا تحصى تقدمها

[٨] حيوان بائد شبيه بالفيل

الكياسة الراوندية. بسرعة قاطعته أم "جلوريوزا " التي قالت إنه ينبغي عليها أن تذهب لتحية الأم الرئيسة ثم تعود بأسرع ما يمكن إلى العاصمة، حيث ينتظرها عشاء عند سفير بلجيكا. لقد كانت مطمئنة أن ابنتها سوف تتلقى في ليسيه نوتردام النيل التربية الديمقراطية والمسيحية اللتين تتوافقان والصفوة النسوية لبلد قامت بثورة اجتماعية كانت قد حررتها من ربقة أشكال الظلم الإقطاعية.

أعلنت "جلوريوزا " أنها سوف تظل عند الحاجز السلك، بجانب الأخت "چيرترود"، تحت علم الجمهورية، لتستقبل زميلاتها في السنة الماضية ولتعلمهن أن أول اجتماع لـ اللجنة التي تترأسها سينعقد غدًا، في حجرة الطعام، بعد الدراسة. تقول "موديستا" إنها تقف على أهبة الاستعداد بجانب صديقتها.

بعد قليل، "جوريتي"، هي أيضًا، جاءت بقدوم مميز. كانت تجلس في الخلف من حافلة عسكرية ضخمة ذات ستة إطارات محززة تثير إعجاب الجمهور. اثنان من الجنود يرتديان الزي المموه ساعداها في النزول، ناديا على الصبية من أجل الحقائب واستأذنا منها لتأدية التحية العسكرية. ابتعدت "جوريتي" بقدر الإمكان عن إسرفات "جلوريوزا" العاطفية:

– تظنين نفسك دائمًا وزيرة، همست لها.

– وأنت كرئيس أركان، ردت "جلوريوزا"، لكن فلتعبري البوابة بسرعة، في الليسيه لا نتحدث سوى الفرنسية، نستطيع في النهاية فهم ما يقوله أهل روهينجري[٩].

فيما كانت تُزيد السيارة البيجو ٤٠٤ من سرعتها في المرتقى الأخير قبل المدرسة، تعرفت "جودليف" على– متدثرة في مئزر– "إيماكوليه"، سائرة على قدميها يتبعها صبي صغير رث الثياب يحمل حقيبة على الرأس. أوقفت في الحال السيارة:

[٩] عاصمة مقاطعة موزانزا في رواندا

– "إيماكوليه"! ماذا حدث لك؟ اصعدي بسرعة. تعطلت سيارة أبيك؟ أنت لم تأتِ هكذا من العاصمة.

تنزع "إيماكوليه" مئزرها وتجلس بجوار "جوديف" بينما يضع السائق الحقيبة في شنطة السيارة. الحمال الصغير يطرق على زجاج الباب ليطلب حقه. ألقت له "إيماكوليه" بيزيتا.

لا تكرري هذا على أحد. إنه صديقي الصغير الذي أوصلني على دراجته البخارية. أنت تعرفين، لديه دراجة ضخمة. ليس هناك دراجة بخارية في "كيجالي" أكثر ضخامة من دراجته، وربما في كل رواندا. هو فخور بذلك. وأنا، فخورة كوني الصديقة الصغيرة للفتى صاحب الدراجة الأضخم في البلاد. أركب في الخلف ثم يمرق بأقصى سرعة في الشوارع. تزأر الدراجة مثل أسد. إنه الهلع. الجميع يولي هاربًا. تُقلب سلال وأباريق النساء. ذلك يضحك صديقي الصغير. وعدني أنه سوف يعلمني قيادة دراجته. سوف أسير أسرع منه أيضًا. قال لي إذًا: "سأحملك إلى الليسيه على دراجتي. وافقت. ومع ذلك كنت خائفة بعض الشيء لكنني وجدت ذلك مثيرًا. ذهب أبي في رحلة عمل إلى بلجيكا. قلت لأمي إني سأسافر مع صديقة. تركني، كما طلبت منه، في المنعطف الأخير. لو رأتني الأم الرئيسة قادمة على دراجة، تتخيلين الفضيحة! كنت سأفصل. بل انظري الآن في أي حالة أكون. احمررت من العفار. الأمر رهيب! فلأتخيل أن أبي لم يعد لديه سيارة، وأنني أتيت في تويوتا، بين الماعز وسبايط الموز، في صحبة الفلاحات اللاتي يحملن أيضًا أطفالهن على الظهر. يا للعار!

– ستأخذين حمامًا وأنا متأكدة أن في حقيبتك ما يكفي من مستحضرات تعيد إليك جمالك.

– لديك حق، لقد نجحت في العثور على كريمات لتفتيح البشرة، ليست كريمات "فينوس دو ميلو" الموجودة في السوق، إنها كريمات أمريكية، أنابيب "كولد كريم"، صابونات خضراء مطهرة، أرسلها لي ابن عمي من بروكسل، من "ماتونج". سأعطيك منها أنبوبًا.

– ماذا سأفعل بها؟ هناك من بينها ما هو جميل أو يُعتقد هذا وأخرى لا.

– يبدو عليك الحزن الشديد، ألست سعيدة بالعودة إلى الليسيه؟

– لماذا سأكون سعيدة بالعودة إلى الليسيه؟ دومًا درجاتي هي الأسوأ، يشفق علي المدرسون لكن ليس أنتم الآخرون، زميلاتي العزيزات. إنه أبي الذي يريدني أن أواصل رغم ذلك. مع الشهادة، يأمل في تزويجي بمصرفي مثله. لكن لديه أيضًا دون شك مشروع آخر.

– تجلدي، "جودليف"، إنها السنة الأخيرة وسوف تتزوجين مصرفيًّا كبيرًا.

– لا تسخري مني، أحتفظ لك بمفاجأة، مفاجأة كبيرة!

– أستطيع معرفة المفاجأة؟

– بكل تأكيد لا، بما أنها ستكون مفاجأة. استقبلت "جلوريوزا" " جودليف" و"إيماكوليه" بازدراء. ألقت نظرة احتقار على البنطلون الضيق والبلوزة عارية الصدر على نحو كبير لـ " إيماكوليه". تساءلت لماذا كانت مغطاة بالعفار لكنها تخلت عن سؤالها على الفور. لم تعر "جودليف" أى اهتمام.

– أعتمد عليكم لأكون من المناضلين الحقيقيين، أسلفت بصوت خفيض، ليس كما فعلتم السنة الماضية. فغندرتي وبابا المصرفي، ذلك ليس كافيًا لجمهوريتنا.

تظاهر كل من " إيماكوليه" و"جودليف" بأنهما لم تسمعا شيئًا.

يرشده الأب "هيرمينيجليد"، يعبر قطيع المستجدات الخجل البوابة تحت بصر "جلوريوزا " المستقص:

– رأيت جيدًا، "موديستا"، تنهدت، في الوزارة، النظام القديم لا يزال له بقايا جميلة. هناك مرونة مع الكوتة[١٠]. إذا حسبت جيدًا، وحسبت فقط اللاتي أعرفهن، أولئك اللاتي أنا متأكدة منهن، نكون فيما وراء النسبة التي منحت لهن للأسف بكثير. إنه غزو جديد! ماذا سنفعل بالثورة الاجتماعية التي قام بها آباؤنا إن تركنا ذلك يحدث؟ سأعلم بذلك أبي. ولكن أعتقد أيضًا أنه يجب علينا تنظيم ذلك، وهذه المرة ننتهي منه مع هؤلاء الطفيليات. تحدثت عن ذلك في مكتب الشبيبة الرواندية، المناضلون، إنهم معي في الرأي. سمعوا لذلك. ليس عبثًا أن أسماني أبي "نيرامازوكا".

منذ أن فتحت الليسيه أبوابها، لم يُر قط في "نيامينومبي" سيارة كالتي كانت قد وصلت فيها "فريدا". إنها سيارة منخفضة، طويلة جدًا، ذات لون أحمر قان، وكبوت، رأيناه، من الممكن أن يُطوى ويُفرد دون أن يلمسه أحد. لم يكن بها سوى مكانين. لقد كان السائق والراكب ممددين في الكراسي تقريبًا كما في السرير. أحدثت صوتًا رعديًا، وثبت مثيرة وراءها دوامة حمراء. اعتقدنا للحظة أنها كانت ستخرق البوابة، ستقلب الأخت " جيرترود "، "جلوريوزا " و"موديستا"، لكنها توقفت بالضبط تمامًا أسفل الساري بصرير جهنمي.

رجل كبير السن إلى حدٍ ما، يرتدي بدلة من ثلاث قطع، صديري مزهر، بنظارة ضخمة سوداء بإطار ذي بريق ذهبي، بحزام وحذاء من جلد التمساح، نزل منها، وسيفتح الباب من ناحية "فريدا"، ساعدها في انتشالها من الكرسي الذي كان مغروسًا

[١٠] هي حصة الـ١٠ % الممنوحة لبنات التوتسي في الليسيه

فيه نصفها. ملست "فريدا" على فستانها، الذي انبسط، واسعًا كشمسية مطر، بلون أحمر قان أيضًا. كلون السيارة. تحت وشاح حريري أرجواني اللون، اكتشفنا أن شعرها أزيل تجعيده بوحشية، الخشن، والجاف، يلمع في الشمس كالأسفلت الذي كان قد غطيت به بعض شوارع " كيجالي".

دون علم "جلوريوزا " و"موديستا"، وجه السائق المسرع حديثه للأخت " جيرترود " باللغة السواحلية:

– أنا سعادة سفير زائير "جان– بابتست باليمبا". لدي موعد مع الأم الرئيسة. فلتأخذيني في الحال إليها.

الأخت " جيرترود "، صدمت من تمكنه من الحديث إليها بهذه اللهجة، الأسوأ من ذلك، باللغة السواحلية، ترددت للحظة، لكنها، رأت الرجل وقد بدا أنه قرر تحطيم الممر وعبور البوابة دون أي إذن، استسلمت لتسبقه.

– انتظريني في البهو، قالت لـ "فريدا"، سوف أنظم كل ذلك، لن آخذ وقتًا طويلًا.

كانت قد ابتعدت "جلوريوزا" عن البوابة على نحو واضح وقد ذهبت إلى الأمام من تسع تلميذات في السنة الأخيرة كن قد نزلن للتو من الميني باص.

– هاهي كوتتنا، قالت وهي ترى وصول إحدى الحافلات والتي كانت تبدو قد انحنت تحت وطأة هرم من براميل مزعزعة وكراتين حملت بشكل سيئ. انظري "موديستا"، لن يمنع أي شيء التوتسي من القيام بالتهريب: حتى عندما يحملون بناتهم للعودة، لا بد أن ذلك يدر عليهم الكثير. يوزع البضائع على دكان "تيامينومبي" ومن يدير الدكان؟ واحد من التوتسي بكل تأكيد، قريب مبهم، على ما يبدو، لوالد "ڤيرونيكا" الذي هو نفسه يمارس التجارة في "كيجالي". أه، تلك، "ڤيرونيكا"، التي تظن أنها

الأجمل، سينتهي بها الأمر لبيع نفسها. و" ڤيرچينا"، صاحبتها، لأنها الأثيرة لدى كل المدرسين البيض، تظن نفسها الأذكى. تعرفين ماذا تُدعى: موتاموريزا، لا تجعلوها تبكي! أستطيع بالفعل تكذيب اسمها. ها هي الكوتة. عشرون تلميذة، اثنتان من التوتسي، ولذلك، لدي عدة صديقات، رواندیات حقيقيات من الغالبية العظمى من الشعب، من شعب الفأس الذي لم يعد له مكان في المدرسة الثانوية. كما يكرر أبي، بالفعل يجب أن نتحرر من هذه الكوتة ذات يوم، إنها قصة بلجيكية!

لقد واكبت "موديستا" هجوم "جلوريوزا" اللاذع بنحنحات مستصوبة لكن، فيما كانت "جلوريوزا" تغدق على تلميذاتيّ التوتسي بمعانقات خلوقة ومحابية تمامًا، وقفت جانبًا.

– المعانقات، قالت "جلوريوزا " عندما ابتعدتا " ڤيرچينيا" و" ڤيرونيكا"، هي الأفضل لخنق الثعابين لكن، أنت، "موديستا"، تخافين أن تلتحمي مع أخواتك غير الشقيقات، بالفعل أنت تشبيههن ومع ذلك لا بد أن أدعمك إلى جانبي.

– تعرفين جيدًا أنني صديقتك.

– من الأفضل لك أن تبقي دائمًا صديقتي، قالت "جلوريوزا " وهي تضحك بصوت عالٍ وقوي.

عند غروب الشمس، رنين الجرس وصرير البوابة التي انغلقت أعلنا رسميًا بداية العام الدراسي. بالفعل، كانت المشرفات قد أوصلت الطالبات إلى مهاجعهن المختلفة. تلميذات السنة النهائية كان لهن الحق في بعض المميزات. كذلك مهاجعهن كانت مقسمة لمخادع حتى تضمن كل واحدة بعض الخصوصية. خصوصية نسبية تمامًا والتي لم تكن محمية في الممر إلا بستارة خضراء خفيفة ومن ثم عندما تقوم المشرفة بجولاتها تستطيع فتحها في أي لحظة. علاوة على ذلك، هذه التقسيمات للأسرة، التي ندعوها "الحجرات"، مع أنها طرحت من قبل الأم الرئيسة

كمثال للتقدم والتحرر اللذين وصلا إليهما الطالبات بفضل التربية المتوفرة من ليسيه نوتردام النيل، لم تكن مستحسنة من جميعهن. لم يعد ممكنًا الهمس بثرثرات بين الجارات حتى تستغرقن في النوم، خاصة، هل كانت تستطيع فتاة النوم بمفردها؟ في المنزل، كانت الأمهات تعتني بما تتقاسمه الصغيرات من سرير أو حصيرة مع الكبيرات. هل تكن بالفعل أخوات إذا لم تنمن مضمومات إلى بعضهن البعض وكيف تكن صديقات مخلصات إذا لم يقمن بالبوح على حصيرة مشتركة؟ لقد عانت كثيرًا الطالبات من النوم وحيدات في المخدع. تراقبن خلف القطوع تنفس جارتهن مما كان يطمئنهن بعض الشيء. في مهجع طالبات السنة الثانية، أصرت الأخت "جيرترود" على كون المقيمات لا يجب أن تُقَرِبن أَسرتهن: "هنا، تقول، نحن في ليسيه، وليس في المنزل. ننام فرادى، كل واحدة في سريرها، كمتحضرات."

طُلب من الطالبات أن يرتدين زيهن وأن يذهبن في طابور ثنائي إلى المصلى، حيث توجه لهن الأم الرئيسة والأب "هيرمينيچيلد" كلمة ترحاب. جلسن على دكك المصلى. أولئك اللاتي لم يكن لديهن زي بعد أو كن قد نسينه تم إبعادهن إلى الدكك الأخيرة في الخلف.

لاحت الأم الرئيسة والأب "" هيرمينيچيلدمن وراء المذبح، جثيا أمام الهيكل والتفتا نحو التلميذات. ظلا لفترة طويلة صامتين. تفرس الأب" هيرمينيچيلد" بابتسامة أبوية الصغيرات الجدد اللاتي كن قد أُجلسن في الصف الأول.

أخيرًا أخذت الأم الرئيسة الكلمة. رحبت بكل التلميذات وبالأخص اللاتي التحقن بالليسيه للمرة الأولى. نبهت إلى أن ليسيه نوتردام النيل كانت قد كرست لتشكيل صفوة البلد النسوية، وأن هؤلاء اللاتي أسعدهن الحظ بأن يكن هنا، أمامها، يجب أن تصبحن نماذج لكل نساء رواندا: ليس فقط كزوجات رائعات، كأمهات فضليات،

ولكن أيضًا كمواطنات صالحات وكمسيحيات صالحات، لا تنفصل إحداهما عن الأخرى. النساء لعبن أيضًا دورًا عظيمًا في تحرير الشعب الرواندي. إنهن، تلميذات ليسيه نوتردام النيل، من كن قد اخترن ليكن طليعة النهوض النسوي. بل من المنتظر أن يصبحن محركات التقدم، نبهت بقوة على الطالبات، بأنه يجب عليهن الطاعة الحرفية لـ لائحة الليسيه، وأدنى تقصير سيواجه بعقاب صارم. كانت تريد التأكيد على مسألة ما. بعبور بوابة المدرسة، اللغة الوحيدة المسموح بها هي اللغة الفرنسية، عدا بشكلٍ واضح أثناء حصص اللغة الكينية الرواندية، لكن فقط أثناء الحصة ولا يجب الخروج عن ذلك. بجانب أزوجهن الذين يشغلون وظائف مرموقة (ومن ناحية أخرى لماذا هن لا يشغلن بعضها؟)، ستكون الفرنسية، اللغة التي يجب عليهن استخدامها. ولا سيما يجب عدم السماح، في مدرسة موضوع عليها كلمة العذراء مريم، بأي كلمة سواحلية، لغة يرثى لها تلك التي كانت لغة المتشيعين لمحمد. تمنت للجميع عامًا رائعًا ومُجِدًا ودعت لهن ببركة نوتردام النيل.

ألقى الأب "هيرمينيچيلد" خطابًا طويلًا مضطربًا إلى حدٍ ما يؤكد أن شعب الهوتو الذي كان قد استصلح الغابات الشاسعة المنيعة حتى ذلك الحين والتي تغطي رواندا قد تحرر أخيرًا من تسعمائة سنة من سيطرة الهاميت[١١]. هو نفسه، آنذاك الكاهن المتواضع من رجال الدين الأصليين، كان قد ساهم، على نحو متواضع جدًا دون شك– لكنه يستطيع هذا المساء أن يبوح بذلك– في الثورة الاجتماعية التي ألغت الرق والسخرة. إنه حتى لو لم يكن جزءًا من الموقعين على إعلان باهوتو ١٩٥٧، كان، وذلك دون المفاخرة، أحد الملهمين الرئيسيين: الأفكار، المطالبات التي عرضت فيه، كانت أفكاره. كذلك دعا كل هؤلاء الفتيات الجميلات المملوءات بالطموح اللاتي سمعنه واللاتي سيصبحن ذات يوم سيدات عظيمات أن يتذكرن دومًا العرق الذي

[١١] التسمية الرسمية لجماعة اثنية في رواندا تشكل ٦و٩من مجموع الشعب

ينتمين لـه، هذا العرق هو عرق الأغلبية والأصلي الوحيد و... الأم الرئيسة، المرعوبة بعض الشيء من مثل هذه الفصاحة المتدفقة، قاطعت الخطيب بنظرة:

-...و...و الآن، يقول الأب " هيرمينيچيلد" بثغثغة في الكلام، سوف أمنحكم بركتي وأدعو لكم ببركة نوتردام النيل التي ترعانا والقريبة جدًا من مدرستنا عند منبع النهر العظيم.

٣- أعمال وأيام

كان أسبوع العودة بشكل دائم تقريبًا أسبوع قدوم المطر. وإن تأخر في المجيء، يطلب الأب "هيرمينيچيلد" من طالبات الليسيه أن يذهبن، يوم الأحد، بعد القداس، لتقديم باقة من الورود لـ نوتردام النيل. تقطف الطالبات الورود تحت المراقبة القلقة للأخت المديرة التي تخشى رؤية تخريب أحواض زهورها، ثم تذهبن لإيداع الحزمة أسفل التمثال، أمام النبع الذي لا ينضب أبدًا. في معظم الوقت، لم يكن هناك حاجة لهذا الحج. الرعد الذي كان يسير هديره بلا نهاية من الوادي حتى البحيرة يعطي الإشارة بموسم المطر. السماء، الأكثر سوادًا من سافلة قدر عتيق،

كانت تفيض بشلالات مياه يحتفل بها أطفال "نيامينومبي" فرحًا من خلال صراخهم ورقصهم.

بالنسبة لطالبات السنة النهائية لم يعد ثمة غموض في أيام الليسيه. ما عدن ينتفضن من الأصوات التي توقظهن كل صباح: صرير البوابة، رنين الجرس، صافرات المشرفات اللاتي يطفن بالمهاجع ويوبخن أولئك اللاتي يتأخرن عن مغادرة سريرهن. دائمًا كانت " جوديف" آخر من ينهض، وهي تنتحب لأنها لا تريد البقاء في الليسيه، ولأنها لم تخلق للدراسة. تشجعاها "موديستا" و" إيماكوليه"، تكررا عليها أن إجازات أعياد الميلاد اقتربت، وأن هذا عامها الأخير، وكان ينتهي بهما الأمر بسحبها بالقوة إلى خارج السرير. سريعًا، كان لا بد أن تنزع قميص النوم، تلف نفسها في أحد البشكيرين الكبيرين الأبيضين اللذين وزعتهما الأخت المديرة عند العودة، تلفه تحت إبطها، تجري نحو الحمام وتتدافع حتى تصل لإحدى الحنفيات (الدش، كان للمساء). بفضل قامتها، كانت "جلوريوزا" أول من يتجه نحو الماء الذي يتدفق منها: على أي حال، لا بد أن تتنازل لها عن مكانها. بعد الحمام، يتبقى القليل من الوقت لترتدي الفتسان الأزرق من الزي وتذهب لمطعم الليسيه حيث ينتظرها طبق من العصيدة والشاي اللذين تبتلعهما "ڤيرجينيا" وهي مغمضة العينين في محاولة جاهدة للتفكير في "الإكيفوجوتو" اللذيذ، ذبدة اللبن التي كانت تعدها لها أمها كل صبح أثناء العطلات.

أبعدت عنها الفنجان الصغير المملوء بالسكر البودرة الذي كان يتنازع عليه الأخريات بقوة، حتى لو كان بعضهن لديه مؤنته التي يملأ بها حتى المنتصف الفناجين فيجعلن منها عصيدة سكر. بالنسبة لـ" ڤرجينيا"، السكر به طعم مرارة رهيب. كان السكر نادرًا في التلال. عندما كانت قد دخلت "ڤرجينيا" الفصل السادس، لم تره قط بهذا القدر إلا في الفنجان الذي يوضع للإفطار على كل مائدة

في حجرة الطعام. كانت تفكر " ڤرجينيا" في أخواتها الصغار. لو كانت تستطيع، على الأقل، أن تحمل لهن سعة الفنجان الصغير! كانت قد تخيلت حواف شفتيها بيضاء تمامًا من السكر. قررت أن تسحب خفية بعض ذرات البودرة النفيسة التي تملأ الفنجان الصغير. لم يكن الأمر سهلًا. السكر، لذائذ الطعام المبتغاة، كانا تحت مراقبة فائقة. فضلا عن ذلك، بما أنها كانت من التوتسي، كان يصلها الفنجان آخر واحدة، ولم يكن باقيًا داخله سوى الآثار الأخيرة. كانت تجمع بعناية البقايا البقية هذه في ملعقتها الصغيرة، وبدلًا من أن تسكب السكر في كوبها، تسكبه خلسة، بأسرع ما يمكنها في أحد جيوب زيها. كل مساء، تفرغ جيبها. في نهاية الثلاثة أشهر، كانت قد نجحت في ملء نصف كيس. لكن "دوروتيه"، جارتها في الطاولة، كان قد فاجأها تدبيرها. عشية الإجازة، قالت لها.

– أنت لصة، سوف أشي بك.

– أنا لصة!

– نعم، تسرقين السكر كل صباح. أتظنين أنني لا أراك. تودين العمل بالتجارة أثناء العطلة، عندكم، في الريف، في السوق، بالسكر المسروق.

– إنه لأخواتي الصغيرات. لا يوجد سكر في الريف. لا تفضحيني.

– ربما يمكننا تدبر الأمر. أنت الأفضل في اللغة الفرنسية. إذا كتبتِ لي موضوع التعبير القادم، لن أقول شيئًا.

– دعيني أحمل السكر لأخواتي الصغيرات.

– إذًا سوف تكتبين لي موضوعات التعبير حتى نهاية العام.

سأفعل لك ذلك. أقسم لك، حتى نهاية العام.

اندهش الأستاذ من التقدم المفاجئ لـ" دوروتيه". شك بالفعل في خديعة ما لكنه تنازل عن إجلاء الأمر. الآن حصلت "دوروتيه" على أفضل الدرجات في اللغة الفرنسية.

دوى رنين الجرس مجددًا. إنها بداية الحصص. لغة الفرنسية، رياضيات، تربية دينية، الصحة العامة، تاريخ وجغرافيا، فيزياء، تربية رياضية، لغة إنجليزية، اللغة الكينية الرواندية، خياطة، لغة فرنسية، مطبخ، تاريخ وجغرافيا، فيزياء، الصحة العامة، رياضيات، تربية دينية، مطبخ، لغة إنجليزية، خياطة، لغة فرنسية، تربية دينية، تربية رياضية، لغة فرنسية...

تتلاحق الأيام وراء الأيام، تتعاقب الحصص وراء الحصص.

في الهيكل التعليمي لـ ليسيه نوتردام النيل، لم يكن يوجد سوى اثنتين روانديتين: الأخت " ليدوين" و، بديهي جدًا، معلمة اللغة الكينية الرواندية. كانت الأخت " ليدوين" معلمة التاريخ والجغرافيا. لكنها كانت تفصل بوضوح المادتين: طبقًا لها، التاريخ، التاريخ لـ أوروبا، الجغرافيا، لأفريقيا. كانت الأخت " ليدوين" مولعة بالقرون الوسطى. في حصصها، لم يكن يتعلق الموضوع سوى بـ، القلاع الحصينة، الأبراج الرئيسية في الحصون، سفاكي الدماء، فتحات إطلاق القذائف، الجسور المتحركة، أبراج الحماية الصغيرة...الفرسان المباركين من البابا الذين انطلقوا في حملات صليبية لتحرير القدس وذبح العرب. وعن آخرين اشتبكوا بحرابهم من أجل العيون الجميلة للسيدات ذوات القبعات الطويلة. كانت تتحدث الأخت "ليدوين" عن روبن هود، إفانهويه، ريتشارد قلب الأسد." رأيتهم في السينما! لم تستطع منع نفسها من لفت نظر "ڤيرونيكا". – تودين بالفعل إسكات نفسك، كانت الأخت " ليدوين" غاضبة، لقد عاشوا منذ زمن طويل جدًا، عندما لم تكن أقدام أجدادك قد وطئت

رواندا بعد." بالنسبة لأفريقيا، لم يكن هناك تاريخ بما أن الأفريقيين لم يعرفوا القراءة والكتابة قبل أن تفتح الإرساليات مدارسها. فضلا عن ذلك، الأوروبيون هم من اكتشف أفريقيا وجعلوها تدخل التاريخ. وإذا كان هناك ملوك لرواندا، من الأفضل نسيانهم، الآن، النظام جمهوري. في أفريقيا إذًا، ثمة جبال، براكين، أنهار، بحيرات، صحاري، غابات وأيضًا بعض المدن. يكفي حفظ أسمائها ومواقعها على الخريطة: كيليمانجارو، تامانراسيه، كاريزمبي، تومبوكتو، تانجانيكا، موهابورا، فوتاجالون، كيفو، أواجادوجو...لكن في الوسط –كانت هناك كعظاءة كبيرة– أفريقيا، تشير الأخت "ليدوين" بصوت هامس، وهي تلقي نظرات مستريبة تجاه الردهة، تكسرت لنصفين، ووجدت ذات يوم رواندا على ساحل البحر، فوق أي جزء من القارة، الشمال أم اليمين، كانت عاجزة عن تحديد ذلك. يأسًا من الأخت " ليدوين"، انفجر كل الفصل بالضحك، حتمًا البيض لم يتوقفوا عن ابتكار قصص مزيفة مرعبة لتخويف الأفارقة البؤساء.

كان معلم الرياضيات هو السيد "ڤان دير بوتن". لم تسمعه تلميذاته قط ينطق كلمة باللغة الفرنسية. لم يكن يتواصل مع الفصل إلا من خلال الأرقام (بالفرنسية، تلك الكلمات التي، يجد نفسه مضطرًا لها حقًا) ولا سيما وهو يغطي السبورة بالصيغ الجبرية أو وهو يرسم بكل ألوان الطباشير الأشكال الهندسية. على العكس، كان يجري محادثات طويلة مع الأخ " أوزيل " بلهجة كانت بلا شك لهجة إحدى القبائل البلجكية. لكن عندما يتوجه بالكلام للأم الرئيسة، كان، على مايبدو، من خلال لهجة مختلفة قليلًا. الأم الرئيسة، من الواضح أنها محظوظة، تجيبه باللغة الفرنسية مفصلة المقاطع. كان السيد " ڤان دير بوتن" يبتعد مهمهما بلهجته غير المفهومة بكلمات ربما لم تكن فظة كما بدا عند سماعها منه.

بالتأكيد، كانت حصص التربية الدينية مسندة للأب " هيرمينيچيلد". كان يثبت، بكثير من الأقوال المأثورة، أن الروانديين كانوا يعبدون دائمًا إلهًا واحدًا، إلهًا يدعى "إيمانا" والذي كان بمثابة الأخ التوءم لـ ياهوي في التوراة العبرية. كان الروانديون القدماء مسيحيين دون معرفة ذلك وينتظرون بفراغ الصبر مجيء الإرساليات لتعميدهم لكن الشيطان قد أتى ليفسد براءتهم. تحت قناع "ريانجومبي"، كان قد سحبهم لعربدات ليلية خلالها شياطين لا تعد ولا تحصى يستحوذون على أجسادهم وأرواحهم، تجعلهم يلقون خطابات فاحشة ويقترفون أفعالًا يمنعه الأدب من ذكرها بدقة أمام فتيات طاهرات. وشم الأب " هيرمينيچيلد" بعلامة الصليب عدة مرات وهو ينطق باسم "ريانجومبي" اللعين.

سعيد المعلم الذي ينال سعادة التدريس في رواندا! ليس هناك تلاميذ أكثر هدوءًا، أكثر إقبالًا على التعليم، أكثر انتباهًا من التلاميذ الروانديين. توافقت بصرامة ليسيه نوتردام النيل مع قاعدة الحكمة العامة هذه باستثناء إحدى الحصص حيث كان يسود، إن لم يكن صخب طلابي، على الأقل بعض الجلبة، إنها حصة ميس سوث، معلمة اللغة الإنجليزية. في الحقيقة لم تفهمن الطالبات بالفعل لماذا يجبرن على تعلم لغة لن يتحدثنها في أي مكان في رواندا، حتى لو، ربما، في كيجالي، كنا نستطيع سماعها عند بعض الباكستانيين المهاجرين حديثًا من أوغندا أو (وذلك يوضح فعلًا أي نوع لغة كانت) عند الآباء البروتستانت الذين، كما كان يكرر الأب "هيرمينيچيلد"، يحرمون الصلاة لمريم العذراء. لم يكن هناك أي شيء في بنية أو في سلوك ميس سوث يجعل من لغة شكسبير لغة جذابة. كانت امرأة ضخمة جافة وخشنة، قصيرة الشعر وعلى الجانب خصلة طويلة تضرب نظارتها المستديرة ومعها كانت تكافح عبثاً. كانت ترتدي دائمًا تنورة بليسيه زرقاء اللون والتي كان قد أبهتها الغسيل المتكرر وبلوزة بزهيرات بنفسجية زاهية مغلقة الأزرار حتى الياقة. بعد دخول

صاخب، كانت تلقي على المكتب بحقيبة مقشرة الجلد تستخرج منها أوراقًا توزعها على كل الفصل متهادية ومصطدمة بطاولات التلميذات. تنظر لها التلميذات بثبات، الوجنة مستندة على اليد اليمنى، في انتظار سقوط لن يحدث أبدًا. أثناء الحصة، كانت تتلو بدلًا من قراءة النص المكتوب بالاستنسل، ثم تقوم بالتكرار في شكل كورس ما قالته للتو. كانت التلميذات تتساءل بصوت عالٍ عما إذا كانت مكفوفة البصر، مجنونة أو ثملة. تزعم "فريدا" أنها كانت ثملة: الإنجليز، تؤكد، يشربون من الصباح حتى المساء كحوليات قوية جدًا، أكثر قوة من الأوروارا، من الجوني ووكر الذي كان قد أذاقه لها صديقها السفير والذي جعل رأسها يدور. أحيانًا تحاول "ميس سوث" جعل الفصل يغني:

حلوتي تسافر عبر المحيط[١١]

حلوتي تسافر عبر البحر...

لكن كان هناك تنافر في الأصوت لدرجة جعلت معلم الفصل المجاور يتدخل بأسرع ما يمكن ليعيد قليل من الصمت. أخيرًا، تتنفس الصعداء التلميذات.

هذه هي السنة الثالثة التي يقوم فيها مدرسون فرنسيون بالتدريس في ليسيه نوتردام التيل. عندما تلقت الأم الرئيسة خطاب الوزارة لتعلمها أنها سوف تستقبل ثلاثة مدرسين معاونين فرنسيين، كان قد ملأها هذا الخبر بالقلق. أشركت الأب "هيرمينيچيلد" مخاوفها. سوف يتم التعامل مع شباب، كانت تشعر بالخوف، غير محنكين بما أن الرسالة حددت أنهم يأتون، طبقًا لأحد هذه التعبيرات التي اعتاد الفرنسيون ابتكارها، بعنوان" من متطوعي الخدمة الوطنية الفعلية".

---

[١١] أغنية من الفلكلور الأسكتلندي

– إذًا، ختمت الأم الرئيسة، هم شباب لم يودوا تأدية الخدمة العسكرية، مجموعة من مناهضي العسكرية، ربما هم مستنكفون ضميريًا، لم يعد يفوتنا أنهم قد يكونوا شهود أليهوه (الرب)! ذلك لا يبشر بأي شيء جيد. وتعرفون، قال الأب "هيرمينيچيلد"، ما حدث في فرنسا ليس منذ فترة طويلة جدًا: الطلبة في الشوارع، الإضرابات، المظاهرات، الاضطرابات الشعبية، الاعتصامات، الثورة! لا بد من وضع هؤلاء السادة تحت النظر، والإشراف على ما يقولونه في الحصص، حتى لا يغرسوا الخراب، الإلحاد في نفوس تلاميذنا.

– لا نستطيع أن نفعل أي شيء، كان قد أجاب الأب "هيرمينيچيلد"، هؤلاء الفرنسيون، إذا ما أرسلوهم لنا، فذلك أمر سياسي، أمر دبلوماسي. يلزم بالفعل أن يوسع بلدنا الصغير علاقاته. على أي حال، ليس هناك سوى بلجيكا...

الفرنسيان الأولان اللذان كان قد أوصلهما إلى الليسيه سيارة من سفارتهما طمئنا إلى حدٍ ما من الأم الرئيسة. بطبيعة الحال، ما كانا يرتديان رابطة عنق وأحدهما، تفصيلة مقلقة، كان لديه جيتار في حقائبه، لكنهما كانا يبدوان إلى حدٍ بعيد مؤدبين، خجولين، ومستغربين بعض الشيء لأنهم– بشكل مفاجئ جدًا– انتقلوا إلى أعماق أفريقيا في هذه الجبال الضائعة من بلد ما يجهلون اسمه حتى ذلك الحين." السيد لوبوانت، أوضح المستشار الثقافي بشكل غامض إلى حدٍ ما، أراد أن يأتي بوسائله الخاصة. يجب أن يصل قبل الليل أوعلى أقصى تقدير غدًا."

فعلًا نزل الفرنسي الثالث صباح اليوم التالي من خلف سيارة تويوتا. ساعد بشكل لطيف النساء اللاتي كن يحملن أطفالهن الرضع على ظهورهن في النزول. وكأنها مركبة رسمية، فتح له حرس الليسيه البوابة على مصرعيها التي أحدثت صريرًا كالعادة. كنا في الساعة الثانية من الحصص، والطالبات، على الأقل أولئك

اللاتي كن بالقرب من النوافذ رأين شابًّا طويلًا جدًّا ونحيفًا جدًّا يتقدم عبر الفناء، مرتديًا بنطلونًا (جينز) ضاعت كل ألوانه وقميصًا (كاكي) بنصف كم مفتوحًا عن آخره على صدره المشعر، وليس معه من أمتعة سوى حقيبة ظهر يزينها العديد من الشعارات. لكن ما أدهش اللاتي كن محظوظات برؤيته وانتزع منهن صرخة مفاجئة، مع أن كل الأخريات، رغم معارضات المدرسين، نهضن وأسرعن تجاه النوافذ، كان الشعر، خصلة شعر شقراء كثيفة تنسدل في تدفق مموج حتى منتصف ظهره.

– إذًا، إنها فتاة، كانت قد قالت "جودليف".

– لا، انظري جيدًا، من الأمام، إنه رجل، عارضت "فريدا".

– إنه هيبز، أوضحت "إيماكوليه"، الآن الشباب في أمريكا، كلهم هكذا.

كانت قد ذهبت الأخت "جيرترود" مسرعة لتخبر الأم الرئيسة:

– أه، يا إلهي! يا أمنا، الفرنسي، هناك!

– إيه، ماذا، الفرنسي؟ أدخليه.

– أه، يا إلهي، أيها الفرنسي! الأم الموقرة، ستقابلها!

بالكاد قمعت الأم الرئيسة دهشة فزعة عندما دخل مكتبها المدرس الجديد.

– أنا "أوليفييه لابوانت"، قالها الفرنسي بلامبالاة، لقد عينوني هنا. بالفعل ليسيه نوتردام النيل، أليس كذلك؟

الأم الرئيسة، مصدومة بسخط، لم تجد شيئًا ترد به واكتفت، حتى تستعيد صوابها، بأن تعهد به للأخت "جيرترود".

– الأخت "جيرترود"، أوصلي السيد لمكان إقامته.

"كانياروشاتسي"، الأشعر، كما أسمته الطالبات، ظل محبوسًا في جناحه الأرضي لمدة أسبوعين. نضع، قيل له، اللمسة الأخيرة في الجدول. تقريبًا كل يوم، وفد مرسل من قبل الأم الرئيسة– الأب "هيرمينيچيلد"، الأخت "جيرترود"، الأخت " ليدوين"، أساتذة بلجيكين، مواطنيه وفي النهاية الأم الرئسية نفسها– يحاول بدعوى الزيارة للمجاملة إقناعه بأن يقوم بقص شعره. كان الأشعر مستعدًا لمنح كل الامتيازات: يرتدي قميصًا ورابطة عنق، بنطلونًا مناسبًا. لكن بخصوص طول شعره، كان متصلبًا على نحو مطلق. اقترحنا عليه أن يقصه على الأقل حتى قفاه. رفض رفضا تامًا. أبدًا لن تمس شعرة واحدة من شعره. شعره الطويل هو فخره الوحيد، رائعة شبابه، كل سببه في الحياة، لن يتخلى عنه من أجل أي شيء في العالم.

انهالت الأم الرئيسة على الوزارة بالخطابات الميئوس منها. إن شعر المدرس الفرنسي الطويل والمخزي يهدد كل الأخلاقيات سواء المدنية أو المسيحية مما يضع مستقبل الصفوة النسوية الرواندية في خطر. كتبت الوزارة خطابًا منزعجًا لسفير فرنسا ولمستشارها الثقافي. هذا الذي أتى ليهدد الأشعر. عبثًا. رغم المراقبة التي كان غرضها محيط جناحه، أتت الطالبات تتجول حوله. كنا نراه غالبًا، بعد غسل شعره، يُجفف في الشمس الصحوة خصلات شعره الطويلة الذهبية. بعضهن ذهبن إليه للقيام ببعض الإشارت، ولمناداته من بعيد: "كانياروشاتسي! كانياروشاتسي!" بعد الملل من الحرب، انتهوا إلى السماح له بالقيام بالتدريس. كان مدرس رياضيات، كنا بحاجة له. ومع ذلك أحبط أداؤه كثيرًا التلميذات. باستمرار، لم يبتعد أبدًا عن معادلاته. في الواقع، كان يشبه كثيرًا السيد "فان دير بوتن" إلا أنه، عندما كان يدير ظهره ليكتب على السبورة، كانت الطالبات يتأملن بافتتان التدفق المتموج لشعره الطويل. بانتهاء الحصة، وعندما يخرج كانياروشاتسي من الفصل، الأكثر جسارة من طالبات السنة النهائية يهرعن ليحيطن به، تحت دعوى طرح بعض الأسئلة عما لم يفهمنه، في

محاولة منهن للمس شعره. كذلك كان يجاوب بأسرع ما يمكن دون أن يجرؤ على النظر لجماعة الفتيات اللاتي كن يستعجلنه ويدفعنه. في نهاية المطاف يتخلص من جمع السائلات المدعيات ويهرب بالخطوة السريعة عبر الممر.

في نهاية العام، تمت إعادته إلى فرنسا." كنا حينئذ صغيرات في السنة الثانية، أسفت "إيماكوليه"، لكن، لو كان لا يزال هنا، كنت سأستطيع ترويضه الآن."

– لم تأكلن أي شيء بعد، أسفت الأخت "بينجين" التي كانت قد عينت في المطبخ لتساعد الأخت العجوز "كيزيتو" التي كانت ترتعش يداها ولم تعد تستطيع السير إلا مستندة على عكازين، الأطباق تأتي لي نصف ممتلئة. أيخفن أن أسممهن؟ يعتبرونني مسممة؟ أود أن أعرف بالفعل ما الذي جعلهن يعتقدن هذا. هل لأنني من چيسكا[١٢]؟

– لا تقلقي، هدأت من روعها الأخت "كيزيتو"، في خلال أسبوع، سواء من كنتِ "جيسكا" أو لا، ستفرغ الحقائب وطبخك، سواء أعجبهن أم لم يعجبهن، ستكن مضطرات بالفعل أن يأكلنه، ولن تتركن منه الفتات.

قبل الانطلاق إل الليسيه كانت الأمهات يلتزمن بملء حقائب بناتهن بمأكولات أكثر لذة مما كانت تستطيع أن تتخيل أو تجهز أم رواندية.

– في الليسيه، كن يقلن، لن نجعلهن يتناولن إلا من طعام البيض. هذا ليس أمرًا جيدًا بالنسبة للروانديين، ولا سيما للبنات، يقال إن هذا قد يجعلهن عقيمات.

ومن ثَّم تتحول الحقائب إلى خزانة أطعمة سخية حيث– بكل محبة– تكدس الأمهات الفاصوليا ومعجنات المنيهوت مصحوبة بمرقها في أوعية الكفيت[١٣]

[١٢] نسبة للمملكة الحامدية الصغيرة في جيسكا وهي كانت في وسط أفريقيا ولا يعرف تاريخ قيامها بالضبط
[١٣] نوع من الأوعية يشبه الأحواض الصغيرة أو ما يسمى علب الثلاجة

الصغيرة المطلية بزهور كبيرة والتي تم لفها في قطعة من إزار، ثمار الموز التي تطهى طوال الليل على نار هادئة، الإبيشكي، عيدان القصب هذه التي نمضغها ونعاود مضغ نخاعها الليفي والطاهر الذي يملأ أفواهكم بعصيره الحلو، ثمار البطاطا الحلوة، الحمراء، والجاهونجزية، كيزان الذرة ، حبات الفول السوداني، وأيضًا، بالنسبة للقادمات من المدينة، قطع زلابية بكل الألوان والتي يعرف السواحليون سرها، ثمار الأفوكا التي لا توجد إلا في سوق "كيجالي" وحبات فول سوداني حمراء، محمصة ومملحة.

ليلًا، ما أن تغادر المشرفة المهجع، تبدأ المأدبة. تُفتح الحقائب، تفرد المؤن على الأسرة. يتم التأكد من أن المشرفة قد نامت بالفعل، لكن بعضهن، الأخت "ريتا" على سبيل المثال، لم تكن مخدوعات وكن مهيئات تمامًا للسماح بالفساد حتى يشاركن الولائم. تقارن مؤن كل منهن، يقرر ما يجب تناوله أولًا، تجهز قائمة طعام السهرة، تفضح الأنانيات، الجشعات اللاتي حاولن أن يخصمن لهن فقط قليلًا من خزانة طعامهن في المأدبة العامة.

للأسف! تنفذ المؤن بسرعة ولم يعد يتبقى منها بعد أسبوعين أو ثلاثة إلا بعض حفنات من الفول السوداني والتي نحتفظ بها كعزاء أخير في الأيام السيئة. يجب أن نعقد العزم بالفعل على أن نتغذى بما كان يصنع في غرفة الطعام: البرغل عديم الطعم، هذه العجينة الصفراء التي تلتصق في الحنك والتي يلتهمها الأب "أنجلو" –المدعو غالبًا كأحد الجيران– بشهية واضحة وهو يشيد بالاسم الرنان لعصيدة البولينتا، الأسماك الصغيرة الطرية والدهنية التي نخرجها من علبتها، وأحيانًا، يوم الأحد وأيام الأعياد، لحم لم نعرف لأي حيوان، ندعوه لحم البقر المعلب...

– كل ما يأكله البيض، تزفر "جوديف"، يخرج من العلب، حتى قطع المانجو والأناناس التي تسبح في عصير، وثمار الموز الحقيقية الوحيدة التي تقدم لنا، هي ثمار موز محلاة لإنهاء الوجبة، لكن ليس هكذا يؤكل الموز. مجرد ما أن أعود لبلدتي في الإجازة، مع أمي، سوف نعد ثمار موز حقيقية، سنشرف على الخادم وهو يقشرها ويضعها لتطهى في الماء والطماطم. وبعد ذلك، أمي وأنا، سنضيف إليها كل ما يمكن: بصل، زيت النخيل، نبات السبانخ الإرينجارنجا اللذيذ جدًا، نبات الإزوجي شديد المرارة، أسماك صغيرة مجففة نداجالا. مع أمي وأخواتي نقوم بعمل وليمة.

– أنت لا تعرفين أي شيء، قالت "جلوريوزا"، المطلوب، إنها صلصة الفول السوداني، إكينيّجا، وتطهى على مهل، بالطريقة التي تجعل جوف الموز يتشرب بالصلصلة.

– لكن، صححت "موديستا"، لو قمتِ بطهيه بغاز البوتان وفي كَسَرُولَّة مثل أهل المدينة، سينضج الموز بأقصى سرعة، ولن يكون طريًا، لا بد من الفحم النباتي وبشكل خاص قدر فخاري. هكذا يأخذ وقتًا طويلًا. أنا سوف أعطيكِ الطريقة الصحيحة، طريقة أمي. أولًا لا يجب تقشير أصابع الموز، نضع قليلًا من الماء في داخل قِدر كبير ونضع فوقه أصابع الموز، مرصوصة جيدًا، ونغطيها كليًا بطبقة من أوراق شجر الموز، لا بد أن يكون هذا محكمًا، تختارين أوراقًا غير ممزقة. فوقها، لإحداث ثقل، نضع شققة من الفخار. يجب الانتظار طويلًا، فينبغي أن يُطهى هذا على مهل ولكن، لو كنتِ صبورة، ستحصلين على أصابع موز بيضاء تمامًا، طرية حتى قلبها. يجب تناولها مع الإكيفوجوتو، اللبن المخضوض، وتدعين الجيران.

– "موديستا" المسكينة، تقول "جوريتي"، دائمًا تصنع أمك الطعام الشهي، أصابع موز بيضاء تمامًا، ونظيفة ومصحوبة باللبن! سيكون لديك دائمًا طرائق أمك!

أنا، سأقول لك ما يجب أن تعديه لأبيك: أصابع موز حمراء تمامًا لأنها ستتشرب عصارة الفول. أنا متأكدة أن أمك لن تود لمسها لكن، عندما يعدها الخادم لأبيك: ستكونين مجبرة بالفعل على الأكل منها. علمي إذًا الوصفة لأمك: تقشرها، و، عندما تكون الفاصوليا قد نضجت تقريبًا ولكن مع بقاء نصف الماء، تضعها في القدر وتتركها لتتشرب كل العصير المتبقي. في ذلك الوقت تصبح حمراء، بُنية، بهذه الطريقة تكون ممتعة، كثيفة القوام! هذا هو موز الروانديين الحقيقيين الذين لديهم القدرة على استخدام الفأس!

– جميعكن، تقول "ڤيرجينيا"، أنتن بنات المدينة أو بنات الأثرياء، لم تأكلن قط الموز في الحقول. هناك يكون الأفضل! في أغلب الأحيان، عندما نعمل في الحقل ولا يكون لدينا وقت للعودة إلى المنزل، نشعل نارًا صغيرة ونشوي موزة أو موزتين، ليس في النار المؤججة بكل تأكيد، ولكن في الرماد وهو لا يزال أحمر تمامًا. لكن هناك ما هو أفضل بكثير: عندما كنت فتاة صغيرة، مع صواحباتي، كانت تعطينا أمي في بعض الأحيان بعض الموز. حينئذ نذهب إلى الحقل بعد حصاد محصول الذرة الرفيعة، نقوم بعمل حفرة صغيرة. نشعل نارًا في الحفرة من أوراق الموز الجافة. وعندما تكون قد أخمدت، نسحب الجمرات، في الوقت الذي لا تزال فيه الحفرة حمراء، نغطيها بورقة– خضراء لا تزال– من شجر الموز، ندفس الموز في الحفرة ونغطيه بالتراب الذي لا يزال ساخنًا. لم يعد إلا أن نغطيها بورقة من شجر الموز رششناها بقليل من الماء. عندما تجف الورقة تمامًا، من الممكن أن نفتح الحفرة. قشر الموز يشبه زي الجنود المموه وباطنه طري: ذلك يذوب في الفم! منذ ذلك أعتقد أنني لم آكل موزًا لذيذًا كهذا.

– ماذا جئتِ تفعلين في الليسيه إذًا، قالت "جلوريوزا"، كان ينبغي عليك البقاء في ريفك لتأكلي الموز في الحقول. كان يجب أن تتركي مكانك من أجل رواندية حقيقية من الغالبية العظمى من الشعب.

– بكل تأكيد، أنا من الريف ولست مخزاة من ذلك ولكن، أنا مخزاة مما قلت ومن كل ما قلناه للتو. هل يتحدث الروانديون عما يأكلون؟ إنه لعار أن نتحدث عن هذا. إنه أيضًا عار أن نأكل أمام الآخرين، أن نفتح الفم أمام شخص ما، وهذا ما نفعله طوال الأيام!

– هذا حقيقي، قالت "إيماكوليه"، البيض ليس لديهم أي حياء. أسمعهم عندما يدعوهم أبي من أجل أعماله. كان مجبرًا تمامًا. البيض، كانوا يتحدثون طوال الوقت عما يأكلون، عما سيأكلونه.

– والزائيريون، قالت "جوريتي"، وهي تنظر لـ "فريدا"، يأكلون النمل الأبيض، الجراد، الثعابين، القرود، وهم فخورون بذلك!

– عما قريب سوف يرن الجرس للذهاب لحجرة الطعام، قالت "جلوروزيا"، فلنذهب وأنت، "فرجينيا"، سوف تجبرين على فتح الفم أمامنا لتناول بقايا الروانديات الحقيقيات.

٤- المطر

كانت تمطر على ليسيه نوتردام النيل. منذ كم من الأيام، من الأسابيع؟! لم نعُد نُحصي. وكأنه أول أو آخر يوم في الدنيا، الجبال والسحب لم تعد سوى سديمية هادرة وحسب. كان المطر يسيل على وجه نوتردام النيل، غاسلًا قناعها الزنجي. كان قد أغرق المنبع المفترض حافة الحوض بسيل ناري. المارون على المدق (في رواندا، دائمًا ثمة مارُّون على المدق، لن نعرف أبدًا أين يذهبون ولا من أين يأتون)، احتموا تحت أوراق أشجار الموز العريضة، حيث غشاء رقيق من الماء يتحول إلى مرآة خضراء.

المطر لمدة أشهر طوال، إنه مليك رواندا، أكثر بكثير من الملك السابق والرئيس الأن، المطر،إنه ما ننتظره، ما نتوسله، هو ما يقرر الجدب أو الرخاء، والذي سيكون الفأل الحسن لزواج خصيب، فالمطر الأول بعد موسم الجفاف يجعل الأطفال يرقصون وهم يمدُّون وجوههم نحو السماء ليستقبلوا حبات المطر الضخمة المشتهاة كثيرًا، المطر الوقح الذي يُعري، من تحت مئزرهم المبلل، الهيئات الغامضة لكل البنات،العشيقة العنيفة، المماحكة، المتقلبة، هذا الذي يخشخش فوق كل البيوت الصفيح، البيوت التي تتوارى تحت بساتين الموز كبيوت أحياء العاصمة الموحلة، ذلك الذي ألقى بشباكه على البحيرة، محا تجاوزات البراكين، يسيطر على غابات الكونجو الشاسعة، التي هي أحشاء أفريقيا، المطر، المطر، دون نهاية، حتى المحيط الذي يلده.

– ربما تمطر هكذا على الأرض قاطبة، قالت "موديستا"، ربما سوف يستمر هطول المطر، لن يتوقف المطر أبدًا، ربما هذا مجددًا طوفان عصر نوح.

– تخيلوا، يا بنات، قالت "جلوريوزا "، لو كان هذا الطوفان، عما قريب لن يبقى سوانا على الأرض، الليسيه في مكان عالٍ جدًا عن الغرق، ستكون كفلك نوح. سنكون وحدنا على الأرض.

– وعندما ينحسر الماء– لأنه سينحسر بالفعل ذات يوم– سيكون علينا إعمار الأرض. لكن إذا لم يكن هناك فتيان، كيف سيحدث هذا؟ قالت "فريدا". المدرسون البيض، قد رحلوا منذ فترة طويلة ليغرقوا في بلادهم، وأنا، الأخ "أوزيل" أو الأب "هيرمينيچيلد"، لا أرغبهما.

– كوني جادة ، قالت– "ڤيرچينيا"، الطوفان، هي قصص الأبابادريين[١٤] . في بلدي، على الرابية، مجرد أن تمطر، نهجر الحقول ونلتف حول النار. إنها العطلات. لا نحتاج للذهاب للبحث عن الماء، نصنع مزاريب من أشجار الموز لاستعادة المطر. نأخذ حمامًا ثم نغسل الملابس في المنزل. نمضي الوقت في شي الذرة وفي نفس الوقت تدفئة الأقدام. لكن انتبهن، إن فرقع الكوز وقذف بحباته، ذلك يجذب البرق. وستقول أمي :" لا تضحكن، أولئك اللاتي تظهر أسنانهن، خاصة اللاتي تكون لثتهن حمراء، تستدعين البرق."

– ثم، في رواندا، هناك الـ "أبافوبيّ"، صانعو المطر، قالت – ڤيرونيكا. إنهم يسيطرون على المطر. يجعلونه يأتي أو يوقفونه. لكن ربما ما عادوا يعرفون كيف يوقفونه. أو الآن، ينتقمون من الإرساليين الذين يسخرون منهم ويندون بهم في البلدة.

– وأنت تعتقدين في ذلك، أنت، في الـ " أبافوبيّ"؟

– لا أعرف لكني أعرف منهن واحدة، امرأة عجوز. ذهبت لأراها مع " إيماكوليه" ، تسكن قريبًا جدًا من هنا.

– احكي لنا.

– ذات يوم أحد بعد القداس، قالت لي " إيماكوليه":" أود أن أذهب لرؤية " كاجابو"، المعالج، هذا الذي يبيع أدوية غريبة في السوق. لدي بعض الخوف من الذهاب للعثور عليه بمفردي. تودين المجيء معي؟ " بكل تأكيد كنت مستعدة لمصاحبة "إيماكوليه"، كنت شغوفة بمعرفة بما كانت ستفعله مع الساحر الذي تعتبره الأخوات قائمقام الشيطان. "كاجابو"، في السوق، تعرفينه، يقف تمامًا في آخر طابور النساء

[١٤] اللجنة الأسقفية لرعوية الشباب.

التي تبيع الفاصوليا وحزم الخشب. بعيدًا إلى حدٍ ما، لكنه يُترك في هدوء، لا تجرؤ شرطة البلدية على الاقتراب منه وزبائنه لا يحبون أن نعاينهم كثيرًا. ثم، أمامه، على قطعة من حصيرة، يعرض بضائع مقلقة بعض الشيء؛ لكن قد يكون هناك من يقول لي فيما يمكن أن تستخدم هذه الجذور ذات الأشكال الغريبة، كل هذه الأعشاب والأوراق الجافة والقواقع الصغيرة التي تأتي من بعيد جدًا، من البحر، الخرزات الزجاجية مثل القلادات التي كانت ترتديها جداتنا، جلود السنور النمري، الثعابين، السحالي، فئوس صغيرة، رؤوس سهام، جلاجل، أساور من سلك نحاسي، مساحيق مغلفة في علب من لحاء شجر الموز ولا أعرف ماذا أيضًا...لا أعتقد أن لديه الكثير من الزبائن، فأولئك الذين يأتون للعثور على "كاجابو" يتظاهرون فقط بالشراء، لكنهم يتواعدون من أجل أشياء خطيرة، في منزله، لا أعرف أين، ليُعالجوا بأوانيه الصغيرة المملوءة بماء النيل، أو لعمل سحر ما أو الانعتاق منه، أو من أجل أشياء أكثر خطورة أيضًا.

"اقتربنا من "كاجابو"، ارتجفنا قليلًا. لم تجرؤ "إيماكوليه" على التوجه إليه. انتهى الأمر إلى ملاحظته لنا والإشارة لنا. "ماذا أستطيع أن أفعل لكما، أنستيّ الجميلتين؟" قالت "إيماكوليه"، بصوت خافت جدًا، وبسرعة شديدة:" كاجابو، أنا بحاجة لك. هاك، اسمعني. لي خطيب، في العاصمة. أنا خائفة من أن يهتم بغيري من الفتيات، أن يهجرني. أعطني شيئًا ما حتى أحتفظ بمحبوبي، ألا يفكر في سواي، ألا يري أي فتاة أخرى، وأن لا يوجد، بالنسبة له، إلا فتاة واحدة في العالم. لا أود رؤية فتاة أخرى على دراجته النارية." رد كاجابو:" أنا أشتغل على الأمراض، أنا معالج، أما قصص الحب، هذا الأمر لا يتعلق به. لكني أعرف شخصًا ما يمكنه تدبير هذا لك: إنها "نيامبرونچي"، صانعة المطر. تهتم فقط بالسحب. إن أعطيتني مائة فرنك،

الأحد القادم سأقودك إليها، تستطيعي أن تأتي مع صاحبتك، لكنها ستدفع إذًا مائة فرنك، هي أيضًا. تأتين بعد نهاية السوق. سنذهب إلى "نياميرونچي"."

" الأحد التالي، ذهبنا، "إيماكوليه" وأنا، بعد نهاية السوق. كان "كاجابو" قد حزم كشك سحره في كيس قديم من لحاء شجر اللبخ." آه، أنتما! اتبعاني، أسرعا، لديكما المال ومال "نياميرونچي" أيضًا؟ ناولناه الأوراق المالية ذات المائة فرانك وانطلقنا على المدق الذي يقود إلى البلدة. تركناه بسرعة وحاذينا قمة الجبل، في منتصف الطريق. كان " كاجابو" يسير بسرعة فائقة، يبدو أن قدميه العاريتين بالكاد تلامسان الأعشاب. "أسرعا، أسرعا"، كان يكرر دون توقف. كنا نتبعه بالكاد، كنا نلهث تمامًا. وصلنا إلى هضبة. هناك، رأينا البحيرة والبراكين في الأسفل تمامًا، على الضفة الأخرى. جبال الكونجو. لم نتوقف للإعجاب بالمنظر. أشار لنا "كاجابو": خلف شريط من الصخور، هناك يوجد كوخ صغير، مثل كوخ باتوا، منه يتسرب دخان أبيض يتبعثر ليمتزج بالغيوم." انتظرا، قال "كاجابو"، سوف أرى هل تقبل السماح لكما بالدخول." انتظرنا وقتًا طويلًا. داخل الكوخ، سمعنا وشوشات، انتحابات، ضحكات صغيرة حادة. خرج " كاجابو":" تعاليا، قال، أخيرًا وضعت غليونها على قطعتها الفخارية، تريد أن تقابلكما بالفعل."

" دخلنا الكوخ مطأطأتين. كان الكوخ شديد الظلمة، مملوءًا بالدخان. أخيرًا ميزنا أشعة حمراء لجمرات نار و، في الخلف شكل متدثر في ملحفة. قال صوت تحت الملحفة:" اقتربا، اقتربا." أشار لنا " كاجابو" بالجلوس، ثم انفرجت الملحفة ولمحنا وجه امرأة عجوز، متغضن، متجعد، مثل ثمرة فاكهة "ماركودچا" يبسة لكن عينيها اللامعتين كجذوات. "نياميرونجي"، بما أنها هي، سألتنا عن اسمينا. لقد ضحكت عندما قالت لها "إيماكوليه" إنها تدعى موكاجتار." قد لا تكوني بعد بهذه الطهارة لكن سيأتي هذا ذات يوم. "سألت عن آبانا وأجدادنا. فكرت للحظة، ورأسها الصغير بين يديها اللتين

بدتا لي ضخمتين للغاية. ثم تلت أسماء أجدادنا القدامي، حتى أسماء أولئك الذين لا ينبغي لآبائنا أن يعرفوها. لستما من عائلات عظيمة، ختمت وهي تضحك، لكن اليوم يقال إن هذا لم يعد مهمًا."

" التفتت نحو " إيماكوليه":" هكذا قال لي " كاجابو" أنه أنت من تريد مقابلتي." أوضحت " إيماكوليه" أن لها محبوبًا في العاصمة، لكنها كانت قد سمعت شائعات، أن صديقات كن قد كتبن لها ذلك، إنهن رأين خطيبها مع فتيات أخريات على دراجته النارية. كانت تريد أن تمنع "نيـاميرونچي" هذا، وألا يذهب محبوبها مع بنات أخريات، وأن يكون لها فقط..

-"- حسنًا، قالت " نيـاميرونچي" ، أستطيع أن أتدبر هذا. لكن أخبريني، هل ضاجعتِ محبوبك؟

"- أوه لا،أبدًا!

"- داعب نهديك على الأقل؟

"- نعم، نعم، قليلًا ، ردت " إيماكوليه" مطأطئة الرأس.

"- وباقي الجسم أيضًا؟

"- قليلًا، قليلًا، همست " إيماكوليه".

"- حسنًا، سأرى، سأتدبر هذا.

" فتشت "نياميرونچي" في سلسلة من القرعات والأوعية الفخارية التي كانت مكدسة من حولها. استخرجت منها حبوبًا تفحصتها طويلًا، انتقت البعض منها ووضعتها في هون. أحالت الحبوب المنتقاة لمسحوق، بصقت لأعلى، وهي تغمغم بكلمات غير

مفهومة وصنعت منها عجينًا لفته في قطعة من ورق شجر الموز، مثل عجينة المنيهوت.

– أمسكي، خذي هذا، سوف تكتبين لمحبوبك، أنت في مدرسة ثانوي، تعرفين الكتابة، الآن حتى الزوجات يعرفن الكتابة! خلال ثلاثة أيام، ستجف العجينة، ستجعلينها مسحوقًا وستضعينها في رسالة، لكن قبل ذلك، لا تنسي، ادعكي بها نهديك وباقي الجسم. عندما يفتح خطيبك الرسالة سيشم المسحوق، وأعدك بذلك، ستحتفظين بمحبوبك لك وحدك، لن يذهب مع فتيات أخريات، أعطيني خمسمائة فرنك ولن يرى بعدُ إلاك، لن يفكر إلا فيك، ستمسكين به كسجين، كلمة من "نياميرونچي" ، ابنة "كيتاتير"، لكن مع ذلك يجب أن تتركيه يداعب، كل شيء، اسمعيني، كل شيء.

" استعادت غليونها وسحبت منه ثلاث نفثات.

" أعطتها " إيماكوليه" ورقة نقدية بخمسمائة فرنك دستها "نياميرنوجي" تحت ملحفتها.

" التفتت نحوي:

"– وأنت لماذا أتيت ؟ ماذا تريدين مني؟

" – قيل لي إنك تتحكمين في المطر، أود أن أرى كيف تفعلين.

"– أنت فضولية للغاية. لا أتحكم في المطر: أحدثه، يجيبني. أعرف دومًا أين يوجد وإذا طلبت منه أن يأتي أو يرحل، وإذا كان لا يمانع هو أيضًا، يفعل ما أطلبه منه. أنتن الأخريات، الشابات الموجودات في المدرسة، في الأبابايري، لم تعدن تعرفن أي شيء. قبل أن يطرد البلجيكيين وزعيم الأبابايري الملك "يوهي موسنجا"، كنت شابة كانوا يحترمونني بالفعل. كانوا يعرفون قوتي لأنني أخذْتُها عن أمي التي أخذَتْها

عن أمها التي أخذَتْها عن أمها... التي أخذَتْها عن جدتنا الأولى، "نيّرامفورا"، جدة المطر. كنت أقيم في بيت في سفح الجبل. بيت كبير بالقرب من مورد الماء. حينما كان المطر يتأخر، وأنتِ تعرفين ما يكون المطر، هو لا يعرف أبدًا متى ينبغي أن يأتي، قاد الزعماء أبقارهم إلى موردي حيث يوجد الماء دائمًا. أتوا بالراقصين من الشباب، الإنتور. ثم قالوا لي:" نياميرونچي، قولي لنا أين المطر، قولي له أن يأتي وسوف نمنحك أبقارًا، جرارًا من نبيذ العسل، ملابس ترتدينها وكأنك في بلاط الملك." ورددت عليهم:" أولًا يجب الرقص من أجل المطر، وبعد أن تكون قد شربت أبقارك، ويرقص الإنتور من أجل المطر." وكان يرقص الأنتور أمامي وعندما يكونون قد رقصوا بما يكفي، أخبر الزعماء: "عودوا إلى منازلكم لأن المطر يأتي، سوف يلحق بكم قبل أنت تصلوا." وسوف يهطل المطر على الأبقار، على ثمار الفاصوليا، على الذرة، وعلى القلقاس، سيهطل على أبناء "چيهانجا"[١٤]: على التوتسي، على الهوتو، على الباتوا. كثيرًا ما أنقذت البلاد ولذلك أطلقوا علي أوموبيي،" الأم"، أم البلاد. لكن عندما أهدى البازونجو الطمبور للملك الجديد، طردوني من بيتي، كانوا يودون شنقي، تواريت فترة طويلة في الغابة. والآن أنا عجوز جدًا، أعيش في كوخ الباتوا هذا. يذهبون عند الأبابادير لأنهم يستجلبون المطر. لكن هؤلاء البيض هل يعرفون التحدث إلى المطر؟ ليس هناك مطر في المدرسة، إنه لا يسمعهم: المطر يفعل ما يريد. ينبغي أن نعرف التحدث إليه. الآن لا يزال هناك من يأتون لرؤيتي. وكصديقتك، ليس فقط من أجل المطر. وأنت تريدين معرفة كيف أتحدث إلى المطر وكيف، إن أراد حقًا، يطيعني، ارقصي من أجل المطر، ارقصي أمامي للمطر. فمنذ وقت طويل جدًا لم يرقص أحد أمامي للمطر.

---

[١٤] أول ملك لـ رواندا

"ـ نيـاميرونچي! تـرين جيدًا أنـه لا يمكننـي الـرقص بـزي الليسيه هذا وكوخك صـغير جدًا جدًا لكن، أرجوكِ، قولي لي حتى أين يكون المطر الآن.

" ـ حسـنًا ، إذا لـم تريـدي الـرقص، أعطينـي خمسـمائة فرنـك وسـوف أقـول لـك أيـن المطر.

" أعطيتها الخمسمائة فرنك.

"ـ حسنًا أنت فتاة طيبة. سوف أظهر لك ما أقدر على عمله.

" فردت ذراعها الأيمن. كانت القبضة مغلقة لكن السبابة كان ممدودًا تجاه قبة الكوخ. كـان لـديها ظُفر طويل جدًا، مثل مخالب النسر. وجهت الـذراع، السبابة ذو الظّفر الكبير في الجهات الأربع. ثم ثنت الذراع تحت ملحفتها.

"ـ أعرف أين المطر. إنه فوق البحيرة، قال لي إنه في طريقه. ارحلي بسرعة، أسرعي قبل أن يلحق بك. إني أراه، يأتي، يعبر، البحيرة. أعطيني خمسمائة فرنك أخرى لو أردتِ ألا يقصفكِ البرق، لم ترقصي من أجله، أغضبتِ المطر، أعطيني خمسمائة فرنك والبرق ينقذك.

" ـ بسرعة ، قال " كاجابو"، افعلا ما قالته وارحلا.

" جرينـا، جرينـا فوق المنحـدر وفوق المـدق. تجمعت السـحب وصـعدت نحونـا. هزم الرعد.عندما عبرنا بوابة الليسيه، انطلق عنان المطر ومزق البرق السماء.

بقيت الفتيات صامتات لفترة طويلة ليسمعن دقات المطر الصلبة.

– أعتقد، فـي النهايـة قالـت "موديستا"، أن "نيـاميرونچي" والمطـر لـديهما الكثير من الأمور ليتحدثا فيها، لن ننتهي من هذا المطر أبدًا.

– سينتهي مثل كل عام مع موسم الجفاف، قالت "جلوريوزا "، لكن، أخبريني، يا– "ڤيرونيكا"، " إيماكوليه"، استعادت محبوبها؟

– وصل ليراها في الحال، رأى أهل "نيامينومبي" دراجة نارية ضخمة تمرق كالإعصار كما لم يروا مثلها أبدًا، أخافت كل الناس، كسرت فتاة جرتها لكن بكل تأكيد لم يحضر الخطيب إلى الليسيه. تواعدا في كوخ الراعي المهجور، بالقرب من المنبع. تعرفين ما يفعلانه هناك. اتبعت "إيماكوليه" نصائح "نياميرونچي" وربما أكثر قليلًا، إنني خائفة.

– أنت، يا – " ڤيرونيكا"، قالت "جلوريوزا "، أنت فضولية جدًا، هذه حيلة مؤذية من أجل التردد على السحرة، أنا متأكدة أنك رقصتي أمام الساحرة، فقط التوتسي هم من يرقصون أمام الشيطان، أستطيع أن أفضحك لكنني لا أود أن أسبب متاعب لـ "إيماكوليه"، أبوها رجل أعمال، أبي يقول إنه كريم تجاه الحزب، على أي حال، لو أن هذه المرأة العجوز ترجع العشاق، ولو أنها تسيطر على المطر، سوف أذهب أنا أيضًا لرؤية "نياميرونچي": قد تفعل شيئًا ما في السياسة.

٥ – إيزيس

– اسمعي، "ڤيرچينا" ، لدي أمر ما أقصه عليك. لكن لا تكرريه على أحد.

– تعرفين جيدًا، – ڤيرونيكا،إن، نحن التوتسي أيضًا، نستطيع الحفاظ على أسرارنا. تعلمنا المواراة. لابد من ذلك بالفعل إذا كان المرء يتمسك بالحياة. تعرفين ما يكرره علينا الأباء: " عدوك، لسانك." إن كنت تظنين أن ما ستخبريني به سر، يمكنك الثقة في، أستطيع المحافظة على الأسرار.

– إذًا اسمعيني جيدًا. تعرفين أني، يوم الأحد، أحب التنزه بمفردي في الجبل. لذلك تغضبين مني، لكني لا أحب الذهاب كالأخريات إلى حانوت أو عند الخياط، خلف ماكينة الخياطة، لأرى من أوصته بعمل فستان جديد. أفضل أن أكون بمفردي، لم أعد أود رؤية كل هؤلاء البنات اللاتي يكرهوننا. عندما أصل أعلى الجبل، أجلس على إحدى الصخور، أغلق عيني، لم يعد هناك أحد، لم يعد سوى النجوم الجميلة التي تتلألأ تحت الأجفان. وفي بعض الأحيان أتخيل نفسي في حياة أخرى أكثر سعادة كالتي لا توجد إلا في الأفلام...

– هذا كل ما لديك لتحكيه؟

– لا، انتظري، كنت قد رحلت بعيدًا باتجاه صخور الروتار الضخمة، بعيدًا جدًا لدرجة أنني لم أعد أعرف إلى حدٍّ كبير أين كنت ولم يكن يقيم أي شخص هناك. فجأة، سمعت من خلفي ضجيج محرك. لا يمكن أن أخطئ: ما يحدث صوت الاصطكاك الحديدي هذا في الدغل الشاسع؟ إنها عربة السيد "فونتوناي" الجيب. في الحقيقة، وفيما الجيب تتخطاني، توقفت فجأة، بالضبط أمامي. خلع السيد "فونتوناي" قبعته.

"– تحياتي، يا أنستي، أأنت تائهة، بعيدة جدًا عن الليسيه؟ اصعدي، سنقوم بنزهة في عربتي الجيب وسأعيدك للمدق.

" أنا خائفة، قلبي يثب في صدري كما لو كان سيفلت منه، أفر منه، أجري، تلاحقني الجيب .

" ـ هيا، لا تخافي، لا أريد بك أي سوءًا فضلًا عن ذلك، أعرفك، أعرف أنه أنت، لاحظتك في الحج بين الأخريات، رسمت لكم بورتريهات، تعالي، يجب أن أعرضها عليك .

" أنهج بشدة، لم أعد أستطيع الجري، توقفت الجيب بجانبي.

"ـ نعم، نعم، قال السيد "فونتوناي"، بالفعل أنت، تلك التي كنت قد لاحظتها، تلك التي أبحث عنها، بالفعل أنت التي أحتاجها، هي التي أرسلتك.

" نظر إلي بثبات وكأنه مفتونٌ بوجهي. أخفضت عيني بكل تأكيد، لكنني أشعر أن حب الفضول في النهاية سيتغلب على خوفي.

"ـ ماذا تريد مني.

"ـ لا شيء سيء، على العكس تمامًا. أقسم لك، ليس لدي نوايا سيئة. لن ألمسك. أعدك. ثقي في. اركبي، سوف أريك منزلي. سوف تجدين نفسك كما ينبغي أن تكوني. منذ زمن بعيد والمعبد ينتظر إلهته.

" ـ ينتظر إلهته؟

"ـ سوف ترين بنفسك .

" بقدر ما كنت أخافه، كان حب الفضول أقوى كثيرًا .

"ـ موافقة، لكن يجب أن تعيدني إلى الليسيه قبل الساعة السادسة دون أن أُرى.

"ـ سأرجعك خلسة.

" صعدت الجيب ونزلت لا أعرف كم من المنحدرات. كانت تترجرج، تصر، تخشخش. ذلك كان يحدث ضجة جهنمية. يضحك "فونتوناي" دون التوقف عن النظر إليّ. كانت السيارة وكأنها تسير بنفسها. أخيرًا وصلنا لمدق ومررنا تحت قنطرة، تشبه قليلًا التي نقيمها في العيد القومي، لكن هذه كانت بأكملها من الحديد.

لدي وقت لقراءة لافتة دولة "فونتوناي"، وفوق الكتابة، أعتقد أني لمحت لافتة أخرى أصغر كان مرسومًا عليها صورة السيدة العذراء، ترتدي قبعة قرون بقر تشبه التي عرضها علي "فونتوناي" بعد ذلك في منزله. مررنا بين صفوف من أشجار البن المهملة، ثم سرنا بمحاذاة مساكن متداعية مشيدة من القرميد، تشبه تمامًا المساكن المهجورة. توقفنا أمام المنزل الكبير.

"ـ تعالي، قال لي "فونتوناي"، سأريك مزرعتي وسوف أعرض عليك ما قد يخصك.

" كان لا يزال لدي بعض الخوف، لم أكن أفهم دائمًا كل ما كان يقوله، ولا ما كان يريده مني، لكن لم يعد ثمة وسيلة للتراجع، وكان لدي بالفعل رغبة في معرفة كل ما يمكن أن يعنيه هذا حقًا. كنت أعتقد أنه، في كل الحالات، سوف أجد طريقة للتخلص منه...

" عبرنا البرزة (*) وفي الصالون الكبير، أسرع نحونا خادم بأكواب من عصير البرتقال. كان يرتدي بدلة بيضاء بكتافيات مذهبة. لم تغادرني عينا "فونتوناي" أثناء احتسائي عصير البرتقال. وأنا كنت أشاهد قرون البقر الوحشي، أنياب الفيلة، جلد الحمار الوحشي التي كانت معلقة على الجدران.

"ـ لا تنتبهي لهذا المهرجان، لكل هذه الغنائم، إنها لأولئك الذين ما عادوا يأتون لرؤيتي، وهذه هي كل الحيونات التي لم أكن أرغبها بعد أن قتلتها. اتبعيني.

" سرنا في ممر طويل يؤدي إلى حديقة. في الخلف من خميلة من أشجار الخيزران، كانت توجد بحيرة يغشاها نبات البردي وفي الخلف أيضًا، ما ينبغي أن يكون مصلى، لكن ليس مثل كنائس الإرساليات.إنه بناء مستطيل الشكل بأعمدة في

(*) ممر على شكل قوس

كل أرجائه. بالاقتراب منها، رأيت أن كل الأعمدة كانت منحوتة: كانت تشبه نباتات البردي. في الداخل، كانت الجدران مغطاة بالرسومات: في أحد الجوانب بقرات بقرون النيامبو(*) الكبيرة، ومحاربين يشبهون راقصينا الإنتور، وفي الأمام شخصية عظيمة يجب أن تكون الملك، بتاج من اللؤلؤ كالذي كان يرتديه الموامي(*) موزينجا. في الجانب الآخر، موكب من الفتيات السودوات اللاتي كن يشبهن الملكات قديمًا. يبدو أنهن كن يمشين خلف بعضهن، ومنظر الوجه من الجانب. كن يرتدين نفس الأثواب الملتصقة بالجسد وعاريات الصدور، علاوة على أن الأثواب كانت شفيفة وفي الثنيات، نرى تقعر بطنهم وسيقانهم. كان على رؤوسهن أنواع من الشعر المستعار، لكنها لم تكن تشبه الشعر، كانوا مثل طائر. على الجدار من الداخل، يوجد نموذج للعذراء العظيمة، سوداء مثل نوتردام النيل، ترتدي مثل السيدات الموجودات على الجدار، لكنها كانت مرسومة من الوجه وترتدي قبعة تشبه تلك التي كنت قد رأيتها على باب دخول المزرعة: قرنَي بقرة وقرص يلمع كالشمس. كنت أشعر أن السيدة تنظر إليّ بعينيها الواسعتين السوداوين كشخص حي. أمامها، على منصة، كان يوجد كرسي فوتيّ بمسند عالٍ جدًا ومُذهب كالذي يجلس فيه الأسقف في الكاتدرائية. كان موضوعًا على المقعد قبعة غريبة.

"ـ انظري جيدًا، قال لي السيد "فونتوناي"، تعرفينها، تعرفين نفسك؟

" لم أعرف بماذا أرد.

"ـ انظري جيدًا، كرر، إنها سيدة النيل، الحقيقية. ألا تشبيهينها بالفعل؟

"ـ وماذا في ذلك؟ إنها سوداء مثلي. هل هناك أكثر من ذلك؟ اسمي – ڤيرونيكا، أنا لست العذراء مريم.

(*) انيمبوبقرات تتميز بقرونها الكبيرة وذيلها الطويل
(*) الملك في كينيا ورواند

"ـ لا، أنت لست العذراء مريم وهذه كذلك. وأريد، بالتأكيد أنت جديرة بذلك ،أن أكشف لك اسمها الحقيقي الذي هو اسمك.

" ـ اسمي الحقيقي، هو ذلك الاسم الذي منحني إياه أبي، إنه تومورينـد. أتعرف ما يعنيه:" احمها".

"ـ يمكنك الاعتماد علي، سأكمل ما أراد أبوك، أنت نفيسة للغاية بالنسبة لي. لكن هناك اسم آخر أعرفه، محفوظ لك، وينتظرك. إن أردتِ حقا العودة لترينـي، سأوضح لك كل ذلك.

" لا زلت لا أفهم شيئًا مما كان يقوله لي، لكني صرت أكثر شغفا بمعرفة ما كان يعنيه كل ذلك، ورددت عليه دون تفكير:

" ـ سأعود الأحد القادم، لكن مع صديقة، لا أود أن أعود وحدي.

"ـ لو كانت صديقتك تشبهك، تستطيعين أن تأتي معها، لكن فقط إن كانت تشبهك، يوجد لها مكان.

"ـ سأعود معها. لكن الوقت تأخر. لا بد أن أعود إلى الليسيه ودون أن يرانا أحد!

"ـ عربتي الچيب القديمة لا تحب المدقات.

" أودعني خلف جناح الضيوف الأرضي تمامًا قبل السادسة ورحل بسرعة فائقة.

ـ إنها قصة غريبة، قالت ڤيرچينيا، هذا الأبيض مجنون حقًا. من ستأخذينه معك؟

ـ أنت، بكل تأكيد، الأحد القادم، سوف تأتين معي إلى منزل الأبيض. سوف نمثل دور الإلهات! سوف ترين، إنه كما في السينما.

ـ لا تعتقدين أن هذا خطر. تعرفي ما يفعله البيض مع البنات اللاتي يستدرجونهن إلى منازلهم. البيض، يعتقدون أن هنا كل شيء متاح، وأنهم يستطيعون فعل كل ما هو ممنوع عندهم.

ـ لا، ليس هناك شيء تخافينه. "فونتوناي" شيخ مجنون. التزم بوعده، لم يقترب مني. قلت لك ذلك: اعتبرني كمعبودة. سيكون الأمر مشابه لك. تعرفي ما يحكيه البيض عن التوتسي. نظرت في الكتب في المكتبة. مصلاه، في الحديقة، لقد كان يذكرني بأمر ما. بحثت في كتب حول الآثار القديمة، مصلاه، ليس رومانيًا، وليس إغريقيًّا: إنه مصري، من عصر الفراعنة، من عصر موسى. الأعمدة، الرسومات، إنها تشبه ما رأيته في الكتاب: إنه مجنون، بنى في حديقته معبدًا مصريًّا. والمرأة المرسومة بقرون البقر على الرأس، رأيتها أيضًا في الكتاب، إنها معبودة: إنها إيزيس أو تقريبًا كليوباترا كما رأيت في أحد الأفلام.

ـ إذًا، هو وثني! أعتقد أنه لم يعد ذلك عند البيض. ماذا يريد أن يفعل بنا في معبده؟

ـ لا أعرف. ربما يريد أن يصنع بورتريها لنا أو يصورنا فوتوغرافيًا أو يصور فيلمًا. ربما يريد أن يعبدنا. إنه أمر مسل، ألا تجدين...

ـ أنت مجنونة مثله!

ـ في العطلة الكبيرة، عندما يكون لدي القليل من المال، سوف أرى بعض الأفلام في المركز الثقافي الفرنسي. لدي شوق دائم أن أكون في فيلم، أن أكون

ممثلة. إذًا سوف نمثل دور الإلهات في منزل الشيخ الأبيض. سيكون الأمر كما في السينما.

ـ سوف آتي معك لحمايتك، وسوف أجهز نفسي بتخبئة سكين صغير تحت تنورتي للدفاع عنا. لا نعرف أبدًا.

كانت الچيب تنتظر خلف صخرة الروتار الضخمة. السيد "فونتوناي"، بمجرد أن لمحهما حياهما بإشارة كبيرة، نازعًا قبعته الدغلية. لاحظت ڤيرونيكا أن جمجمته تلمع كالبقعة المتلألئة للبحيرة في سفح الجبال. لكن غمامة تغطي الشمس، تنطفئ البحيرة ويرتدي ثانية السيد "فونتوناي" قبعته من القماش الكاكي.

ـ كما قلت له، أتيت مع صديقة، قالت ڤيرونيكا، إنها ڤيرچينيا.

تأمل السيد "فونتوناي" ڤيرچينيا فترة طويلة.

ـ صباح الخير، ڤيرچينيا، في النهاية قال، أهلا بك، بالنسبة لي، ستكونين كانداس، الملكة كانداس.

تملكت ڤيرچينيا نفسها من الانفجار بالضحك.

ـ اسمي ڤيرچينيا، اسمي الحقيقي، إنه موتاموريزا. بالنسبة لك، إن أردت، سأكون كانداس، دائمًا يمنحنا البيض الأسماء التي يريدونها، على أي حال، ڤيرچينيا، لم يختره لي أبي أيضًا.

ـ سأشرح لك، كانداس، ليس اسمًا أبيض، إنه اسم ملكة، ملكة زنجية، ملكة النيل. أنتم التوتسي، أبناؤها وبناتها. هيا، اصعدا.

فزت الچيب كإعصار، رافعة غمر من الأعشاب والطين، صارت بشكل متعرج بين الصخور سالكة مدقًا لا مرئيًا. تشبث كل من ڤيرونيكا وڤيرچينا ببعضهما حتى لا تجدان نفسيهما مقذوفتين خارج المركبة. هذه التي مرقت سريعًا من تحت القنطرة المعدنية التي تميز مدخل البيت، سارت ببطء بين أشجار البن البرية، وصف من البيوت الصغيرة المتماثلة." إنها منازل عمالي، حدد السيد "فونتوناي"، سابقًا كنت أعتقد أنني سأكون ثروة من البن. كنت أحمق ومع ذلك صاحب عمل جيد. الآن أُسكِن فيها، رعاتي، محاربيني، حرسي الأنجابو. سوف تريان عما قريب." ستتوقف الچيب أمام عتبة الفيلا الكبيرة.

دخلوا في صالون الغنائم. قدم الخادم ذو الحلة البيضاء بالكتافيات المذهبة تحية عسكرية. رشح السيد "فونتوناي" للبنتين الكراسي المصنوعة من الأسل الهندي لتجلسا. وضع الخادم على مائدة منخفضة أكواب عصير البرتقال وصينية الحلويات. كان السيد "فونتوناي" قد جلس قبالة مدعوتيه على كنبة بحشيَّات من البامبو مغطاة بقطع من جلود الفهود. بقى لفترة طويلة صامت، مخبأ الوجه بين يديه. فيما باعدهما، ومضت عيناه ببريق بليغ للغاية حتى أن ڤيرچينيا أسرعت لتتحقق من وجود السكين الصغير تحت تنورتها بينما أشارت لها – ڤيرونيكا خلسة لتكون مستعدة للهرب. لكن السيد "فونتوناي" لم يقفز عليهن: شرع في التحدث.

تحدث طويلًا، في بعض الأحيان كان صوته يرتعش متأثرًا، وفي بعض الأحيان كان وقورًا، وفي أحيان أخرى لم يعد سوى همس بسيط ثم يصبح فجأة مدويًا. كان يكرر باستمرار بأنه سيكشف لهم عن سر عظيم، سر يعنيهم، سر التوتسي. في ترحالهم الطويل، يوضح، كيف كانوا قد فقدوا ذاكرتهم. لقد حافظوا على أبقارهم، وقارهم النبيل، جمال بناتهم، إلا أنهم كانوا قد فقدوا الذاكرة. ما عادوا يعرفون من أين أتوا، من يكونوا. هو "فونتوناي"، كانوا يعرفون من أين أتى التوتسي، من

يكونون. كيف اكتشف ذلك، إنها حكاية طويلة، حكاية حياته، قدره، لا يخاف من الإخبار بها.

في أوروبا، كان يود أن يصبح رسامًا، لكن لم يشتر أحد لوحاته، ومنذ وقت طويل عائلته النبيلة، كان يضحك هازئًا وهو ينطق بهذه الكلمة، كانت قد أفلست. كان قد رحل إلى أفريقيا بحثًا عن الثروة. ولقد حصل على أراضٍ هنا في الجبل، حيث لم يكن يود أحد الإقامة. مساحة واسعة لزراعة البن، للقهوة العربي. لقد أصبح مزارعًا، مستوطنًا. ولقد أُثري. كان يحب القيام برحلات سفاري في كينيا، في طانجانيقا. كان يقيم موائدة مفتوحة، وعلى الرغم من المدق السيئ، المدعوون الصاعدون من العاصمة لم يودوا تفويت موائده بأي ثمن. في الصالون الكبير، كنا نشرب كثيرًا،كنا نناقش كثيرًا: ثرثرات عن العاصمة، عن البهائم التي كانوا قد ذبحوها، عن أسعار البن، غباء الخدم الملغز، المواطنون الأصليون الذين لم ننته إلى تعليمهم، عن البنات الصاحبات للمدعويين أو عن أولئك اللاتي يتوفرن بسهولة لمضيفهم، أجمل بنات، التوتسي، السواد الأعظم من موديلاتي، حدد "فونتوناي"، لأنه يرسم، يهتم، بالرعاة المتكئين على عصيهم الطويلة، الأبقار ذات القرون على شكل قيثارة، الفتيات، المقاطف أو الأباريق المتزنة على الرأس بنات جميلات بتسريحة شعر عالية يدعمها إكليل من الخرز الزجاجي. يكدس بورتريهات أولئك اللاتي قبلن أن يأتين إلى الڤيلا. هذه الوجوه تفتنه.

كان مقتنعًا بما كان يُحكى عن التوتسي. ليسوا زنوجًا. ليس هناك سوى أن نرى أنفهم أو بشرتهم اللامعة ببريق محمر. لكن من أين أتو؟ السر الغامض للتوتسي يقلقه. كان قد ذهب ليستفسر من شيوخ الإرسالية الملتحين، لقد قرأ كل ما كان يمكن أن يقرأ عن هذا الموضوع. لم يوافقه أي شخص. كان التوتسي يأتون من إثيوبيا، كانوا أنواعًا من اليهود السود، أقباطًا مهاجرين من الإسكندرية، رومانًا

هائمين، أبناء عم من الفولاني أو من الماسأي، سومريون ناجون من بابليين، إنهم ينحدرون مباشرة من التبت، من الأريين الهنديين الأصليين. لقد أقسم "فونتوناي" على كشف الحقيقة.

كان الهوتو– بمساعدة البلجيكيين والتبشيريين– قد طردوا الموامي، وكانوا قد شرعوا في ذبح التوتسي، حينها أدرك أن هناك ما يستوجب السرعة لإتمام ما كان قد وعد بعمله. من اليوم، إنها رسالة حياته. التوتسي، كان متأكدا من ذلك، أنهم سيختفون. هنا، سينتهي بهم الأمر إلى الإبادة، أولئك الذين كان قد تم نفيهم سيتميعون من تهجين لتهجين. لن يبقوا إلا لإنقاذ الأسطورة. الأسطورة التي كانت الحقيقة. حينئذ، كان قد أهمل أصدقاءه، هجر المزرعة. لقد تعلم فك رموز اللغة الهيروغليفية. كان يود الاطلاع على أسرار اللغة القبطية، الجيز[*]. حاول التحدث باللغة الكينية الرواندية مع خادمه. لكنه قطعًا، ليس عالمًا، ليس عالمًا أنثروبولوچيًا، ليس عالمًا إثنولوچيًا. كل هذه الكتب، كل هذه الدراسات لم تؤد إلى شيء. فقد كان فنانًا، دليلاه الوحيدان، حدسه وإلهامه. لقد قاده ذلك بالفعل إلى مكان أبعد بكثير من كل هؤلاء العلماء والمتبحرين. حينئذ قرر الخروج إلى هناك، إلى السودان، إلى مصر. هناك رأى معبد المعبودة قبل أن يلتهم، رأى أهرامات الفراعنة السود، مسلات ملكات كانداس على شاطئ النيل. الدليل موجود هناك. الوجوه المحفورة على الحجر، هي بالفعل نفس الوجوه التي كان يرسمها. لم يعد يستطيع الشك في ذلك. لقد كان ذلك كإلهام. إمبراطورية الفراعنة السود، بالفعل من هناك كان قد أتى التوتسي. بعد أن طردوا من قبل المسيحية، الإسلام، برابرة الصحراء، أخذوا على أنفسهم القيام بالمسيرة الطويلة حتى منابع النيل، لأنهم كانوا يعتقدون أنها أرض

[*]الجيز أو الجعزية لغة يطلق عليها أحيانًا الأثيوبية القديمة أو الكلاسيكية، كما أنها حتى القرن الرابع عشر كانت اللغة المتحدثة في إثيوبيا وإرتريا.

الآلهة التي بفضل نهر النيل، وزعت الرخاء. لقد حافظوا على أبقارهم، وقارهم النبيل ولقد احتفظت بناتهم بجمالهن، إلا أنهم فقدوا الذاكرة.

الآن "فونتوناي" نفسه كان يكمل رسالته. لقد تخلى عن كل شيء من أجلها. لقد قام بإعادة بناء معبد المعبودة، هرام الفراعنة السود. رسم المعبودة والملكة كانداس. "وأنتما، قال، بفضلي، لإنكما جميلتان، لإنكما تشبهانهم، فسوف تستعيدان الذاكرة."

قادهما السيد "فونتوناي" إلى داخل الأتيليه. من الصعب جدًا شق طريق بين أكوام من لوحات الرسم. على المسند كان هناك رسم تخطيطي لبورتريه.

– لكنها أنت يا– ڤيرونيكا، قالت– ڤيرچينيا.

– نعم، قال السيد "فونتوناي"، إنها بالفعل معبودتنا لكن الأفضل أن تريها في معبدها.

كان معلقًا على الجدار نسخ وصور فوتوغرافية لـ لوحات فريسك، قطع نحتية، ومسلات، حيث يُرى فراعنة سود فوق عروشهم، إلهة برأس صقر، ابن آوى، تمساح، معبودات مغطى شعرها بقرص شمس وقرون بقرة. توقف السيد "فونتوناي" أمام خريطة كبيرة، كانت تمثل مجرى نهر النيل. لاحظت ڤيرونيكا أن أيا من هذه الأسماء التي كانت مكتوبة عليها لم يكن يتوافق مع الأسماء التي قرأتها في كتاب الجغرافيا.

– هنا، علق السيد "فونتوناي"، فيلة معبد المعبودة العظيمة، وهنا مرو، عاصمة إمبراطورية الكوش، فراعنة سود، كانداس، عاصمة الألف هرم. ذهبت إليها من أجلكم، أيها التوتسي، وعثرت عليكم هناك. هاك، سوف تريان.

أخرج ورقة من ورق الرسم المقوى ومدها لـ ڤيرونيكا.

– إنه بورتريهك. لقد رسمته طبقًا للرسومات التخطيطية التي رسمتها بالقلم الرصاص في الحج. والآن أضعه بجانب هذه الصورة التي التقطها في مرو. إنها إيزيس المعبودة العظيمة، تفرد جناحاها لتحمي المملكة. عارية النهدين. انظري جيدًا لوجهها، إنه وجهك، بالضبط وجهك، لقد صنع بورتريهك في مرو، منذ ثلاثة آلاف عام. لدي الدليل.

– لكني لم أكن أعيش منذ ثلاثة آلاف عام، ليس لدي أجنحة، لم يعد هناك مملكة.

– سترين، سترين، ستفهمين عما قريب. الآن لا بد من الذهاب إلى المعبد.

– ڤيرونيكا، قال السيد "فونتوناي"، عندما أتيتِ إلى المعبد للمرة الأولى، دون شك لم تلاحظي جيدًا لوحتي الفريسك.

أنظري جيدًا وجوه الفتيات اللاتي يحملن عطاياهن إلى المعبودة العظيمة، هل تعرفين بعضهن؟

- نعم، قالت ڤيرچينيا، الثالثة، هناك، إنها أنا! وتلك التي توجد في الأمام تمامًا، إنها إيمانويلا التي كانت منذ عامين في السنة الأخيرة. وتلك، إنها بيرچيت التي في السنة الثانية. يبدو أنه رسم كل التوتسيات في الليسيه.

ـ على أي حال، أنا لست هناك.

ـ أنت غير موجودة في الموكب؛ لأنك أنت كنت المختارة، استديري وسوف ترين، قال السيد "فونتوناي".

على الجدار من الداخل، بالفعل، كان وجه المعبودة العظيمة هو وجه ڤيرونيكا. ليس هناك سوى العيون التي كانت واسعة إلى حدٍّ بعيد.

ـ ترين أن– يقول السيد "فونتوناي"– يوم الأحد الماضي كان لدي الوقت الكامل لملاحظتك. لذا عدلت في وجه المعبودة حتى يشبه وجهك بالفعل. الآن لا يمكنك إنكار ذلك: أنت إيزيس.

ـ أنا لا شيء من كل هذا. لا أود أن تسخر مني. بل والأمر الأكثر خطورة هو تحدي أرواح الموتى. تستطيع الأبازيمو(*) الانتقام وفي الغالب يكون انتقامها وحشيًا.

ـ لا تنزعجي، عما قريب ستفهمين. اتبعاني، فلنكمل الزيارة.

يخرجون من المعبد ويتسلقون المنحدر حتى القمة. كانت بعض الأبقار طويلة القرون ترعى فوق المنحدر يحرسها رعاة شباب. ليس بعيدًا، على ربوة صغيرة، تنتصب حظيرة كان يعود إليها القطيع كل مساء. قبة الكوخ المركزي ذات الناصية المجدولة بشكل فني كانت تتجاوز أسيجة الشجيرات. انظرا، قال السيد "فونتوناي"، لو أن التوتسي سيختفون، على الأقل سأنقذ أبقارهم، النيامبو. ربما عجل كالذي هناك، عجل مقدس، قادهم حتى هنا. "في القمة، في قلب غابة كثيفة بالأشجار العتيقة، مثل مزقة من الغابة، ينتصب هرم، أعلى ومخروطي أكثر مما شيده البلجكيين عند المنبع لـ نوتردام النيل. هناك قمت ببعض التنقيبات، أوضح السيد "فونتوناي". يحكي الشيوخ أنه كان مقبرة لإحدى الملكات. الملكة نيّراماقوجو. قمت بالحفر. وجد هيكل عظمي، لألئ، فخاريات، وأساور نحاسية. أنا لست عالمًا أركيولوچيًا. لم أكن أود أن ينتهي الأمر بعظام الملكة في متحف، في صندوق زجاجي. لقد قمت بسد الحفرة ثانية وشيدت فوقها هرم. للملكة نيّراماقوجو مقبرة تليق بملكات كانداس. اقتربي، ڤيرچينيا، بما أنك الآن أنت أيضًا الملكة، ملكة كانداس. فلنستأنف

(*) أرواح الموتى

ثانية سلسلة الزمن. الآن كل شيء في مكانه. المعبد، الهرم، العجل المقدس. وأنا استعدت إيزيس وكانداس، جميلات كما اليوم الأول. ستكون النهاية كالبداية. إنه السر. عادت إيزيس إلى المنبع. لدي السر، السر، الس..."

كان يبدو أن السيد "فونتوناي" قد عانى كثيرًا ليكظم الحماسة التي اجتاحته، كانت ترتعش يداه وتحشرجت حنجرته. ليستعيد هدوءه، ذهب يجلس، بعيدًا إلى حدٍما، على إحدى الصخور وتأمل لفترة طويلة تموج الجبال حيث تظهر الغيوم ممتدة إلى ما لانهاية.

ـ أعتقد، قالت ڤيرونيكا، أنه لم ير نفس مشهدنا. ينبغي أن يضيف له معبودات، ملكات كانداس، فراعنة سود. إنه كفيلم في رأسه، لكنه يود الآن ممثلات من لحم وعظم وها نحن.

ـ لقد قام التوتسي بالتمثيل في أفلام البِيض السيئة- في جنونهم ينبغي أن تقولي- وهذا لسوء حظنا. لا أود لعب دور الملكات أيا كانوا. أريد أن أرجع إلى الليسيه، تعالي، لا بدَّ أن نخبره برغبتنا في العودة.

عندما اقتربت البنتان منه، بدا السيد "فونتوناي" يفيق من سبات عميق.

ـ يصل المطر، تقول ڤيرونيكا، الوقت متأخر، يجب أن يقودنا إلى المدق.

سأرجعكما. لا تخافا. لن يراكما أحد. لكن الأحد القادم، انتظركما، سيكون اليوم العظيم. أفضل بكثير من الحج لـ نوتردام النيل.

وجدت " إيماكوليه" ڤيرونيكا ممددة أسفل سلم المهجع.

ـ النجدة! النجدة! ڤيرونيكا ماتت، هنا، سقطت، لم تعد تتحرك.

طالبات الليسيه اللاتي جلسن للتو حول موائد غرفة الطعام هرعن نحو سلم المهجع. "ڤيرچينا"، أولاهم، مالت على ڤيرونيكا.

ـ لا، لم تمت، لم تمت، إنها مغشي عليها، وقعت على السلم، اصطدم رأسها بإحدى درجات السلم.

ـ بلا شك أفرطت في الشراب، قالت "جلوريوزا"، لا بد إنها ذهبت إلى كباريه ليونيداس، هذه البنت، لا تخشى شيئًا، لا تخجل من أي شيء، الأولاد يدفعون لها ثمن الشراب، وهي لا ترفض.

ـ ربما سمموها، قالت "إيماكوليه"، كثيرات تغرن منها هنا.

الأخت چيرترود والتي كانت تعمل أيضًا ممرضة شقت بصعوبة ممرًا بين الطالبات.

ـ ابتعدن، اسمحن لها بالتنفس، أولى بكن أن تساعدنني في نقلها للعيادة.

الأخت چيرترود أمسكت ڤيرونكا من كتفيها ورفعت ڤيرچينيا ساقيها، دافعة "جلوريوزا" التي كانت تتقدم: "أنت، خاصة، لا تلمسيها."

مددت ڤيرونيكا على سرير العيادة المعدني. كانت ڤيرچينيا تود أن تبقى لترعى صديقتها، لكن الأخت چيرترود طلبت منها أن تخرج وتغلق الباب. مجموعة صغيرة من الطالبات بقيت أمام العيادة في انتظار تشخيص الممرضة. تلك التي فتحت الباب أخيرًا وأعلنت:

ـ لا شيء، نوبة ملاريا، سوف أعالج هذا، لا يجب إزعاجها، لا فائدة من وجودكم هنا.

لم تستطع ڤيرچينيا العثور على النوم. ماذا حدث لـ ڤيرونيكا؟ ماذا فعل لها هذا المجنون "فونتوناي"؟ لم تجرؤ ڤيرچينيا حتى تخيل هذا الأمر. يعتقد البيض هنا أن كل شيء مباح: إنهم بيض. أنبت ڤيرچينيا نفسها؛ لأنها رفضت مصاحبة صديقتها. فهما الاثنتان، كانا سيدافعان عن نفسيهما، وكان لديها سكينها الصغير، كانت ستقنع

فيرونكا بأن تهرب قبل أن يصبح الوقت متأخرًا. مجرد أن دق جرس المنبه، بينما الأخريات يقمن بقضاء حاجاتهن والأخوات يقمن القداس الصباحي، انسلت ڤيرجينيا إلى العيادة. كانت ڤيرونيكا تجلس على السرير، تواري رأسها في وعاء كبير. ما إن رأت صديقتها، وضعت الوعاء على طاولة بجوار السرير:

ـ انظري، قالت، لقد اعتنت بي الأخت چيرترود جيدًا، أعطتني لبنًا.

ـ ماذا حدث لك؟ احك لي قبل أن تعود الأخت.

ـ الأمر صعب، إنه كما لو كنت حلمت بحلم سيئ، كابوس. لا أعرف إذا ما كان ما سأحكيه لك قد حدث بالفعل. البيض أسوأ من مسممينا. عندما ذهبت إلى صخرة الميعاد. كانت الچيب بانتظاري لكن لم يكن السيد "فونتوناي" خلف عجلة القيادة. كان شابًا، توتسي بشكل واضح، بلا شك أحد هؤلاء الذين يدعوهم الإنجابو. في الصالون كان هناك الخادم ذو الضفائر مع صينية عصير البرتقال. أخبرني أن أشرب. كان العصير غريب الطعم. وصل "فونتوناي". كان يتدثر في مئزر كله أبيض يظهر منه الكتفين عاريين.

"ـ صديقتك لم تأت؟

"ـ لا، إنها مريضة.

"ـ ذلك سيئ للغاية بالنسبة لها، لن تعرف حقيقتها.

" بعد ذلك، لم أعرف ما حدث لي. كنت وكأني نُزعت الإرادة. لم أعد أنتمي لي. كان هناك شيء ما بداخلي، شخص ما داخلي، أقوى مني بكثير. رأيت نفسي في المعبد، كنت كالنساء المرسومات على الجدران. لم أعرف من جردني من ملابسي. كنت عارية الصدر، والقماش المذهب الذي يغطيني شفاف. إلا أني لم أكن خجلة.

كأنه كان حلمًا لا نستطيع مقاطعته، ووجدتني في هذا الحلم. من حولي محاربي اللوحة الفريسك، وقد انفصلوا عن الجدار. لا يشبهون فعلًا راقصي الإنتور. كانوا يرتدون فقط سروالًا قصيرًا، يشبه الشورت، وحرابًا ودروعًا واقية كبيرة من جلود البقر. لم أكن أعرف إذا ما كانت خصل شعرهم ملساء، أم كانوا يرتدون شعرًا مستعارًا. الآن، أعتقد أنهم المحاربون الذين كان يتحدث عنهم "فونتوناي". كنت أشعر أنني في فيلم. أجلسني "فونتوناي" على العرش، ووضع على رأسي القبعة ذات القرون الكبيرة. رأيته كأنه عبر سحابة شفيفة يقوم بحركات عظيمة وهو يقول كلامًا غير مفهوم مثل كاهن القداس. بعد ذلك لم أعد أعرف ما قد حدث. لقد فقدت الوعي. ربما وقعت من على العرش. لا أتذكر أي شيء. عندما استعدت نفسي، كنت في السيارة الچيب. كان الخادم الشاب هو الذي يقود. لقد ألبسوني الزي الموحد. أودعني في مكان أقرب ما يكون من الليسه، وهو يقول لي:" المهمة أن تعودي دون أن تُلحظي، انتبهي بشكل خاص لنفسك، ولا تقولي شيئًا لأحد. لكن انظري جيدًا في حمالة صدرك، بالتأكيد يوجد شيء ما لك." نجحت في الصعود إلى المهجع. في حمالة صدري، وجدت عشر ورقات نقدية بألف فرنك. أخفيتها في حقيبتي. لكن عند معاودتي النزول، كل الصور أخذت تدور، سقطت.

ـ لم يفعل بك شيئًا؟

ـ لا، لا، لم يلمسني. ليس كالبيض الآخرين الذين لا يفكرون إلا في إلقائك على الفور في سريرهم. هو، ما يريده، أن يقوم بالإخراج التمثيلي لجنونه. أنا إيزيسه.

ـ ولماذا أعطاك المخدر إذًا؟

ـ لا أعرف. كان خائفًا أن أرفض ما كان يريد القيام به، أن أسخر منه. كان يريد أن يحدث كل شيء تمامًا كما كان قد حلم؛ لذا أسقاني المخدر، لكنه أفرط في الجرعة.

إنه مسمم سيئ. مع ذلك فضولي له حدود: بدون سمه، أتعتقدين أنني كنت سأقبل أن أمنح نفسي لهذه اللعبة المثيرة للسخرية؟ مع الأوراق النقدية، كانت توجد رسالة، كتب أنه يعتذر عن قيامه بإسقائي المخدر، وفي أنه لم يكن يثق في، لكنه لم يكن يملك الخيار: لم يكن لديه الحق في الفشل. يأمل أني أفهم، وأن أعود مرة أخرى لرؤيته رغم ذلك. لم يكن هناك غيري للقيام بدور المعبودة. دعاني للإقامة عنده أثناء العطلة الكبيرة، سينفق على دراستي، حتى في أوروبا، هو مستعد لمنحي الكثير من المال...

ـ وهل تصدقين وعوده؟

ـ إنه لحلم.

ـ أنت مجنونة مثله، سينتهي بك الأمر باعتبارك معبودة. تعرفين ما حدث لنا نحن التوتسي عندما قبل البعض أداء الدور الذي كان قد خصصه لنا البيض. إنها جدتي التي حكت لي هذا: عندما وصل البيض، كانوا قد وجدونا نرتدي كالهمج. باعوا للنساء- زوجات الزعماء- خرزًا زجاجيًّا، الكثير من اللؤلؤ والكثير من القماش الأبيض. أوضحوا كيف نرتديه وكيف نصفف الشعر. وصنعوا ذلك في الإثيوبيين والمصريين الذين قد أتوا ليبحثوا عن وطن عندنا. كانت لديهم أدلتهم. ألبسوهم على صورة هذيانهم.

٦ – دم العار

كانت قد حلمت مرة أخرى بهذا الحلم المزعج الذي كان قد أيقظها. كانت زميلاتها إما غاضبات أو ساخرات منها: لقد أطلقت صرخة أيقظتهم هم أيضًا، ذلك قد حدث لها مرات عديدة، ذهبن يشكون للمشرفة.

لم تعد تعرف موديستا إذا ما كان ذلك بالفعل كابوسًا. تفحصت الملاءات؛ تحت الملاءة، رفعت قميص نومها، مررت يدها بين فخذيها. لا، لا يوجد شيئ. لم يكن سوى حلم مزعج يلاحقها منذ أن صارت امرأة. ربما سحر شرير، تعويذة شريرة صنعها لها، شخص ما لا تعرفه، إنه عدوها المتخفي، والذي قد يكون قريبًا جدًا منها، إحدى صديقاتها، أو ذلك أتى من بعيد جدًا، من بلدتها، جيرانها الغيورين، لا تعلم ذلك، وربما لن تعلم ذلك أبدًا.

يستطيع الحلم أن يحدث في سريرها، الأغلب في الفصل. بدأت في النزيف، بقعة حمراء ضخمة خضبت ثوبها الأزرق، يلصق الدم فخذيها، ساقيها، جرى في جدول طويل تحت المقعد، تحت الدكك الأخرى. بدأت التلميذات في الصراخ:" إنها لاتزال هي، تنزف، تنزف...هذا لن ينتهي"، وصرخت المدرسة:" لا بد من الذهاب بها إلى الأخت جيردا، فهي، تعرف ما ينبغي القيام به مع البنات التي تنزف أيا كان

المكان أو الوقت." وفجأة وجدت نفسها في مكتب الأخت جيردا، وكانت الأخت جيردا غاضبة منها، كانت تتحدث بحدة:" ها هو ما قلته بالفعل، ها هو نتيجة أن تصبح امرأة، جميعكن تردن أن تكن نساء، إنه خطؤكم، والآن كل هذا الدم، ذلك لن ينتهي أبدًا، أبدًا..."

لم تكن تحب موديستا أن تتذكر. لكن لا تزال نفس الذكرى تفرض نفسها. لم يكن حلمًا، إنها ذكري ولا بد أن تتجدد بلا نهاية، كإثم لن تستطيع أن تكفر عنه أبدًا. كان قد بدأ ذلك في السنة التي كانت قد التحقت فيها بالمدرسة الثانوية. كانت قد قُبلت في الامتحان القومي. كانت قد استوعبت مناهج التعليم الأساسية. كانت فخورة. كان والداها فخورين. وكان الجيران فخورين وغيورين. كانت فخورة بأن الجيران غيورين بسببها. لقد تم تجهيز زيها عند الترزي، كما تم شراء الكراسات والأقلام من مخزن توريدات سان ميشيل، في حي موهيما، عند الباكستاني، وكان قد تم شراء قماش لملأتين. في القائمة، كان يوجد أيضًا مترين من النسيج الأبيض، من النوع الذي يسمى أمريكاني. لم تكن تعلم فيما يمكن استخدام هذا. كذلك أبوها. لم تكن قد سألت أمها التي لم تكن تعرف شيئًا عن أمور المدرسة. لم تجرؤ أيضًا على طرح السؤال على أب الإبراشية.وضع كل ذلك في حقيبة كان قد تم شراؤها خصيصًا لها، فحقيبة أختها الكبرى كانت قد استهلكت تمامًا، كان لا بد من حقيبة جديدة من أجل الظهور بصورة جيدة، ولفخر العائلة. عند وصولها إلى المدرسة الثانوية، راجعت الأخت المشرفة محتواها. ليس هناك شيئ ناقص. كان يوجد بالفعل القماش الأمريكاني. كانت تبدو المشرفة شديدة الاهتمام به: "سوف تحضرينه منذ الحصة الأولى للخياطة"، قالت.

سريعًا كان قد انقسم الصف السادس إلى عشيرتين: كان هناك أولئك اللاتي لديهن نهود وأولئك اللاتي ليس لديهن. أخذ أولئك اللاتي لديهن نهود في احتقار

أولئك اللاتي ليس لديهن. تناقشن كثيرًا مع الكبيرات اللاتي كان لديهن جميعا نهود. يبدو أنه كان لديهن أسرار يتشاركن فيها. كانت موديستا جزءًا من أولئك اللاتي ليس لديهن نهود. مع ذلك كان هناك حلمتان صغيرتان تنفخان صدرها، براعم نهود. لكن الكبيرات، تساءلت موديستا لماذا، لم يردن الترحيب بها في معسكرهن.

في حصة الخياطة، بعد يومين من العودة، تحققت من أن جميعهن ليديهن بالفعل الأمريكاني. عرضت موديستا كالأخريات قطعة نسيجها." سوف نقوم بعمل شرائط، قالت المعلمة، وهذا يجب عمله أولًا. الكل ينبغي أن ينتهى من ذلك في نهاية الحصة. "وزعت المدرسة عدة مقصات والباترون: قامت التلميذات بقص النسيج إلى شرائط طويلة. وبعد ذلك قصقصن الشرائط إلى عشرين جزءًا." الآن، يقمن بطي العشرين قطعة أربع طيات وبعد ذلك يقمن بخياطتها من الحواف. يجب أن يصنع ذلك كحشية صغيرة."ثم صنعت منها كيس يغلق بحبل ووضع فيه العشرين قطعة "بالنسبة لأولئك اللاتي لسن بحاجة لها بعد، تقول المدرسة، فلتقمن بهندمتها في حقيبتكم، ريثما تحتجنها."

لكن الفعل كان هناك أسرار أخرى. في الحديقة، وخلف بستان من البامبو، كان يوجد منزل صغير من الطوب الأحمر محاط بجدار صغير. "إنه المنزل المغلق، كانت تقول الكبيرات وهن يضحكن، أنتن الفتيات الصغيرات اللاتي ليس لديهن نهود، ليس لديكن أي شيء تفعلنه فيه، وبشكل خاص لا تقتربن منه." لم تكن تضحك الأخوات. دائمًا كان من بينهن واحدة لمراقبة المنزل الصغير المحظور. كانت تطرد الخدم أو عمال الحديقة الذين يقتربون منه عن كثب وتعاقب بشدة الصغيرات، اللاتي نتيجة الفضول، يتسكعن حوله. على وجه الخصوص كانت الأخت جيردا تقوم بالحراسة، حارسة السر. إنها تصبح شرسة إذا ما فاجأها، شخص ما، إحدى الصغيرات، تحاول تتبع الواقفات على الأسرار اللاتي يتوجهن نحو المنزل

الممنوع بدلو صغير في اليد. لكن في الحقيقة، كن يعرفن جيدًا، الصغيرات اللاتي ليس لديهن نهود، أن كل هذه الأسرار عما قريب، سر شرائط النسيج الأمريكاني، سر المنزل المغلق، سر الدلو الصغير، ستكشف لهن قريبًا. كن يعرفن جيدًا أن دورهن سيأتي.

الاستهلال. الخوف. الخجل. بالنسبة لـ موديستا كل ذلك كان قد حدث في الفصل. أثناء حصة الإنجليزي. كانت قد شعرت بسائل دافئ يسيل على ساقيها، وعندما كانت قد نهضت زميلات الصف الخلفي كن قد رأين بقعة محمرة كبيرة افترشت ثوبها، شبكة من الدم تنقط على ساقيها، تنقط على الملاط ." مدام! صرخت جارتها، وهي تشير إلى موديستا. رأت المدرسة الدم متناثرًا." بسرعة، كانت قد قالت، إيماكولاتا، اصطحبيها إلى الأخت جيردا." سارت موديستا وراء إيماكولاتا، كانت تبكي كل دموع جسدها. "لا تبكي، قالت إيماكولاتا، هذا الأمر يحدث لكل البنات. لا تفكرين في أي محاولة للهرب. الآن أنت بالفعل امرأة. سوف تنجبين أطفالًا. "طرقت إيماكولاتا على باب مكتب الأخت جيردا. "أتفضل، قالت الأخت "جيردا"، إنها "موديستا"، لم أكن أنتظرها في هذا الوقت المبكر جدًا .ومن ثم تصبحين امرأة صغيرة. سوف ترين كم ينبغي من معاناة من أجل ذلك: إنه الله الذي أراد هذا هكذا بسبب خطيئة حواء، باب الشيطان، أمنا جميعًا. الأمهات خلقن للمعاناة."موديستا" ، اسم جميل لامرأة، لمسيحية، وفي كل شهر، من الآن فصاعدًا، هذا الدم سوف يذكرك أنك لست سوى امرأة، وإذا كنت تعتقدين أنك بارعة الجمال، فسيكون ذلك لتذكيرك بما تكونين: امرأة فحسب."

بعد أن اغتسلت، أطلعت الأخت جيردا موديستا على أسرار دورات النساء. شرحت لها استخدام الشرائط التي ستدعوها من الآن "الصحية". أخبرتها بأن تتحصل من مخزن التوريدات على دلو صغير بغطاء لتضع الضمادات المستعملة وقطعة

صابون مرسيليا. لن تكلف نفسها عناء الشرح للأخت بيرناديت التي كانت خلف المنضدة.

طلبت الأخت جيردا مفتاح المهجع الذي كان مغلقًا طوال النهار، فتحت الأبواب على اتساعها حتى تذهب موديستا لتأخذ ضمادة من الحقيبة ثم تصطحبها حتى المنزل الصغير المشيد من الطوب الأحمر. ما إن فتحت الباب، رائحة نفاذة ومقرفة أرجعت موديستا:" ادخلي، قالت الأخت جيردا، لم يعد بإمكانك التراجع، لقد فات آوان لعب دور الفتاة الصغيرة." عبر ظلام القاعة الدامس الذي لم يكن يضيؤه سوى نافذة ضيقة بسلك شبك، لمحت موديستا حبل غسيل ممدود من جدار لأخر وعلى هذه الأحبال الصغيرة، كانت معلقة، ورديات اللون، رمادية، بنفسجيات، وبيضاء كالحة، الضمادات الصحية التي كانت قد نشرتها المقيمات لتجفيفها. "في الداخل، قالت الأخت جيردا، يوجد وعاء لغسل ضماداتك المتسخة، تدعكي، تدعكي، لكنك لن تدعكي أبدًا بما يكفي لمحو نقيصة كونك امرأة. وأستطيع أن أخبرك، من هذه الضمادات، من أصحابها، أولئك اللاتي تدعكن وأولئك اللاتي لا تدعكن، يلاحظ على الفور الخاملات، تظل ضمادتهن مخضبة بدماء حيضهن، إنه لعار! إذا، أنت، موديستا، فلتدعكي حتى لا تضيفي عارًا على عارك."

كانت موديستا تحب البوح بأسرارها لفيرجينيا. تبوح بأسرارها في المخبأ، بعيدًا عن الأنظار، خاصة أنظار "جلوريوزا ".بكل تأكيد، من الممكن أن تكون بنت من الهوتو صديقة لبنت من التوتسي. ذلك غير ملزم بأي شيء مستقبلًا. عندما يتبين ضرورة أن أغلبية الشعب تصبح أغلبية مطلقة، ستعرف بنات الهوتو من أي عرق كن. بما أن هناك عرقين في رواندا. أو ثلاثة. كان قد قال البيض ذلك، إنهم من اكتشفوا ذلك. لقد كتبوا ذلك في كتبهم. العلماء الذين كانوا قد أتوا عمدًا من أجل ذلك، الذين قاسوا كل الجماجم. كانت نتائجهم مسلمًا بها. عرقان: الهوتو/ التوتسي.

البانتو/ الحاميدي. الثالث، ليس من الصعب أيضًا الحديث عنه. لكن موديستا ليست هوتو تمامًا. بكل تأكيد، كانت هوتو بما أن أباها كان كذلك، الأب، هو ما يعتمد عليه. لكن بسبب أمها، يمكننا أن نقول، ولم يفت بعضهن قول ذلك، أنها ليست سوى مناصفة. كان من الخطر بالنسبة لها الظهور مع واحدة من التوتسي.سنقول لها على الفور:" إذا من أي جانب أنت؟ أتعرفين حقًّا من تكونين؟ أو تقريبًا أنت خائنة، جاسوسة الصراصير، الإنينزي. تودين أن تجعلي نفسك من الهوتو، إلا أنك في الحقيقة، مجرد أن تستطيعي، ستتجهين نحو التوتسي؛ لأنك تعتبرينهم كعائلتك الحقيقية.

لكن هناكما هو أسوأ. إنها الشكوك التي تلقي بثقلها على موديستا ليست من أمها فحسب. بعد كل شيء، الكثير من زعماء الهوتو كانوا قد اتخذوا زوجات من التوتسي. كن أسلاب انتصارتهم. أليست زوجة الرئيس نفسها من التوتسي؟ لا، ما زاد من خطورة حالة موديستا، كان أباها، روتيتيريزا، الهوتو الذي كان يريد أن يجعل من نفسه توتسيًا، كويهوتورا، كما كان يقال، "أن يخلع عنه هوتويته" بالتأكيد كان لديه بعض الخصائص الجسمانية التي تعزوه لـ التوتسي: طويل جدًا، قصير الأنف، مرتفع الجبهة، لكنه كان إلى حدٍ بعيد يشكل جزءًا من هؤلاء، كثيري العدد تمامًا، الذين ندعوهم، إكيچاكازي، ألـ" لا هذا ولا ذاك". كان سليل عائلة هوتوية كريمة. قضى بضع سنوات من الدراسة في المعهد الإكليريكي الصغير. ولقد أصبح السكرتير، المحاسب، الوكيل لأحد زعماء التوتسي. كان ملتصقًا به. أخذ منه بعض الخصال.. ولقد أُثري من الاختلاس سرًا، لكن بشكل منتظم إلى حدٍّ ما من ضريبة الأفراد التي جباها باسم رئيسه. كان قد اشترى عدة بقرات. حتى يظهر فخامته الجديدة، قدم إحداها لأحد جيرانه التوتسي الذي كان قد فقد أبقاره. كان يريد أن يسمعه يهتف بكل شيء كالعادة: "روتيتيريزا، أنت من منحني بقرة، يامبيي

إنكاروتيتيريزا! "حتى يتوج مسخه، قرر أن يتزوج من امرأة توتسية. عائلة من صغار التوتسي كانت قد تنازلت له عن إحدى بناتها. فتاة جميلة مقابل بقرات. كان قد أصبح رئيسه أحد قيادات الحزب التوتسي الأكثر محافظة، كان يريد اقتفاء أثر رئيسه." روتيتيريزا، كان قد قال له هذا، لقد فعلت ما استطعت، لكن لن تكون توتسيًا أبدًا. فلتبق مع أهلك." لقد ناضل من خلال أحد أحزاب الهوتو الذي كان يريد الإبقاء على الملك. لكن حزب البارمهوتو(*) كان قد خلعه والجمهورية كانت قد أعلنت. بما أنه كان من إحدى عائلات الهوتو الكريمة، وحيث كان يحميه بعض إخوته المنخرطين في الحزب الفائز؛ لذا لم يكن يعتريه القلق. لم يستطع الوصول إلى وظائف مهمة، بقي دائمًا موظفًا صغيرًا، سيكون هناك دائمًا من يذكره بأنه كان قد أراد أن يجعل من نفسه توتسيًا، كويهوتورا. لن ينتهي الأمر أبدًا مع أولئك الذين، مازحين أو مهددين، على حدٍ سواء، يذكرونه بخيانته. يلقمهم بكباب الماعز وكمية كبيرة من الفاصوليا، يغمرهم بجعة الموز والبريموس(*)، إنه الثمن المدفوع لتصبح من الهوتو، كويتوتسورا، "أن يجرد نفسه من توتسيته"، نفس الشك الذي يثقل كاهل موديستا. كان ينبغي عليها دون توقف أن تذكر الآخرين إنها كانت هوتو أصلية، خاصة لـ "جلوريوزا" التي يرن اسمها كشعار: نيّرامازوكا، تلك الفأس. ينبغي أن تكون موديستا الصديقة الأفضل لـ "جلوريوزا".

رغم كل شيء، شيئًا ما، لم تكن تعرف ما هو، كان يدفعها قهرًا لإطلاق سراح أسرارها إلى فيرجينيا، أسرارها الحقيقية، تلك التي لا تستطيع أن تسلمها للأخرين. لقد انتهى بها الأمر لتحدثها عن كوابيسها، عن دم حيضها الذي يتسلط على أحلامها. لم تقل فيرجينيا في البداية أي شيء. فقط استطاعت أن تقول لها. هذه أمور لا يمكن أن نتحدث بها أبدًا في رواندا. في رواندا، هناك الكثير من الأمور

(*) حزب حركة تحرير الهوتو
(*) نوع من الجعة البلجيكية

التي لا يجب أن نتحدث عنها أبدًا. لكن بوح موديستا كان قد لمسها. أتستطيع أن تكون حقًّا صديقتها. اليوم كانت كذلك. لكن غدًا؟ هي أيضًا كانت قد شرعت في الحديث لها عن حيضها. ذلك يشكل بعض الخوف من التحدث بما ينبغي أن نصمت عنه بشكل مطلق لكن هذا التدفق في الأحاديث الممنوعة كان بالنسبة لها كالخلاص. نعم، في هذه اللحظة، كانت بالفعل صديقتها.

ـ تعرفين جيدًا أنه لا يجب التحدث في هذا. الفتاة الصغيرة لا تفهم شيئًا مما يحدث لها. تعتقد أنها ملعونة. لا أعرف إذا ما كان الأمر هكذا من قبل الأوروبيين، لكن الأوروبيين لم يصلحوا أي شيء. أمهاتنا لا يقلن أي شيء، إنه "تابو" كما سيقول المعلمون. لا بد دائمًا أن تكون أختك الكبيرة أو صديقتك التي توضح لك، التي تهدئ روعك قدر استطاعتها. فوق تلنا، الأمر هكذا، ربما في المدينة يختلف الأمر. أعز صديقاتي، كانت سبيسيوزا. لم تكن قد نجحت في الامتحان القومي. بقيت في القرية. في المدرسة الابتدائية، كنا دائمًا معًا. كنا نلهو كالمعتوهات، كالأولاد. بكل تأكيد، كنا نساعد أمهاتنا في الحقول، وكنا نحمل الأخ الصغير على الظهر، كنا بالفعل أمهات صغيرات. لكن ما كنا نحبه كثيرًا هو الذهاب للغسيل في البحيرة. ليست كالبحيرة الكبيرة التي ننظر لها من هنا من حين لآخر. لا، بحيرة صغيرة في سفح تلنا.

"أثناء الإجازة الكبيرة، أثناء موسم الجفاف، نرحل، كل بنات التل، الفتايات في ناحية والصغيرات في ناحية أخرى. لا يوجد سوى اثنتين أو ثلاثة من المتعلمات اللاتي لا يردن المجيء، يقلن إن لديهن اجتماعًا مع الطلاب، وإنه ينبغي عليهن الذهاب إلى جماعة المرتلين في الإرسالية. لا ننشغل بهن، نسخر منهن. كانت ضفاف البحيرة مكتظة بالبوص ونباتات البردي، عدا هناك، حيث نبحث عن الماء، وحيث نقوم بالغسيل. على الرغم من ذلك كان لا بد أن ننتبه: لو أن جذع شجرة عتيق سقط

على الرمل وبدأ يتحرك، إنه تمساح. كنا نمضي كل فترة ما بعد الظهيرة في الغسيل، وفي ضرب الملابس على الصخور، ثم نتمدد على العشب دائم الخضرة، حتى في موسم الجفاف. حيئذ نخلع ملابسنا ونقفز في الماء، نتراش بالماء، يدعك بعضنا ظهور بعض، إنه بالفعل شيئًا آخر غير حمامات الليسيه؛ إنها بائسة حمامات الليسيه. وبعد ذلك نذهب لنتجفف داخل نباتات البردي. نبقى عاريات تمامًا، مختبئات داخل نباتات البردي لمراقبة المارة. نسخر منهم...

" لكن ذات يوم – كان أثناء العطلة الكبيرة، حيث كنت في التعليم الأساسي، في الصف السادس – ذهبت مثل كل صباح للبحث عن سبيسيوزا. لم تكن تنتظرني عند مدخل البيت. رأيت أمها تجري نحوي وهي ترفع ذراعيها نحو السماء. قالت لي:" لا تدخلي. لن تستطيعي رؤية سبيسيوزا، في هذا الوقت لن يستطيع أحد رؤية سبيسيوزا. " لم أكن أفهم. أي مرض معد استطاع إصابة سبيسيوزا حقًا؟ ألححت. كررت عليها: "سبيسيوزا صديقتي. لماذا لا أستطيع رؤيتها؟ "أخيرًا تنازلت وهي تقول إنه ، على أى حال، عما قريب، سيحدث لي ما حدث لـ سبيسيوزا. دخلت إلى المنزل. كانت سبيسيوزا في سريرها. أضيفت طبقة من القش الطازج. عندما رأتني سبيسيوزا، شرعت في البكاء. وقفت. رأيت الأعشاب مشبعة بالدم." انظري، قالت، إنه دمي. هكذا تصبح البنت امرأة. كل شهر، سوف أكون محبوسة. ماما قالت لي إن كل النساء هكذا. تأخذ القش الذي دنسته. تحرقه، سرًا، ليلًا. تدفن الرماد على عمق كبير. كانت تخشي أن يأتى أحد السحرة ليسرقها من أجل تعويذاته الشريرة؛ ولذا تجف حقولنا ونكون أنا وأخواتي عقيمات بسبب هذا الدم الأول الذي قد يضع العائلة كلها في خطر. لم أعد أستطيع اللهو كما كان من قبل. الآن، صرت امرأة، بمئزر امرأة، أشعر بالفعل أني تعسة." ما عدنا نلعب أبدًا سويًا.

" أنا أيضًا، مثلك، أتاني حيضي الأول في المدرسة. لكن، من قبل، في المنزل، لم أكن أفهم لماذا تراقب أمي صدري. تعرفين، في الريف، ليس لدينا سوى قطعة قماش كتنورة. إنها قطعة الملابس الوحيدة للفتيات الصغيرات. نكون كالصبيان. كلنا نلعب معًا. عندما بلغت العاشرة، بدأت أمي والجيران في مراقبتي. كانت نظرتهم تتفحص صدري، عندما كنت أرقص كان هو ما ينظرون إليه. ومجرد أن لمحت أمي أنه نما فيه ما يشبه البراعم الصغيرة، قالت لي أن أواري هذا. قالت لي ألا أظهر هذا للرجال. حتى لأبي. أعطتني قميص قديم لأحد إخوتي. بينت لي كيف ينبغي أن أجلس. وبشكل خاصة علي أن أخفض عيناي عندما يوجه لي الكلام. "فقط البنات المتبجحات ومتطوري كيجالي اللاتي ينظرن للرجال مباشرة"، كررت علي. والشيء نفسه يجب أن يكون بالنسبة لك. لكن حاليًا ينبغي علينا أن نفرح برؤية دمنا كل شهر. هذا يعني أيضًا أننا صرنا نساء، نساء حقيقيات سينجبن أطفالًا. تعرفين جيدًا أنه، حتى نصبح نساء بالفعل، لا بد أن ننجب أطفال. عندما تتزوجين، هذا ما ينتظر منك. لن تمثلي شيئًا في عائلتك الجديدة وبالنسبة لزوجك، إذا لم تنجبي أطفالًا، صبيانًا، ولا سيما الصبيان. عندما يكون لديك ابن، تكونين امرأة بالفعل، أم، الأم التي تحترم.

– بوضوح، أود أن يكون لدي أطفال كالأخريات. لكني أود أطفالا لا يكونون هوتو أو توتسي، ولا نصف هوتو ونصف توتسي. أود أن يكونوا أطفالي، هذا كل شيء. في بعض الأحيان أقول لنفسي إنه من الأفضل ألا يكون لدي أطفال. أفكر في أن أصبح راهبة كالأخت "ليدوين". بحجابها وبثوبها الطويل، ينتابني شعور أن الأخوات لم يعدن نساء مثلنا. ألاحظتِ أن ليس لديهن أثداء؟ أتخيل أنه، حينما نصبح راهبات، لا يأتينا الحيض أيضًا، من أجل ماذا؟

ـ أنا، متأكدة أن الأخوات يأتيهن الحيض مثل كل النساء. ابنة عمي في معاهد بينيبيكيرا مريم: قالت لي إنهم يوزعون عليهن أيضًا فوط حماية صحية، كما بالنسبة لنا.

ـ على أية حال، لا أود أن أصبح مثل أمي، ولا أن أعامل كما تعامل. أبي، منذ أن أصبح هوتو، يشعر بالخجل منها. يخفيها. لم تعدتستطيع الخروج من المنزل. لم تعد هي أيضًا من يقدم الجعة إلى الأصدقاء الذي يستقبلهم أبي أيضًا. يصيح على إخواتي الصغيرات. لها الحق فقط إن سمح لها بالذهاب إلى قداس الأحد، أن تذهب إلى القداس الأول، وليس إلى القداس الكبير. حاول أيضًا أن يجد لها جد جد جد جدها من الهوتو، زعيم من الهوتو، أوموهينزا. كان كل الناس يضحكون بشدة عندما كان يحكي ذلك.. كان إخوتي الكبار يبغضون أمهم، لأنه بسببها ليسوا كالآخرين، حيث يطلقون عليهم المولدين، الهوتسي. فـ جان داماسين، الذي كان عسكريًّا، يقول إنه بسببها سوف يظل للأبد (ملازم أول)، وإنهم لن يثقوا فيه مطلقًا. أنا فقط التي لا زلت أحدثها، قليلًا في الخفاء، كما أفعل معك. بالنسبة لي، هي ليست هوتو أو توتسي، إنها أمي.

ـ ربما ذات يوم، سيكون هناك رواند بلا هوتو أو توتسي.

ـ ربما. لكن انتبهي، ها هي "جلوريوزا "، آمل ألا ترانا سويًا.

ـ فلتسرعي لتلحقي بصديقتك العزيزة، يا "موديستا"، فلتذهبي إذًا...

٧- الغوريلات

من بين كل المدرسين، كان لدي السيد دو ديكر ميزتان رائعتان. الأولى أنه كان الوحيد المتزوج. الآخرون، كانوا عزابًا – قد تكون هذه حالة الشباب الفرنسيين– أو كانوا قد تركوا زوجاتهم في أوروبا، أولئك اللاتي ربما رفضن أن يتبعوهم في جبال معزولة تمامًا. بطريقة ما، مدام دو ديكر كانت المرأة الوحيدة البيضاء بالفعل في ليسيه نوتردام النيل؛ لأن الأم الرئيسة والأخت المديرة لم تكونا تمامًا نساء ولم تكونا بيضاوين تمامًا: كن أخوات. ما كانا يستطيعان الزواج، لن يكون عندهن أطفال، لقد فقدن نهودهن. إنهن في رواندا منذ زمن طويل جدًا لدرجة أنهن كنا قد نسين لونهن. لسن رجالًا ولسن سيدات، لسن بيض ولسن سود، كن كائنات هجينة اللاتي كنا قد تعودنا عليهن أخيرًا كماهو الحال، في أراضي رواندا الطبيعية، ساحات البن أو حقول نبات المنيهوت التي كنا قد أجبرنا على زراعتها في فترة البلجيك. بخصوص

الأنسة سوث، لا بد أنها كانت امرأة، لكنها لم تكن بيضاء، كانت حمراء، إنها إنجليزية.

زوجة السيد دو ديكر لم تكن تقيم بشكل دائم في الجناح الأرضي مع زوجها. كانت تقيم فترات طويلة في كيجالي، لكن كنا نعرف جيدًا متى تكون هناك. كان صبي الغسال ينشر حينئذ تحت الإفريز، خلف الفيلا، ملابس السيدة. كانت طالبات الليسيه تطفن خلسة حول الجناح للأعجاب بالملابس الشخصية للسيدة ديكر. كان يصيبهم بالدهشة عدد الأثواب المعلقة، تقمن بإحصائها، بمقارنتها، كانت بعضهن تحاول نقش الموديل الذي يعجبهن كثيرًا في ذاكرتهن، حتى يتمكن الترزي من تفصيل مثله، دائمًا ما كان مجيء مدام دو ديكر إلى الليسيه حدث مترقب، مراقب، ومعلق عليه. كنا كالمفرج عنهم بأن نرى أخيرًا في ليسيه نوتردام النيل امرأة حقيقية بيضاء وكان لدينا الدليل: كانت مدام دو ديكر شقراء.

الميزة الأخرى للسيد دو دوكر، كانت حصصه. كان مدرسًا للعلوم الطبيعية. فصله الدراسي، كان فلك نوح. كل حيوانات الأرض ركبت فيها. كان يعرض شرائح مصورة شفافة على قطعة من قماش أبيض مثبتة على السبورة. دون الكثير من التعليقات، قام السيد دو ديكر بإظهار حيوان لاما بيرو، ثور التبت، الدب الأبيض القطبي، البقر الفريزيان، جمل الصحراء العربي، النمر المكسيكي، خرتيت نجورونجورو، ثور كاماراغ، نمر الهند، حيوان الباندا الصيني، الكانجرو الأسترالي... ثم، في نهاية الفصل الدراسي الربع سنوي الأول، أقبل اليوم العظيم: أظهر السيد دو ديكر صوره الفوتوغرافية الخاصة، الصور التي كان قد التقطها، تقريبًا مجازفًا بحياته، في غابة البامبو، فيما وراء الغيامات، فوق المنحدرات البركانية، صور الغوريلات. بخصوص الغوريلات، لم يكن ينضب معين السيد دو دوكر. كان هو بمثابة المتخصص الوحيد. من أجل ملاحظتهم، وليأسه الكبير من زوجته، كان

يتسلق في كل عطلات نهاية الأسبوع جبل الموهابورا[*]؛ من أجلهم، كان قد تنازل هذا العام عن العودة إلى بلجيكا في العطلة الكبيرة. يبدو أنه قد أصبح دائم الحياة في صحبتهم. كان في أحسن حال مع الذكر المسيطر الذي كان قد سمح له بإحصاء إناثه. كان ممتنًا للأم التي كان قد عالج صغارها. عبثًا طالبه المرشدون بالحيطة، حاولوا منعه، وهو لم يكن لديه أي شيء يخيفه من كبار القردة، كان يعرف طابع كل واحد من أعضاء العشيرة، يستطيع توقع ردود أفعالهم، ووصل للتواصل معهم. من ناحية أخرى لم يعد بحاجة إلى المرشدين. الغوريلات، ختم، هي الفرصة، الكنز، مستقبل رواندا. يجب حمايتها، توسيع حوزتها إذا لزم الأمر. لقد أوكل العالم أجمع إلى رواندا رسالة مقدسة: إنقاذ الغوريلات!

كانت أحاديث السيد دو ديكر حول الغوريلات تجعل جوريتي تتعدى حدودها.

ـ كيف – انفجرت– يكون البيض هم أيضًا من اكتشفوا الغوريلات، كما اكتشفوا رواندا، وأفريقيا وكل الأرض! ونحن البكيجا ألم نكن دائمًا جيران الغوريلات؟ وباتوانا[*] هل كانوا يخافونهم عندما كانوا يصطادونهم بأقواسهم الصغيرة؟ يقال الآن إن الغوريلات تنتمي فقط للبازونجو. هم فقط من يستطيعون رؤيتها، الاقتراب منها. هم مغرمون بالغوريلات. في رواندا، ليس هناك من شيء يدعو للاهتمام سوى الغوريلات. ينبغي على كل الروانديين أن يكونوا في خدمة الغوريلات، خدم الغوريلات، لا ينشغلون سوى بالغوريلات، لا يعيشون إلا من أجلها. هناك أيضًا امرأة بيضاء تعيش بينهم. تكره كل البشر خاصة الروانديين. تعيش طوال العام مع القرود. شيدت منزلها في وسطهم. فتحت مركزًا صحيًا من أجل الغوريلات، كل البيض يعجبون بها.تتلقى الكثير من الأموال من أجل الغوريلات.أنا لا أود ترك

(*) جبل بركاني خامد في جبال فيرونغا بين رواندا وأوغندا
(*) غابات الباتواغابات بها تنوع بيولوجي كبير من النباتات والحيوانات ومنها الغوريلا الجبلية كما أنها موطن لشعب من السكان الأصليين الأقزام باتو.

الغوريلات للبيض. هم أيضًا رواندیون.لا يمكن تركهم للأجانب. واجبي أن أذهب لرؤيتهم. سوف أذهب. يقول المدرسون إن القرود أجدادنا. ذلك أغضب الأب هيرمينيجلد. هذا ليس ما حكته أمي. قالت لي إن الغوريلات، قديمًا، كانت بشرًا، هربت إلى الغابة، لا تعرف لماذا، لقد نسوا أنهم بشر، من طول ما عاشوا في الغابة، صاروا عظيمي الجسم يغطيهم الشعر لكن، ما إن يروا فتاة عذراء، يتذكرون أنهم كانوا بشرًا، يحاولون خطفها، لكن الإناث منهم، اللاتي كن زوجاتهم الشرعيات وبطبيعة الحال غيورات، منعوهم بعنف.

ـ رأيت هذا في السينما، قاطعت ڤيرونيكا، قرد ضخم يمسك امرأة في يده ...

ـ ليس من السينما ما أقوله لك، سمعته من فم أمي . على أي حال، يجب أن أذهب لزيارة الغوريلات.لا يمكن أن نتركها للبيض. ولا حتى لامرأة بيضاء أنذرت حياتها من أجلهم. هل هناك من تريد أن تأتي معي؟ سنذهب أثناء إجازة عيد الميلاد. أنا متأكدة أن أبي سيساعدني. من تريد اصطحابي؟

جميعهن تنتظرن رد فعل "جلوريوزا "، لكنها اكتفت برفع كتفيها، والضحك بصوت عالٍ والهمهمة ببعض الكلمات غير المفهومة التي، بشكل واضح لا بد أنها كانت مكدرة في نظر الإباكيجا. إنها "إيماكوليه" التي صنعت المفاجأة:

ـ لو أستطيع، لو سمح لي أبي، سأذهب معك، يمكنك الاعتماد علي.

صعقت "جلوريوزا " بنظرتها تلك التي، أمام كل الفصل، خانتها للتو.

ـ لدي ما يكفي من الجولات على الدراجة النارية مع صديقي الصغير، أوضحت "إيماكوليه". أود شيئًا ما شديد الإثارة ومن ثم، على الأقل، سيكون لدي شيء ما أحكيه له: سأكون فتاة لا تخاف من أي شيء، سأكون مغامرة!

عند العودة في يناير، ننتظر بفارغ الصبر الحكاية التي لن تفوت جوريتي و" إيماكوليه" حكيها بصدد مغامرتهما في جبل الغوريلات." المستكشفات" كما كانت تدعوهما "جلوريوزا" ساخرة، يقمن بالدعوة كنجمات السينما." لقد مكثتا في مدينة روهينجري، تسخر "جلوريوزا"، لتشربا جعة البريموس ولتأكلا الدجاج المشوي وهما تتطلعان من بعيد إلى جبل الموهابورا وسط الغيوم. "لكن، ذات مساء بعد العشاء، دعت جوريتي كل الفصل لسماعها في حجرتها.

ـ إذا، رأيتما الغوريلات؟

ـ أكيد، رأيناها. لمسناها أيضًا أو تقريبًا. أبي ساعدنا ومع أنه كان مشغولًا، في هذا الوقت، حيث أتى الكثير من الناس لرؤيته في مخيم روهينجري العسكري، حتى والد " إيماكوليه" ، الذي أوصلها إلى روهينجري، تحدث مع أبي... بناء عليه أعطى أبي الأوامر لتجهيزنا: عربة جيب، أربعة عساكر، جرايات.أرتدينا ملابس مموهة، ضحك العساكر كثيرًا عندما رأوا "إيماكوليه" بحذائها ذي الكعب العالي، حينئذ أمدونا بأحذية ضخمة كأحذيتهم: مغوارات. سوف ترين الصور.

"إذًا، عند الشروق، رحلنا في العربة الجيب على منحدر البركان، حتى الغابة. وهناك كان يجب أن نجد المرشدين. لم يكونوا موجودين. بقينا هناك فترة طويلة في انتظارهم. نصب العساكر خيمتين: واحدة لهم، وواحدة لنا. أخيرًا حضر رئيس المرشدين. كان يبدو عليه الضيق. قال: "سيدتي، السيدة البيضاء، تود ألا نضايق غوريلاتها. تقول إن الغوريلات لا تحب الروانديين، وأنها تخاف منهم. إنهم من يقتلونها. فقط البيض هم من يعرفون كيفية التعامل معها. هذا ما قالته رئيستي. أنا لا أستطيع قيادتكم إليها، ستطردني، لا أريد أن أفقد راتبي. يمكنني بالفعل سماع

صراخ زوجتي. لا أستطيع منعكم من المواصلة، لكن لن أكون مرشدكم." انطلق بأقصى سرعة.

" لقد كنا محبطتين. السيدة البيضاء تمنعنا من زيارة غوريلاتنا. حينئذ، تحدث أحد الجنود إلى الرقيب. وأتى الرقيب يقول لنا إنه ربما توجد وسيلة للذهاب لرؤية الغوريلات رغم ذلك. كان الجندي يعرف بعض الباتوا، كان يعلم أين مخيمهم. إذا أعطيناهم شيئًا ما، سيقبلون دون أدنى شك أن يصطحبونا إلى الغوريلات. استقلينا الجيب، ثم توغلنا في الغابة. تبعنا العسكري. اختبأ الباتوا عندما رأونا قادمين. لكن الجنود أمسكوا بشيخ عجوز كان يجري أبطأ من الآخرين. الشيخ المسكين، كان يرتجف. حاولت أنا و" إيماكوليه" أن نهدئ من روعه. أخبرته عمن أكون، عما كنا نريد.لحسن الحظ، أني أتحدث اللغة الكينية الرواندية كما نتحدثها في بوكيجا، لا يجب أن تسخروا من ذلك بهذا القدر. عندما فهم أخيرًا الشيخ أننا نريد رؤية الغوريلات، استدعى الآخرين، وبدأنا في النقاش. استمر ذلك طويلًا. لكنني مع ذلك ابنة الكولونيل الذي يأمر المخيم العسكري. وكان هناك الجنود الأربعة ببنادقهم بين السيقان. اتفقنا في نهاية المطاف. اثنتان من الماعز. واحدة قبل الانطلاق نسلمها للنساء، والأخرى بعد أن نكون قد وصلنا بالقرب من الغوريلات. عدنا إلى خيامنا. رحل الرقيب في الجيب ليشتري الماعزتين من أقرب سوق.

"نمنا في الخيمة، كالجنود الحقيقيين.صباح اليوم التالي، عاد الباتوا. سألوا:

ـ "أين الماعز؟

"ـ ها هي، قال الرقيب.

"تفحصوهما، تباحثوا طويلًا. كان الأمر على ما يبدو أن الزعيم كان يريد أن تؤكل إحداها الآن قبل أن ينطلقوا ليوصلونا عند الغوريلات. قال الرقيب إن هذا غير

ممكن، وإنهم ينتظرونه في المعسكر صباح الغد، وإنه يتعين علينا أن نذهب الآن. لم يكن يود الباتوا سماع أي شيء، كانوا يريدون أن يأكلوا أولًا إحداها قبل الانطلاق، فضلًا عن أنهم كانوا قد قالوا لزوجاتهم ولأطفالهم أن يذهبوا لإحضار الحطب من أجل النار. قال الرقيب إن الكولونيل هو من أعطى الأمر بمرافقة ابنته حتى عند الغوريلات؛ لأنها كانت تريد رؤيتها. التفت الباتوا نحوي وأخذوا يضحكون. "الآن أيضًا النساء السود يردن رؤية الغوريلات!" حينئذ عرضت عليهم، إن رافقونا في الحال إلى الغوريلات، سأعطيهم ثالثة.

"ـ حسنًا، فلنذهب، وفي النهاية قال الزعيم، أعتقد أنك بالفعل ابنة الكولونيل، لكن، لا تنسي، أنت من وعدتِنا بمعزة ثالثة. تعسًا لك إذا لم تعطينا إياها!

" توغلنا في الغابة. لم يكن هناك درب. فتح لنا الباتوا ممرًا بمناجلهم." الدروب، قالوا، هي للبازونجو، إننا، نحن أبناء الغابة، أيمكن أن تضلل أم أبنائها؟" سرنا ساعتين، ربما ثلاث، لم أعد أعرف. يتقدم الباتوا بسرعة رهيبة، دون أن يلتفتوا ليروا أننا كنا نتبعهم. كنا نتعثر في كل خطوة. أغصان، نباتات متسلقة خدشت وجوهنا. كان الجنود أنفسهم قلقين، كانو ا يخشون أن يكون الباتوا قد نصبوا لهم كمينًا لا أعلمه.

" ثم فجأة، جلس زعيم الباتوا القرفصاء وأشار لنا بأن نحاكيه. أحدث صوتًا غريبًا بشفاهه، قطف جذعًا صغيرًا من نبات البامبو، كحركة ترحيب. حينئذ، بين الأشجار، رأينا: كانوا هناك، الغوريلات، حوالي عشرة، لم أعدها بالفعل، الأكبر، زعيم العائلة، كان ينظر باتجاهنا.

"ـ أخفضوا الرأس، همس أحد المطوع un mutwa، لا تنظروا له، أظهروا له أنه السيد، أنكم خاضعون، أعتقد أنه لا يحب رائحتكم.

" وضعت أنفي في الأرض مثل سواحلية حي نيميرامبو عندما يؤدون صلاتهم. نهض الغوريلا الكبير وهو يطلق دمدمة. بالفعل، كان ضخمًا. "خلاص، قال المطوع، تعرف علي، إنه راض، لكن لا تتحركوا."

" ومع ذلك رفعت رأسي كان لدي لوقت لملاحظته جيدًا: الزعيم الكبير، الذي كان دائمًا الحارس، والإناث والصغار. هل أكذب، "إيماكوليه"؟ ألم نرهم عن قرب تمامًا. كما لمسناهم.

ـ بكل تأكيد رأيناهم. الأمهات الغوريلات تحلقن بينما كان زعيم العائلة يرمقنا بعينيه. كان الصغار يلعبون في الوسط، يقفزون، يذهبون إليهم وهم يلتفون حول أنفسهم، يأتون ليرضعوا من أمهاتهم، وهي تفليهم. كانت الأمهات تمضغ براعم الخيزران لتجعلها طعامًا لصغارها كما تفعل جداتنا بالذرة البيضاء. حينئذ فكرت فيما حكته أم جوروتي: أن قديمًا كان الغوريلات بشر. أنا لدي قصة أخرى لأعرضها: هي أن الغوريلات رفضت أن تكون بشرًا، كانت تقريبًا بشرًا لكنها فضلت أن تبقى قرودًا في غابتها، في الأعلى تمامًا مع البراكين. عندما رأوا أن قرودًا آخرين مثلهم كانوا قد أصبحوا بشرًا، لكنهم أصبحوا أيضًا أشرارًا، قساة، وأنهم يمضون وقتهم في التقاتل، رفضوا أن يصبحوا بشرًا، إنها ربما هي الخطيئة الأولى التي يتحدث عنها طوال الوقت الأب "هيرمينجليد": عندما أصبح القرود بشرًا!

ـ " إيماكوليه" حكيمة، ملكة جمال رواندا تعمل باللاهوت! إنه أمر غريب للغاية، سوف يكون كل شيء مفهومًا، سخرت "جلوريوزا"، ينبغي أن تكتبي ذلك في مبحثك القادم، ذلك سيثير اهتمام الأب "هيرمينجليد"!

ـ ثم، واصلت جورتي دون أن تعير تهكمات "جلوريوزا" أي اهتمام، أشار لنا الباتو بأنه لا بد أن ننسحب دون عمل ضوضاء، قالوا إن الذكر الكبير كان قد بدأ

في الاهتياج، أعتقد أيضًا أنهم كانوا يرغبون في الذهاب ليأكلوا ماعزهم. عدنا إلى المخيم. ذهبنا للبحث عن المعزة الثالثة. ألف الباتوا أغنية على شرف المعزات الثلاث وعدنا إلى المخيم العسكري. هنأنا الضباط لجُرأتنا: فقط كانت النساء البيض القادرات على الذهاب لزيارة الغوريلات.

صفق كل المستمعين لحكاية "المستكشفتين".

ـ لكن، سألت "جلوريوزا"، قلتما إنه كان يوجد الكثير من الناس في المخيم العسكري، أتعرفان لماذا؟ وأنت "إيماكوليه"، ماذا كان يفعل أبوك في روهينجيري، عند الباكيجايين؟

ـ كان ذاهبًا لشراء البطاطس، أجابت "إيماكوليه"، لم يعد يحب سوى بطاطس روهينجيري الضخمة، الإنفوفاني![*]: الصغيرة، بطاطس جيتاراما، بطاطس بانيهندوجا، التي لم تعد أضخم من الإصبع، إنها تثير اشمئزازه.

[*] البطاطس الأوروبية

تحت معطف السيدة العذراء

" الأب "هيرمينجليد"، كانت تقول الأم الرئيسة عندما كانت تقدم القس الملحق بالمدرسة ومدرس الدين لبعض الزوار، الأب هيرمينيجلد، هو الإحسان نفسه، لو عرفتم الوقت الذي يكرسه، فهو رغم المسئوليات والأعباء، الروحية والمادية الكثيرة، ليكسو باحتشام فقراء الفلاحين في المقاطعة!" في الحقيقة كان الأب هيرمينجيليد بالنسبة لنيامياوامبي هو المتراسل مع خدمة الإغاثة الكاثوليكية. كل شهر، كانت تأتي حافلة المنظمة الإنسانية لتسلم "بالات" ضخمة من الملابس المستعملة التي يقوم بتخزينها الخدم في هنجر كان قد تخلى عنه على مضض الأخ "أوزيل" للقس الملحق بالمدرسة من أجل عمله الخيري. لم يكن يفهم أحد لماذا كانت مجموعة الحروف "CRS" التي تحملها مشمعات الحافلات تضحك المدرسين الفرنسيين كثيرًا. كان يعطى جزءًا من الملابس للأب أنجلو الذي كان يوزعها على أهل الإبراشية وملحقاتها، جزء آخر كان يباع لتجار الملابس المستعملة في السوق، وكانت المبالغ المتحصلة تستخدم في شراء القماش الأزرق والكاكي من أجل زي أطفال المدارس

الابتدائية في نياميناومبي. كان يحجز الأب هيرمينجيليد بعض الملبوسات، فساتين بشكل رئيسي، من أجل أعماله الخاصة.

حتى يتم فرز الملابس، كان الأب "هيرمينجليد" يلتمس مساعدة طالبات الليسيه ويتوجه قبل الجميع، في بداية العام، إلى المستجدات للمساعدة حيث كن لا يزالن مشدوهات بعالم الليسيه المجهول وهن يخطون أولى خطواتهن." أظهرن قلبكم الطيب، كان يعظهن، أنتن تمثلن الصفوة النسائية في البلد، إنه من واجبكم أن تعملن لتنمية كتلة الريفيين، ساعدوني في كساء أولئك العراة ." شعرت التلميذات أنهن مجبرات على التقدم، بعد ظهيرة السبت، عند مدخل الهنجر، عدد قليل جدً ا تجرأ على التقدم.بعد أن شكرهن طويلًا على هذا القدر من النوايا الطيبة، انتهى الأب "هيرمينجليد" إلى تخصيص للمتطوعات. تم تعيين حصة التوتسي في الأولوية مع البنات الأخريات ذوات الأجسام المليحة على نحو مميز. أضيف لهن بعض المنتظمات من السنوات السابقة اللاتي كن يتفحصن بامتهان وسخرية المنتخبات الجدد. كان العمل يشتمل إذا على القيام بفرز الملابس المستعملة: كومة ملابس للأطفال، كومة ملابس للنساء، وكومة ملابس للرجال. لم نكن نعرف كثيرًا ماذا نصنع بالجواكت السميكة المبطنة بالفرو، البالطوهات المبطنة، القبعات ذات الشرائط." إنها من أجل العجائز، قال الأب "هيرمينجليد"، دائمي الشعور بالبرد." ضمن كومة الملابس المخصصة للنساء، كان يقتطع" من أجل أعماله" أجمل الفساتين، أجمل البلوزات، بعض الملابس الداخلية المزخرفة بالدنتيلا." هذا أيضًا سيكون لمكافأتكن"، كان يعد حتى يشعل الحماسة في فرقته.

المكافأة، كانت عند الأب "هيرمينجليد"، في مكتبه الذي هو أيضًا حجرته، والتي كان ينبغي أن تحصل عليها. "فيرونيكا"، حينئذ، كانت في الصف الثاني الثانوي، وجدت نفسها وقد منحت أولى الجوائز. بانتهاء حصة التربية الدينية، كان قد

استبقاها الأب "هيرمينجليد". ما إن خرجت كل التلميذات، قال لها:" لاحظت أنك كنت تعملين جيدًا وبشكل مميز السبت الماضي. ذلك يستحق المكافأة. تعالي لتقابليني، هذا المساء، في مكتبي، عند الخروج من غرفة الطعام. لقد احتفظت بشيء ما من أجلك. لم تكن تنتظر "فيرونيكا" أمرًا جيدًا من "المكافأة". كانت القدامى يتحدثن عنها في بعض الأحيان بصوت خفيض ويسخرن أو يحتقرن أولئك اللاتي كان قد تمت مكافأتهن ولا سيما اللاتي كن قد فعلن ذلك كثيرًا جدًا. لم يكن لدى "فيرونيكا" أي شخص تسأله النصيحة، بالتأكيد، كانت تعرفه جيدًا: هي من التوتسي وستكون متهورة تمامًا لو أنها لم تذهب لتسلم "المكافأة" التي كان قد وعدها بها الأب هيرمينيجلد.

عند الخروج من غرفة الطعام سعت جاهدة لتصعد دون أن تُرى في الدور الأول حيث كان يوجد، في نهاية الممر بالضبط، مكتب الأب هيرمينيجلد. كانت تشعر أنها مراقبة من كل الأخريات اللاتي، على أي حال، لن يفوتهن ملاحظة تغيبها عن الحصة. طرقت على باب المكتب بصورة غير ملفتة للاهتمام تمامًا قدر استطاعتها.

ـ ادخلي، ادخلي بسرعة، أجابها بصوت كان فيه الترحيب المتسرع فاجأها.

كان الأب هيرمينيجلد يجلس خلف مكتب أسود كبير يوجد عليه، أسفل صليب مصلوب عليه يسوع من العاج، بعض الأوراق مبعثرة، التي ربما كانت مسودات حصصه أو عظاته، حدثت نفسها "فيرونيكا ". من ورائه، تحت صور الرئيس والبابا، تمثال عذراء كنيسة لورد، مدهون بألون نوتردام النيل، يعلوه مجموعة أرفف مملوءة بالكتب والملفات. على اليمين، ستارة سوداء تغلق كفاصل يخفي من دون شك سرير القس الملحق بالليسيه.

ـ جعلتك تأتين، قال لها الأب هيرمينيجلد، لأنك تستحقين بالفعل المكافأة، راقبتك عن كثب، قدرت طريقتك في العمل، بالتأكيد أنت من التوتسي، لكني مع ذلك أعتقد أنك جميلة... فتاة رائعة. انظري على الفوتيّ المجاور لك، انتقيت لك ثوبًا جميلًا.

على أحد الفوتيات المخصصة للزوار، كان قد نشر ثوبًا ورديًّا مكشوف الرقبة ومخرم بالدانتيلا. لم تكن تعلم "فيرونيكا " ماذا تفعل أو تقول ولم تجرؤ على الاقتراب من الفوتيّ أو من الفستان.

ـ إنه من أجلك، من أجلك، لا تخافي، كان يلح الأب هيرمينيجلد، لكن بداية أود أن أتأكد أنه يناسبك، إنه على مقاسك، ستجربينه أولًا، هنا، أمامي، أود أن أتأكد أنه بالفعل مقاسك، وإلا سأبحث لك عن آخر. كان الأب "هيرمينجليد" قد نهض وقام بجولة في المكتب، ثم تناول الثوب وقدمه إلى فيرونيكيا. تلك التي كانت تستعد لارتدائه من فوق زيها كما يقتضي الحياء الرواندي.

ـلا، لا، لا، قال الأب "هيرمينجيلد" وهو يستعيد منها الثوب، ليس هكذا ينبغي أن تجربي ثوبًا رائعًا جدًا. أود أن أعلم أن كان بالضبط على مقاسك: لمعرفة ذلك، لا بد أن تخلعي زيك، إنه هكذا يقاس ثوب رائع.

ـ لكن يا أبي، يا أبي...

ـ أفعلي ما أقول، أهناك شيء ما تخشينه معي؟ أنسيت أنني كاهن؟ تجهل عيون الكاهن الشهوة الجنسية. إنهما وكأنهما لا تبصرانك. ثم إنك لن تصبحي أيضًا عارية كليًا...ليس تمامًا...ليس بعد. هيا، غضب، لا تنسي من تكونين، تودين البقاء في المدرسة، أستطيع...أسرعي في خلع هذا الزي.

أسقطت "فيرونيكا" الثوب الزي الأزرق عند قدميها ووجدت نفسها ترتدي فقط حمالة الصدر وكلوتها الصغير تحت نظر الأب "هيرمينجيلد" الذي لم يكن يبدو أنه متعجل على تقديمه "المكافأة". عاد ليجلس في الفوتيّ وتأمل مليًا التي كانت تتوسل:

ـ أبي، يا أبي...

أخيرًا نهض الأب "هيرمينجليد"، وصار أقرب ما يكون من "فيرونيكا"، قدم لها الثوب الوردي، وبحجة رفع سوستة الظهر ليغلقها، فك إبزيم حمالة الصدر.

ـإنه أفضل هكذا، همس لها، بالنسبة لثوب مكشوف الرقبة، إنه الأفضل تمامًا.

تراجع قليلًا وعاد ليجلس في الفوتيّ.

ـ بكل تأكيد، واسع بعض الشيء، كان يعلق وهو يحتفظ بالزي وبحمالة الصدر على ركبتيه، لكنه مع ذلك مناسب. المرة القادمة، سوف أعثر لك على واحد يكون مقاسك بالضبط. اخلعي هذا الثوب وارتدي زيك.

انتظرت "فيرونيكا " فترة طويلة، وذرعاها يلفان صدرها، قبلما يرجع لها الأب "هيرمينجليد" ثوبها الأزرق وحمالة الصدر اللذين كان قد استولى عليهما.

ـ أسرعي لتلحقي بزميلاتك، لا تقولي شيئًا، لا تظهري ثوبك، ستصنعين غيورات، أنت قد ذهبتِ للاعتراف، هذا ما يجب أن تقوليه. لكني لا أحب كلوتك الصغير القطني، المرة القادمة، سأحضر لك واحدًا بالدانتيلا.

لم تعد تكافأ فيرونكا أبدًا من الأب هيرمينيجليد. لقد أخذت مكانها فريدا. منذ المساء الأول، كانت قد طلبت كلوتًا صغيرًا من الدانتيلا. الباقي جرى خلف الستارة السوداء.

طوال العام، ظلت "فريدا" المحظية الجذابة للأب "هيرمينيجلد"، ذلك لم يمنع القس المقيم من أن يمنح من حين لآخر "مكافأته" لتلميذات أخريات كن يستحقن على نفس قدر ملاطفاتهن. لكن، العام التالي، أظهرت فريدا طموحات أخرى، كانت تمضي عطلتها الكبيرة في كينشاسا بالقرب من أبيها الذي كان السكرتير الأول للسفارة. ذلك الذي كان يعتبر ابنته بمثابة حلية حفلات الاستقبال وحفلات عشاء السفارة. في كينشاسا، يرقصون حتى نهاية الليل وتنال فريدا في ذلك استحسانًا جزيلًا. بشرتها الصافية، لطفها الوافر، وأشكاله الكريمة كانت مستساغة لدى الزائيريين. يضاف لذلك الانجذاب لشيءٍ من الغرائبية بما أنها كانت رواندية. كذلك لم ينتابنا إلا بعض اندهاش عندما لمحنا شابًا ناضجًا كان له عظيم المحاباة من ابنة السكرتير الأول للسفارة الرواندية. حقيقي أن "جان بابتست باليمبا" كان لا يزال يمارس " الساب[*] الزائيري: الجاكت المجنون، بنطلون رجل الفيل، الصديري البراق. بالفعل هو أيضًا ثري ويمكن أن نقول عنه إنه قريب من محيط الرئيس موبوتو. كان والد فريدا يفضل بلا مواربة علاقة ابنته معتبرًا إنها لا يمكن أن تكون سوى تعزيز لمجاله الدبلوماسي. الخطوبة الرسمية كانت أيضًا محتفيًا بها في انتظار أن تؤدي المفاوضات إلى زواج ممكن. بالتأكيد، كانت هناك شائعات تزعم أن جان بابتست باليمبا كان له زوجات مبعثرة بطول نهر زائير ـ حديثًا الكونغو ـ وحتى كاتانجا ـ الآن "شابًا". كان يخشى الأب أن تكون ابنته ليست سوى منصب آخر". ومنصب لا يستمر إلا إلى حين. ليثبت إخلاصه، طلب باليمبا بضعة أشهر بعد ذلك وحصل من دون صعوبة تذكر على وظيفة سفير في كيجالي. أعلن لمن كان يود استماعه أنه كان يمكنه بالتأكيد التطاول على وظائف أخرى لها عظيم أهمية، لكنه فضل هذه

[*]تيار في الأزياء الشعبية يقوم على تقليد الغندورية وشدة التأنق وأتباعه،

ليكون أقرب ما يكون إلى خطيبته، التي نتيجة إصرار أبيها، كان ينبغي عليها مع ذلك أن تنهي دراستها في ليسيه نوتردام النيل.

أثارت شائعة خطبة فريدا المشاعر في كيجالي وأيضًا في ليسيه نوتردام النيل حيث تنازل الأب هيرمينيجلد، لأسباب وطنية بالتأكيد، عن ملاحقة فريدا بـ" مكافأته". تلك التي أظهرت فضلًا عن ذلك غطرسة لا تحتمل تجاه زميلاتهاو وصلت إلى تحدي "جلوريوزا " التي كانت تبلع، مستضعفة، حنقها. لكن في هذه السنة الثالثة، بعد العودة ببضعة أسابيع، أطلقت فريدا في كل الليسه الذهول والحفيظة، وبالنسبة للكثير، الغبطة والإعجاب.

في أحد أيام السبت، بينما تتوالى موجات المطر منهمرة في مستهل موسم الأمطار، قطيرة من أربع سيارات لاند روفر اجتازت بوابة الليسيه وتوقفت عند الجناح الأرضي. أسرع سائق العربة الأولى ليفتح الباب الخلفي ورجل قصير، يرتدي زيًا صحراويًّا وبنطلونًا أبيض، حضرته السفير بالمبا، ينزل من المركبة. صافح بلامبالاة الأخت المديرة التي كانت قد وضعت هنا لتستقبل الزائر ذائع الصيت. رجته الأخت المديرة أن يعذر بالفعل الأم الرئيسة التي كان لديها الكثير من المسئوليات لكنها ستستقبل حضرته إن أراد حقًّا ذلك، بعد القداس الكبير، الذي، بطبيعة الحال، لن يفوت حضرته حضوره.

بينما كانت الأخت المديرة ترافق السفير في زيارة الجناح الأرضي، كان خدمه بزيهم العسكري يفرغون حقائب ضخمة ويستغلون بجلبة حجرات البيت الفخم، مبدلين الأثاث، مكدسين في المطبخ المأكولات والمشروبات الكحولية، ويفرشون الفوتيات بقماش الكتان في الصالون، ويضعون على حامل صورة الرئيس موبوتو، وحمل إلى غرفة النائب الرسولي سريرًا كبيرًا بوسادة على شكل صدفة مزخرفة بنسيج مخرم

ذهبي، كدسوه بوسائد من كل المقاسات ومن كل الألوان. أحدهم وضع على الشرفة ترانزستور ضخم سكب في الحال موجة مدوية من الرومبا المذاعة مباشرة من كينشاسا

ـ فريدا، خطيبتي، ليست موجودة، قال السفير، فلتذهبوا لتبحثوا لي عنها.

نسيت في حالة ذعرها أن تطرق على الباب، اقتحمت الأخت المديرة مكتب الأم الرئيسة التي كانت تتحادث مع الأب "هيرمينجليد" والأخت " جيرترود ".

ـ يا أمنا، يا أمنا المبجلة، لو عرفتي... فلتسمعي هذه الموسيقى... موسيقى الفتيات الطائشات...في ليسيه نوتردام النيل! ...أه! يا أمنا لو رأيتِ ما يدور في الجناح الأرضي، السفير الكونجولي، قلب كل شيء، نقل سرير الأب الرسولي، وضع مكانه سرير للفجور، للإفساد... ويود أن نسوق له فريدا! يا إلهي!

ـ اهدئي، يا أختاه، اهدئي، فلتثقي تمامًا أنني أستقبح كل هذا، لكن ثمة أمورًا تفوقنا، ويجب علينا تقبلها، ثقي بذلك: أمر سيئ من أجل خير أعظم...

ـ اسمعي، يا أختاه، قاطع الأب "هيرمينجليد"، كما تقول أمنا الرئيسة، إنه لخير البلاد أن نكابد الفوضى التي صنعها سيادة سفير زائير. أنا نفسي، عند العودة، من نصح أمنا الرئيسة بأن توافق على طلبات سيادته، فضلًا عن أنها استلمت رسالة من وزير الخارجية بهذا المعنى. فلنفهم، أن هذا الأمر نقبله من أجل رواندا، هذا البلد الذي تحبينه كثيرًا، كوطن، وربما إلى حدٍ ما أكثر. عندما كنت في المدرسة الإكليريكية، قرأت كتابا حول اليهود، كتاب سري كتبه اليهود أنفسهم، لا أعرف من أماط اللثام عنه. كان اليهود قد كتبوا أنهم يريدون غزو العالم، وأنهم لديهم حكومة سرية تحرك كل خيوط الحكومات الأخرى، وأنهم يتغلغلون في كل مكان. كذلك أنا، أقول لكم ذلك، التوتسي مثل اليهود، هناك أيضًا مبشرون، كالأب العجوز بينتار،

الذين يقولون إنهم حقا اليهود، وأن هذا في التوراة. ربما لا يريدون غزو العالم لكنهم يريدون الاستيلاء على كل المنطقة. أعرف أن لديهم مشروعًا لإمبراطورية حامدية كبيرة، التي يجتمع زعماؤها سرًا، مثل اليهود. لاجئوهم في كل مكان، في أوروبا، في أمريكا. يدبرون كل المكائد الممكنة ضد ثورتنا الاجتماعية. بكل تأكيد، طردناهم من رواندا وأولئك الذين بقوا، شركاؤهم، نضعهم تحت أعيننا، لكن ذات يوم يجب أيضًا أن نتخلص منهم، ولنبدأ بهؤلاء الذين يتطفلون على مدارسنا وجامعتنا. بلدنا رواندا المسيكن محاط بكل هؤلاء الأعداء: في بوروندي التوتسي في السلطة، يذبحون إخواننا، في تنزانيا، هم الشيوعيون، في أوغندا البهاميون أبناء عمومتهم. لحسن الحظ لدينا جارتنا العظيمة لتدعمنا، أخونا قبيلة البانتو...

ـ يا أبانا، يا أبانا، قالت الأم الرئيسة، لا للسياسة، لا للسياسة، فلنحاول ببساطة تجنب الفضيحة، بأن نجعل بناتنا الطاهرات بعيدًا.

ـ لكن، قال الأب "هيرمينجليد"، فريدا والسفير مخطوبان.فلنقل إنهما يأيتان هنا من أجل الإعداد للزواج، أنا قس الليسيه... يا أخت " جيرترود"، فلتذهبي لتخبري فريدا أن خطيبها ينتظرها. أنا، سأذهب لزيارتهما في السهرة وسوف أرجع فريدا لمطعم الليسيه.

قبل فترة وجيزة من رنين الجرس الذي يدعو للطعام، حضر الأب "هيرمينجليد" أمام مدخل الجناح الأرضي. توجه نحو الحارسين بثوبهما العسكري اللذين كان يجلسان على درجات السلم.

ـ أتسمحان بإخبار سيادته أنني أرغب في الحديث إليه وأنني أتيت لأرجع الفتاة إلى الليسيه.

ـ السفير لا يستقبل أحد، أجاب أحد الحارسين باللغة السواحلية، وقال إن الفتاة ستبقى هنا الليلة.

ـ لكني أنا الأب "هيرمينجليد"، قس الليسيه، ويجب أن ترجع فريدا إلى الليسيه لتناول العشاء مثل كل التلميذات الأخريات. ينبغي أن أتحدث إلى سيادته.

ـ لا داعي لهذا للإصرار، قال الحارس، إنه سيادة السفير من قرر بقاء الفتاة طوال الليلة، تستطيع أن تعود مرة أخرى.

ـ لكن الفتاة لا تستطيع البقاء هنا طوال الليل. إنها تلميذة، يجب...

ـ نقول لك مرة أخرى: لا داعي لهذا الإصرار، كرر الحارس الآخر الذي أظهر للأب "هيرمينجليد" أثناء نهوضه قامته الضخمة، الصغيرة وافقت، لا داعي للإزعاج.

ـ لكن، لكن...

ـ قلت لا داعي للإصرار، الصغيرة مع خطيبها، السيد السفير أتى من أجل هذا.

نزل الحارس الضخم السلم بتمهل وتقدم، مهددًا، نحو الأب "هيرمينجليد".

ـ حسنًا، حسنًا، قال الأب "هيرمينجليد"، احتراماتي لفخامته وتمنياتي له بليلة سعيدة، سوف أراه غدًا.

بقيت فريدا في الجناح الأرضي بصحبة خطيبها حتى يوم الأحد بعد الظهر. عندما تحرك موكب اللاند روفر في الخارج، رأينا فريد، على درجة السلم الأخيرة للمدخل، تلوح بعلامات الوداع حتى اختفت العربات عند أول منعطف من المدق.

من بعد الحديقة، حشد صغير من التلميذات، وقف بعيدًا نتيجة تهديدات الأخت الرئيسة على رأس مجموعة من الخدم، التي كان قد حضرت المشهد وعندما فتحت فريدا، بلا مبالاتها المتصنعة، بصعوبة ممرًا وسط جمهرة زميلاتها، ولم تتواضع بالإجابة عن أي من الأسئلة التي ألحوا فيها.

ـ يا أمنا، يا أمنا المبجلة، فقالت الأخت المديرة وهي تدخل إلى مكتب الأم الرئيسة ، لو رأيتِ...الجناح الأرضي! في أي حال! والمطبخ...وسرير النائب الرسولي...

ـ اهدئي يا أختاه، لن يعودوا. فاوضت السيد السفير. أقنعته. أقر أنه سيكون من الصعب مجيئه كل يوم سبت وأحد إلى الليسيه، لديه التزاماته الدبلوماسية ومع موسم الأمطار، أضفتُ، سيصبح المدق سيئًا، ويصادف أيضًا أن يجده مسدودًا. انتهى موافقًا. والآن هذا ما توصلنا إليه من اتفاق: كلما أمكن، سوف تأتي سيارة من السفارة لاصطحاب فريدا يوم السبت وسوف تعيدها الأحد...أو ربما ... في بعض الأحيان الاثنين. في النهاية، وعلى أي حال، هما مخطوبان، كما يقول الأب هيرمينجلد... يجب أن تذهب إلى القيصر...

لعدة أسابيع، أتت سيارة من السفارة تنتظر كل سبت فريدا عند مخرج مطعم الليسيه ظهرا.نفس السيارة تعيدها إلى الليسيه في وقت متأخر من ليل الأحد أو الاثنين، كان في أكثر الأحيان في صباح الاثنين. كانت الأم الرئيسة والمشرفات يتظاهرن بعدم سماع صرير البوابة التي تنفتح في قلب الليل، وتظاهر المدرسون بعدم رؤيتهم أي شيء، عندما تقطع فريدا الحصة فجأة لتستقر بضجيج في مكانها تحت همس المشاغبات من زميلاتها. لكن أخيرًا خرجت فريدا من صمتها المحتقر: لم تعد تقاوم رغبة إبهار زميلاتها بحكايتها المفعمة بالحماسة عن الحياة التي لا

تضاهى والتي تحققها بجانب خطيبها. من أجل أن تتصالح مع أولئك اللاتي احتقرتهم طويلًا واللاتي بقين لها، مهما فعلت، عدوانيات سرًا، حملت من العاصمة سلة كاملة من لذائذ الطعام: قطع الزلابية كالتي كن يعرفن وحدهن عملها الأمهات السواحليات وخاصة، وبشكل أكثر غرائبية، فطائر حلوى وقرص من الخباز اليوناني وبونبوني من عند كريستنا، دكان من أجل البيض. كانت توجد دائمًا جعة البريموس وفي بعض الأحيان زجاجة نبيذ، المفضل نبيذ الماتيوس. تقريبًا نجح كل الفصل في التكدس في غرفة "فريدا" حتى الاثنتين حصة التوتسي كانتا مدعوتين. عندما رن جرس إطفاء النور، المشرفة التي كان لها نصيب من المأدبة، لم تجرؤ على مقاطعة خطيبة سيادة السفير. كانت فريدا تجرد وتعيد جرد ملابسها الشخصية التي نالتها في سفارة زائير، كانت تستخدم كلمات تؤثر في مستمعيها: فستان سهرة، فستان حفلة كوكتيل، الجيب بنطلون، ملابس البيت، قمصان النوم...أحيانًا كانت تحضر إحدى هذه الملابس الساحرة وتلبسها للإبهار، المصطنع أو الصادق، من كلهن. كانت تحصي متوجهة لـ "" إيماكوليه""، بوصفها متخصصة العناية بالجمال، المنتجات التي كان قد أوصى بها السفير "بالمبا" لتفتيح بشرتها: مزيل الماكياج، كريم الأساس، لوسيون بأربعة عطور شرقية، إلخ. يود أن تكون خطيبته أكثر بياضًا.

ـ والمجوهرات؟ سألوها عنها بلهفة.

بكل تأكيد، السيد السفيركان قد أهدى خطيبته مجوهرات: خاتم الخطوبة بفص ألماس كبير (في زائير، يسيرون على الألماس)، أساور من الذهب، من العاج العتيق، عقود من اللؤلؤ، أحجار كريمة، لكن خطيبها حرم عليها أن تحملها خارج السفارة." ذلك لغواية قطاع الطرق فحسب، وهناك منهم الكثير في كيجالي! المجازفة عظيمة: يد من أجل خاتم بسيط، ذراع من أجل سوار، أوضح، والعسكريون ورجال

الشرطة في الحواجز على الطرق، لا نعرف أبدًا من يكونون بالفعل." أثناء غياب فريدا كانت تظل المجوهرات مغلق عليها بصرامة في خزينة السفارة الضخمة.

ـ ومهرك؟ ماذا فاوض أباك بخصوص المهر؟

–فلتهدأن، لن يكون ماعز ولا أبقار بل نقود، الكثير من النقود! سيتشارك أبي وخطيبي على إنشاء مشروع للنقل. سيحضر بالمبا كل الأموال، رؤوس الأموال كما يقول، سوف يشترون حافلات، شاحنات صهريج التي ستقوم بالنقل بين موبازا وكيجالي، بل لن تتوقف في كيجالي، سوف تذهب أيضًا إلى بوجومبورا، حتى بوكافو، خطيبي يعرف جيدًا مدير الجمارك.

ـ آه! أكملت فريدا، لوتعرفون أي حياة أعيشها مع سيادته السيد سفير زائير خطيبي. نذهب إلى كل الحانات، حانة فندق "ميل كولين"، حانة فندق الدبلوماسيين. وعند سفير فرنسا نتناول لحم البقر المملح الأفضل كثيرًا من ذلك الذي تقدمه لنا الأخت المديرة من أجل الحج، وعند سفير بلجيكا نتناول محار البحر: لم أكن أجرؤ، فهو غير طعام الروانديين ... ولا نشرب جعة البريموس أبدًا، نشرب جعة البيض، عندما ننزع غطاء زجاجة، دون الاحتياج لفتاحة، يفرقع كالرعد ويخرج منها رغاوي كالدخان المنبعث من بركان نيّراجونجو.

ـ أتظنين أن أبي لا يعرف الشمبانيا، قاطعتها "جلوريوزا "، كان لديه منها بشكل دائم في مكتبه من أجل الزوار، الهامين، جعلني أيضًا أتذوقها.

ـ وأنا، قالت جودليف، أتظنين أنني لا أعرف المحار، لقد ولدت في بلجيكا، لكنني كنت صغيرة جدًا حتى أتناوله، يتحدث أبي عنه كثيرًا، يقول إن البلجيكيين لا يتناولون إلا هذا و، وعندما يسافر إلى بروكسل، أمي تجعله يعدها ألا يتناوله أبدًا.

لم تكن تسمع فريدا المشاغبات:

ـ بعد الظهيرة، إن كان الجو مشمسًا، لا نأخذ القيلولة، نركب السيارة الحمراء المكشوفة، النارية، نخرج من كيجالي ونخترق المدقات الصغيرة، يهرب كل العالم، النساء، الأطفال، الماعز، يتلوى الرجال راكبو الدرجات، يفقدون حمولتهم من الموز ويتمددون في الحفرة. نبحث عن ركن هادئ. أنه شيء نادر في رواندا. تشجيرات من الكافور. عدة صخور فوق إحدى القمم. نتوقف. أضغط على زر. ينبسط غطاء السيارة. تعرفون، مقاعد السيارة الحمراء الصغيرة، إنها بمثابة سرير...

مع أمطار نوفمبر الغزيرة، يجتاح انهيار أرض كل شيء على حد سواء، أشجار الموز، المنازل، وقاطنيها ليقطع لعدة أسابيع الطريق المؤدية إلى الليسيه. في نفس التوقيت كان قد اجتاح "فريدا" نوبات من الغثيان، من القيء، ومن الدوخة. رفضت أن تلمس برغل مطعم الليسيه تقريبًا يوميًا وكانت تود فقط تناول كورنيد بيف سفارة فرنسا. الخطيب المتهم نجح، لا نعرف كيف، في أن يوصل لها منه كرتونة. كانت تود أن تتذوقه صديقاتها المفضلات. أولئك اللاتي كن حذرات. استولت "جروتي" سرًا على إحدى هذه العلب التي كانت قد أفرغتها فريدا وذهبت لتسأل السيد لو جراند، أستاذ الجيتار الفرنسي، ما يمكن أن يكونه هذا النوع من الطعام. أوضح لها السيد لو جراند أن هذا ينتجه طائر أبيض ضخم. نجبره على الأكل حتى التقيؤ. نأكل قيئه. وجدت كل البنات أن هذا مقزز. فقط، "إيماكوليه"، "جلوريوزا"، موديستا، وجولديف، نتيجة الحاح فريدا، قبلن أن يتذوقنه. أكدن أنه إلى حدٍّ ما طري، أنه يشبه التراب أو بالأحرى، تقول جورتي، العشب الذي يملأ كرش البقرة الذي يطالب به الباتوا عندما يذبح إحداها، على أي حال، إنه بالفعل طعام للبيض و، في طعام البيض، كن يفضلن من بعيد جبن الكرافت والكورنيد بيف الأحمر جدًا من الأخت المديرة.

كان واضحًا لهن جميعًا أن فريدا كانت حُبلى، علاوة على أنها لم تكن تخفي ذلك، كانت فخورة بحملها، مع أنه أمر مخجل جدًا لأسرتها قبل الزواج.

ـ سيادته، خطيبي، يريد ولدًا، حتى الآن ليس لديه سوى البنات: أنا، سيكون لدي ولد.

ـ لديه زوجات أخر إذا؟ ألمحت "جلوريوزا ".

ـ لكن لا، لا، تطمئن نفسها فريدا، إما متن أو طلقهن.

ـ وكيف تعرفين أنك ستلدين ولدًا؟

ـ هذه المرة، اتخذ بالمبا كل الاحتياطات. فلقد استشار عرافًا كبيرًا في الغابة. ذلك كلفه الكثير. قال له العراف إنه حتى يضلل السحر الشرير الذي كان قد ألقاه عليه أعداؤه والذي جعله لا ينجب إلا البنات، يجب أن تتزوج فتاة تأتي من الضفة الأخرى لإحدى بحيرات أسفل البراكين. التعويذات الشريرة للمسممين الزائيريين لن تقدر على أي شيء ضدها. أعطاه كل التعويذات اللازمة لإنجاب ولد، كل الدعوات التي لديه سر، من أجله ومن أجلي. أنا، ينبغي أن أحمل على بطني حزام من اللؤلؤ والمحار. هذا لأنجب ولد. خطيبي متأكد أنني سألد ولدًا.

ـ يجب أن يبارك بطنك الأب "هيرمينجليد"، قالت جولديف، أعتقد أنه يعرف كل الصلوات من أجل إنجاب أطفال أو بشكل خاص عدم الإنجاب.

بسرعة تفاقمت حالة فريدا، لم تعد تريد النهوض، كانت تشكو من ألام عنيفة في البطن. كانت الأم الرئيسة قلقة، ساخطة من إخفائها في مدرستها حمل فتاة لم يكن قد أعلن زواجها طبقًا للطقوس المقدسة للكنيسة: إنها خطيئة، خطيئة"، كررت على الأب "هيرمينجليد" الذي كان يحاول عبثا تهدئة وساوسها الموخزة:" إنهما

مخطوبان، يا أمنا، مخطوبان، وسمعت اعترافات "فريدا"، منحتها الغفران." لم تتوقف الأم الرئيسة عن النواح: "يا أبانا، فكرت في التلميذات الأخريات الطاهرات، تحولت ليسيه نوتردام النيل إلى منزل للبنات الأمهات، فضيحة!

أرسلت الأم الرئيسة الرسالة تلو الرسالة إلى السفير، ترجوه بلجاجة أن يأتي ليصطحب فريدا، مبالغة في كل مرة أكثر إلى حدٍّ ما في خطورة وإلحاح حالتها. في نهاية المطاف أرسل سيارة لاند روفر منيعة والتيكانت تمر بمسارات كانت تعتبر حتى ذلك الحين وعرة على كل المركبات، نجحت في الالتحاق بالليسيه وإعادة فريدا إلى كيجالي.

أغرق خبر موت فريدة ليسيه نوتردام النيل في بلبلة عميقة. أصدرت الأم الرئيسة أمرًا بالحداد لمدة أسبوع، وفي أثنائه كنا ندعو لروح فريدا و، في الختام، سنذهب، يوم الأحد، للحج لنوتردام النيل حتى ترحب بهذه الروح الصغيرة المسكينة تحت عباءة رحمتها الوسيعة. قرر الأب هيرمينجيليد بأن يحتفي كل صباح من هذا الأسبوع بإقامة قداس بنفس النية. كل الفصول، وراء بعضها البعض، كانت يجب أن تحضره. حضور الفصل النهائي، بخصوصها، إجباري في كل المرات. كان مقيم القداس يؤبن المتوفاة مشيرًا إلى أنها كانت قد ضحت بعذريتها وشبابها لخدمة أغلبية الشعب. إلا أن، هو نفسه والأم الرئيسة لم يستطيعا إخفاء بعض الارتياح. بعد كل شيء، لم تدر المأساة في الليسيه، وفاة فريدا، المأسوف عليها، وضعت نهاية للمثال الفاضح لتلميذة حملت نتيجة تساهل المنشأة. كانت قد نثرت بفطنة بعض التلميحات عن إمكانية عقاب إلهي كان قد صرع الخاطئة في أحاديث المواساة التي كانت قد وجهتها الأم الرئيسة إلى التلميذات ولا سيما في التأملات الفكرية الدائمة للأب "هيرمينجليد" أثناء حصص الدين.

محبوسات طوال اليوم في مهجعهن، دون التفكير في الخروج منه، استسلمت تلميذات السنة النهائية، كما جرت العادة، لرثاء جماعي. صرخة انتحاباتهن ملئت كل الليسيه. البكاءات غير المنقطعة كانت تشهد على صدق حزنهن وكانت تعترض على مصير فريدا الظالم. جميعهن كن متحدات في اليأس من كونهن نساء.

ثم جاء وقت الإشاعات. مما كانت وفاة فريدا؟ لماذا؟ كيف؟ من كان قد جعلها تموت؟ الرواية الرسمية أرادت أن يكون نتيجة إجهاض. المركبة التي كانت ترجعها إلى كيجالي لابد أنها كانت قد اتخذت طرقًا سيئة، هل الرجرجات هي من سببت ذلك؟ في هذه الحالة، أليست الأم الرئيسة والسفير مسئولان إلى حدٍّ ما؟ لماذا لم ينتظرا إعادة فتح المدق؟ لبضعة أيام تقريبًا. أو تقريبًا طعام البيض هذا، بطن هذا الطائر المتقيئ الذي كانت تلتهمه فريدا مع كثير من الحلويات، ذلك هو ما أصابها بالتسمم، لكن ليس بواسطة طعام البيض، بواسطة المسممين، الروانديين دون أدنى شك. كان من السهل فهم ذلك: أعداء مالمبا كانوا قد تبعوها حتى كيجالي، كانوا قد دفعوا لمسممين روانديين، الأباروزو، دفعوا لهم كثيرًا، كثيرًا جدًا، الإباروزو، لو أعطيناهم ما يلزم، يكونون مستعدين لتسميم أي شخص، إنها مهنتهم، إنهم بالفعل أكثر قدرة من السحرة الزائيريين وأدعيتهم. وبالتالي قد لا يكون أجداد "فريدا "روانديين تمامًا، وأنهم أتوا من جزيرة إيجوي أو من الناحية الأخرى للبحيرة، من البوشي... إذا بالمبا...

ـ أنا، قالت جورتي، أعتقد أن أسرتها من قتلتها، دون أن تود ذلك بكل تأكيد، بإجهاضها. هذا ما قد يفعل عندنا. لا تستطيع فتاة أن تتزوج وهي حامل أو ابنها على ظهرها، حتى لو كان ظهر خادمة. إنه الخزي، العار لها ولعائلتها، سوف تجر عليهم كل التعاسة. من الأفضل ألا يوجد الطفل أبدًا. ومن ثم بحثوا عن طبيب، طبيب فاسد، الأطباء الفاسدون فقط من يمارسون الإجهاض، أو حتى ممرضة، أو

على الأسوأ عاملة في مستشفى جعلتها تشرب دواءً أجهضها أو قتلها... مسكينة "فريدا"! لكن لو كان ما أقول صحيحا، عند عائلة فريدا كل الحق في الخوف، انتقام مالمبا سيكون فظيعًا لو كان مقتنعًا أنها كانت حاملًا في ولد.

طلب السفير نقله ونال ذلك سريعًا. شارك في المفاوضات الزائيرية لدى منظمة الوحدة الأفريقية في أديس أبابا. ترك أبو فريدا السلك الدبلوماسي، وانطلق في مجال الأعمال الخاصة، يقال إنه نجح...

ـ يكفي هذا، قالت "جلوريوزا"، أعتقد أننا ذرفنا ما يكفي من الدمع على فريدا. فلا نتحدث عنها بعد، لا فيما بيننا، ولا مع الآخرين. حان وقت أن نتذكر من نكون، وأين نكون. نحن في ليسيه نوتردام النيل التي تشكل صفوة نساء رواندا، نحن قد تم اختيارنا لنكون طليعة النهوض بالمرأة. فلنبق موضع الثقة التي منحنا إياها الغالبية العظمى من الشعب.

ـ "جلوريوزا "، قالت "إيماكوليه"، أتعتقدين أنه قد حان الوقت فعلا لتعيدي علينا إحدى خطبك السياسية كما لو كنا في اجتماع؟ النهوض بالمرأة، فلنتحدث عنه! لو إننا هنا، بالنسبة للغالبية، فذلك من أجل النهوض بالأسرة، ليس من أجل مستقبلنا، بل من أجل مستقبل العشيرة. نحن بالفعل سلع رائعة بما أننا تقريبًا كلنا بنات أثرياء وقادرين، بنات لأهل سوف يستطيعون التفاوض علينا بأعلى سعر، والشهادة ستعلي أيضًا من قيمتنا. أعرف أن الكثيرات هنا تعجبهم هذه اللعبة، حيث إنه لا يوجد شيء آخر، وحيث إنهن يأخذن من ذلك فخرهن. أنا، لم أعد أود المشاركة في هذا السوق.

انصتوا لها، سخرت "جلوريوزا"، إنها تتحدث كبيضاء في أحد الأفلام أو في الكتب التي يجعلنا نقرأها مدرس اللغة الفرنسية! ماذا تكونين، "إيماكوليه"، دون أبيك

ودون أمواله؟ أتعتقدين أن امرأة في رواندا تستطيع الصمود دون أسرتها، أسرة أبيها أولًا ثم أسرة زوجها. أنت عائدة من عند الغوريلات، أنصحك أن تعودي إليها.

ـ لما لا؟ قالت "إيماكوليه". إنها ربما نصيحة رائعة.

مجرد أن انتهى أسبوع الحداد، أبعد ضمنيًّا وبشكل مطلق اسم "فريدا" من كل ليسيه نوتردام النيل. إلا إنه كان لا يزال يوجع طالبات السنة النهائية. إنه كإحدى الكلمات المشينة التي تعرفها دون أن تعلم من أين قد أتتك ولا من الذي أخبرك بها وتسمعها تخرج من فاك دون أن تريد ذلك. لو أن إحدهن نطقت، كسقطة، الاسم الممنوع، كل الأخريات تحدن برأسهن، يتظاهرن إنهن لم تسمعن شيئًا، ويشرعن في الكلام بصوت عال للتغطية، ليمحو بثرثراتهم التافهة الصدى اللانهائي الذي يعكسه المقطعان في أفكارهم. لأنه كان بالفعل سرًا مخزيًا يتضفر في قلب الليسيه كم في صدر كل واحدة منهن، ندم يبحث عن مذنب، خطيئة مجهولة السبب لن تعرف أبدًا الاعتراف. لا بد من دحر هذه الصورة: "فريدا" كالمرآة السوداء التي نستطيع أن نقرأ فيها مصيرها.

٩-أموزيمو الملكة(*)

كانت "ليونسيا " تنتظر بفارغ الصبر مجيء – "ڤيرجينيا" في إجازة عيد الفصح لقد كانت "ڤيرچينا" الطفلة المفضلة دائمًا لأمها، ألا تدعوها موتاموريزا:" لا تُبكها". والآن إنها في الليسيه، طالبة! كما أنها تكرر ذلك دون توقف، إنها فخرها الوحيد. تجد نفسها بالفعل مصاحبة لابنتها التي، منذ مقدمها، في زي الليسيه، تذهب من بيت لبيت، تسلم على كل سكان التل. إنه يوم مجدها، مرتدية مئزرها الأجمل، كانت تقدر، من عين النقد أو الرضا، درجة الفخر التي يوليها كل واحد لابنتها التي، عما قريب، ستعود بهذه الشهادة التي تُمنح بتقتير شديد، خاصة للبنات، ولا سيما لواحدة من التوتسي، الدرجة المرموقة في العلوم الإنسانية. حتى رئيس الدير الذي لا يتوقف عن خلق القلاقل والامتهانات تجاه العائلة التوتسية الوحيدة في التل، سيجد نفسه مضطرًا لاستقبالهم ونثر التهاني والتشجيع، حيث المبالغات تخفي بقوة الإكراه. شعرت "ليونسيا" بالسكينة: كانت" ڤرجيني" طالبة وعندما تكون طالبة، كانت تظن، كما لو لم تكن من الهوتو ولا من التوتسي، كما لو كانت قد التحقت بـ" عرق" آخر:

(*) هذه الكلمة باللغة الكينية الواندية وتعني الروح

العرق الذي أسماه البلجيكيون في الأمس القريب عرق المتطورين. قريبًا ستكون ڤيرچينيا معلمة، ربما أيضًا في مدرسة الإرسالية المجاورة بما أن الأب چيروم الموجود هناك كان قد لاحظ ذكاءها. وصل في النهاية إلى إقناع ليونيسيا أن "ڤيرچينا" (الابنة الكبرى! تلك التي يدين لها إخوتها وأخواتها بوجودهم، أوبوريزا، تلك التي فتحت بطنها للآخرين، وتلك التي ينبغي أن تكون الأم الصغرى لإخواتها ولأخواتها) لها مستقبل آخر غير زراعة الأرض المجاورة للبيت." مستقبل مشرق، يكرر، مشرق!" تستطيع أيضًا، يقترح لإقناع "ليونيسيا"، أن تصبح راهبة في معاهد بينيكيبيرا مريم(*)، ليس لتكون طاهية ، بل لتكون أستاذة بلا شك، ومستقبلًا الرئيسة، ولما لا تكون أما عامة. كانت ليونيسيا تتمنى لابنتها زوجًا جيدًا، موظفًا حكوميًّا بالتأكيد، ويمتلك أيضًا سيارة تويوتا للعمل بالتجارة. لقد فكرت في مهر "ڤرچينيا". ليس أبقارًا وحسب. فمع المال أيضًا نستطيع بناء منزل من الطوب الأحمر، منزل من منازل البيض، بباب وقفل، سقف من الصفيح سيلمع من بعيد، في الشمس، من الحقل. لن تنام على القش ولكن ستتنام على حاشيات تُشترى من السوق، من عند" جاهيجي"، وسوف يكون للأطفال أيضًا حاشيتهم، واحدة للصبيان الثلاثة، وواحدة للبنتين.وهي سيكون لها صالون لاستقبال الوالدين، الأصدقاء، الجيران. خاصة الجيران. لن نجلس على حصير بل على كراسي سهلة الطي. و، في منتصف الطاولة تتلألأ انعكاسات ذهبية من تورمس كبير، دائمًا مملوء، (ثلاثة لتر!) بالشاي، الساخن دائمًا في انتظار زائرات ما بعد ظهيرة الأحد اللاتي تتذوقن الشاي دافئا ولا يفتهن أن يقلن :" بالفعل ليونيسيا محظوظة بأن لها ابنة حصلت على تعليم عظيم، عندها تورمسا كبيرًا!"

(*) معاهد للروم الكاثوليك

تمطر في مارس. وفي أبريل، تمطر أكثر أيضا. فلتمطر! فلتمطر! ستمتلئ الصوامع وستسمن بطون الأطفال. لمدة أسبوعي الإجازة عادت ڤيرچينيا مجددًا" الأم الصغيرة" وهو ما يمنحه لها بشكل طبيعي موقعها كأخت كبرى. اهتمت بإخوتها وأخواتها، وكانت تحمل المولود الأخير على ظهرها. كانت أيضًا عطلة ليونيسيا. في حفلة السمر، كان لدى الصغار كثير من الأسئلة لطرحها وڤرچينيا كانت تعرض كما في الحكايات غرائب ليسيه نوتردام النيل. لكن في الحقل تقييم ليونسيا ابنتها. لا، لم تغيرها مدرسة البيض. كانت الأولى، قبل شروق الشمس، في تشمير مئزرها والأقدام العارية في الطين، وفي استخدام الفأس بمهارة. لتلاحق المتطفلين، كانت تستطيع التسلل بين سيقان الذرة والتي تحاول الفاصوليا أن تلتف حولها دون هرس هذه، الناضجة مبكرًا جدًا، المنزرعة في ديسمبر. كانت تميز الذرة الرفيعة النابتة عن الأعشاب الضارة التي تهددها وتنزعها، تحجل بين كومات التراب التي تغطي البطاطا الحلوة المنزرعة أسفلها. "آه، قالت ليونيسيا، تلك هي، حقًا ابنتي! إن اسمها ملائم لها: موتاموريزا، لا تبكها."

وهي تنزع نباتات الفاصوليا الضعيفة أبلغت "ڤيرچينا" أمها بأنها ستذهب، من الغد، عند سكولاستيكا، عمتها.

ـ بكل تأكيد، قالت ليونيسيا، ينبغي أن تزوري عمتك. لماذا لم أقل لك ذلك مبكرا؟ سكولاستيكا، ليست أختي، إنها أخت أبيك، تحمل نسبك، إنها (نيوجوسنجك)[*]. قلت لك دائمًا ذلك: يجب أن تكوني دائمًا في الفضائل الجيدة لعمتك. لو غضبت، الويل لنا! العمة، كالعاصفة المهددة. إن لعنتك، كيف سنصبح؟ سوكلاستيكا كانت لك دائمًا الطالع الطيب، وستكون ذلك بالنسبة لشهادتك. لكنك لا

[*] عمتك باللغة الكينية الرواندية

تستطيعين الذهاب إلى عمتك فارغة اليدين. ماذا تظنين بي؟ وأبيك! فلنجمع الفئوس، لا بد أن نذهب بسرعة لتجهيز جعة الذرة الرفيعة "لسكولاستيكا".

كان كل اليوم مكرسا لإعداد جعة الذرة الرفيعة هذه التي من دونها لا تستطيع فيرجينيا أن تمثل أمام عمتها. كانت "ليونيسيا" مشغولة البال. في المنزل، لم يكن موجودًا "الأمامارا"، الذرة الرفيعة السوداء التي تستخدم في تصنيع الجعة، ولا الخميرة، "الأوموزيمبورو". لا بد من الذهاب لطلبها من الجارات. لم تكن موجودة عند بعضهن، بينما الأخريات بشكل واضح لم تردن إعطاءها. على أي حال، اقتضى ذلك نقاشات طويلة بأدب. اجتهدت "ليونيسا" في ألا تظهر فارغ صبرها. كانت العجوز موكانيونجا هي من وافقت، عبر مونولوج لا ينتهي عن بؤسها ومحن الزمن، على التنازل تمامًا عما يفعله إبريق صغير. جعة الذرة الرفيعة، لو كان لدينا "الأماميرا" و"الأوموزمبورو"، لن يأخذ إعدادها وقتا طويلًا جدًا، لا بدَّ من العثور لقنينة النبيذ على قرعة ذات عنق منحني على نحو أنيق، وبشكل كروي رشيق، ويختار لها كصندوق واحدة من هذه السلال الرائعة ذات الغطاء البارز التي جدلته "ليونيسيا" وجملته بأكاليل من أوراق شجر الموز. غلفت الهدية النفيسة في منشفة اليد التي أحضرتها "فيرجينيا" من الليسيه، ووضعت في حقيبة يدها.

توقفت العربة عند سوق "جاسكي". "فرجينيا" التي، بفضل زيها المدرسي، كانت قد حصلت على مكان بجانب السائق توقعت من السيدة الضخمة التي، مع كل منعطف، كانت قد هرستها بطراوتها الدافئة الناجحة، بالنواح والتطفل، أن تقتلعها من المقصورة. المسافرون في الخلف كانوا قد قفزوا على الأرض واستردوا أمتعتهم: حاشيات محافظ عليها ومبرومة بأحبال من السيسال الليفية، ألواح من القصدير، ماعزتين، صفائح مملوءة بجعة الموز أو بالنفط ... بعض الخدم، مسرعين من أحد المحلات، حيث كان يشغل الطابور أحد جوانب ميدان السوق الموحل، يفرغون

حمولة من عبوات زيت النخيل وشكائر الأسمنت التي ينتظرها بفارغ الصبر التاجر الباكستاني.

دخلت "فيرجينيا" إلى المحل، اشترت زجاجة من البريموس ثم في السوق تفاوضت طويلًا مع شيخ متذمر حول قطعة تبغ قطعها من طرف حلقة طويلة مجدولة، وأخيرًا، اتجهت نحو النساء الجالسات على حصيرات متهالكات لتبعن، في أوعية تزينها الورود الحمراء، قطع زلابية ذهبية اللون. اشترت منهن ثلاثًا تحت النظرات المشرقة بالحقد من الصبية الجالسين القرفصاء أمام المتجر، ويمضون وقت التسوق كله في تأمل هذه الملذات الممتنعة عليهم. سارت "ڤيرچينا" في الطريق المؤدية إلى الربوة التي تسكنها عمتها.

كان الدرب الضيق يعقب القمة المطلة على المدرجات الزراعية التي تنحدر حتى أحد المستنقعات المزروع بالذرة الصفراء. منازل صغيرة، مستديرة أو مستطيلة، الأولى مسقوفة بالقش، الأخرى، أقل عددًا، مسقوفة بالقرميد، ترصع المنحدرات المدرجة في كل الروابي والتي نكتشفها ابتداء من الدرب. يختفي الكثير منها تحت الستار الكثيف لأشجار الموز، ولا نخمن وجودها إلا مع الحمم المائلة للزرقة التي تمتدُّ بتكاسل في الأوراق العريضة الملتمعة. في شكل مربعات منتظمة، كانت أشجار البن قد غمرت بالعناقيد ذات اللون الأحمر الكريزي. في الوهدة السبخية، بقيت بعض الخصل من نباتات البردي، و، دون أن تكترث بالفلاحات في العمل، أربعة من طيور الكركي المتوجة كان ترقص رقصة البافانية بلامبالاتها الرشيقة.

في قمة أعلى التلال، كانت ترتفع مباني الإرسالية الجليلة. برج الكنيسة ذو الشرفات ذكر "فيرجينيا" برسم تصويري في كتاب التاريخ: القصر المنيع الذي، طبقا

للدرس المكرر كثيرًا من الأخت "ليدوين"، كان قديمًا، منذ زمن طويل في أوروبا، مسكن النبلاء المحاربين.

كانت الشمس تختفي خلف التلال عندما لمحت "ڤيرچينا" في نهاية الطريق منزل عمتها. سكولاستيكا التي، دون شك، كانت قد تعرفت من بعيد على خيال ابنة أخيها تركت في الحال حقلها، جمعت في سلتها ثمار البطاطا الحلوة التي كانت قد أخرجتها للتو من الأرض لوجبة المساء، صعدت سريعًا وهي تجرى على المنحدر و، قبل أن تصل "فيرجينيا"، انتصبت عند مدخل المنزل. فقط كان لديها وقت لتنزع خصلة من الأعشاب حتى تُخلص قدميها وساقيها من قشرة طينية كانت تغطيهما قبل أن تدلي مئزرها الذي كان قد شمرته حتى ربلتي ساقيها للعمل في الحقل. أخرجت "ڤيرچينا" سلتها من خُرجها ولقد كانت تضعها، كما يجب، متوازنة على رأسها.: أهلا بك، ""ڤيرچينا" "، قالت "سكولاستيكا"، كنت أعرف أنك ستأتين، كنت قد نبهت لذلك. مساء أمس، أخذت النار في الفرقعة وتراقصت الشرارات فوق اللهب. كانت نبؤة الزيارة. حينئذ قلت الكلمات التي يجب أن يقولها المرء في تلك اللحظات: "أراكازا يّزانيّ إيمبامبا. إن الضيف لا يأتي خالي اليدين!" لكني كنت أعرف جيدًا إنه أنت التي كنت ستأتين. أنا نيوجوسين چ، عمتك. ينبغي أن تسمح لك ليونسيا بالمجئ."

أشارت لها بالدخول إلى الفناء ثم تقدمتا الاثنتان معًا حتى المنزل. وقفت "سكولاستيكا" على العتبة وانحنت فيرجينيا بلطف حتى تستطيع سكولاستيكا الإمساك بالقفة. أخذت العمة القفة من بين يديها وذهبت لتضعها، ببطء، وبحذر، فوق الرف خلف الباب، قبل أن تجد مكانها الشرفي بين مماخض وأكواز اللبن.

كان قد حان وقت تقيم تحيات الترحيب. تعانقت سكولاستيكا وفيرجينيا طويلًا متحسسة الأولى الثانية فيما كانت العمة تهمس في أذن ابنة أخيها صلاة الأمنيات: "چيروموجابو، فليكن لك زوجا! چيرابانا بينشي، كثيرًا من الأطفال! چيرينكا، ليكن لك بقرات!چيرا أماشيو، قطيعًا كبيرًا! رامبا، رامبا، حياة طويلة! چيرا أماهورو، لتتالي السلام مع نفسك! كازي نيزي، أهلا بك!"

دخلتا معًا "سكولاستيكا" و"ثيرچينا" إلى المنزل. فتحت سكولاستيكا القفة التي كانت تحملها "ثيرچينا"، أخرجت منها قرع الكالاباش، اختارت أنبوبين من علبتهما على شكل سهام، أعطت واحدة ل"ثيرچينا". جلست المرأتان القرفصاء وجهًا لوجه. كانت "سكولاستيكا" قد وضعت بينهما قرع الكالاباش. مصتا رشفة من الجعة. أطلقت "سكولاستيكا" تنهيدة تبجيل عميقة كانت تعبر عن رضاها.

كان اليوم الأول من إقامة "ثيرچينا" عند عمتها مكرسا بالطبع لجولة احتفالية لزيارات الجيران. مساء، حكت سكولاستيكا لكل العائلة المجتمعة حكاية علامات الشرف التي كانت موضوعها ابنة أخيها طالبة الليسيه. حتى عند روجاجو، الوثني (كانت سكولاستيكا قد استفادت من ذلك بأن تقترح عليه تنصير أطفاله– على الأقل الأولاد– حتى يتسنى لهم الذهاب إلى المدرسة كالأخرين). استفسر مليًا زوج سكولاستيكا من فرجينيا عن دراستها: إنه كان قد قضى عامين في المدرسة الإكليركية الصغيرة وعرض لها بفخر الكتب الثلاثة للحساب، القواعد النحوية، وتصريف الأفعال التي كان يحافظ عليها بعناية كبيرة كشاهد على دراسته العليا. يبدو أن "سكولاستيكا" لم تكن تقدر الأهمية التي يوليها زوجها لابنة أخيها. لحظة ذهابها إلى النوم ، فرجينيا، بعد كثير من التردد وفي نهاية مدورات مرتبكة بها من الخشوع، والاحترام والاعتذارات، عزمت على الاعتراف لعمتها بأنها لن تذهب الغد كما كانت تتوقع إلى الإرسالية. كان ينبغي عليها الذهاب إلى كلوتيلد، صديقة

طفولتها، التي كانت تلعب، ترقص، وتنط الحبل معها، عندما كانت تأتي عند سكولاستيكا. كانت قد علمت أن كلوتيلد كانت قد تزوجت، وأنها رزقت بطفل مؤخرًا. كانت قد وعدت بزيارتها مجرد أن تصل. كانت سكولاستيكا مصدومة إلى حدٍّ ما من الجرأة التي تتوجه بها "ڤيرچينا" إلى عمتها. لكنها حافظت على ألا تظهر ضيقها. على أي حال، فيرجينيا كانت طالبة، في ليسيه معلميها من البيض، ثمة أشياء لا يمكننا فهمها عند أؤلئك الذين يعيشون دائمًا مع البيض." حسنًا، قالت سكولاستيكا، فلتذهبي إلى كلوتيلد، سترافقيني بعد غد إلى الإرسالية. الأب فولجنس يود رؤيتك."

كانت فيرجينيا قلقة إلى حدٍّ ما عندما ذهبت لتودع عمتها قبل أن تنطلق لزيارة صديقتها كلوتيلد. لكن سكولاستيكا لم تبد أي شيء من احباطها ومنحتها أيضًا كفا من الموز الإيجيزوكاري، حلاوة الحلويات، لكلوتيلد وطفلها. وضعت فيرجينيا الموز في حقيبتها وانطلقت في طريق منزل صديقتها. ومع ذلك، مارة على حرجة الكافور الصغيرة، غيرت الطريق و، بعد انعطافات طويلة نوعا ما، وصلت إلى مدق مفاجئ ينحدر باتجاه المستنقع. في وسط المنحدر، كان يوجد منزل روجاچو، الوثني. في الفناء، كان هناك أطفال مهلهلون يلعبون، يجرون، يتشاحنون. تسمروا مذهولين عندما رأوا فيرچينيا تدخل.

أشارات فيرچينا لأكبرهم الذي يبدو أن عمره عشر سنوات.

- تعال، لدي أمر ما لأقوله لك.

تردد الصبي ثم، بعد أن أبعد إخوته وأخواته، اقترب نحو فيرچينيا.

- ما اسمك؟
- كابوا.
- حسنًا كابو، تعرف روبانجا؟ تعرف أين يسكن؟

- روبانجا، المشعوذ؟ نعم، أعرف روبانجا. ذهبت عنده في بعض الأحيان مع أبي. بالفعل أبي فقط من يذهب عند هذا العجوز الخرف. كل الناس تقول إنه مجنون، بل يقال أيضًا إنه سمام.
- أود أن تقودني إليه.
- أنت، عند روبانجا، الطالبة! لديك إذًا شخص ما لتسميه!
- لا أود تسميم أحد. لدي أمر ما أسأله عنه. بخصوص الليسيه.
- بخصوص الليسيه؟ تحدث أمور غريبة في مدرسة البيض!
- لو قدتني إليه، فسوف أعطيك قطع زلابية.
- زلابية؟
- وفانتا.
- فانتا برتقال؟
- فانتا برتقال وزلابية.
- إن تعطيني حقا فانتا برتقال، سوف أوصلك إلى روبانجا.
- فانتا البرتقال والزلابية في حقيبتي. مجرد أن ألمح منزل روبانجا، سيكونا لك. لكن بالتالي ستذهب ولن تقول أي شيء لآحد. هل حُكيت لك قصة زوجة الأب التي تنيم الطفل الذي ليس طفلها في الهون؟ سوف أطلب من روبانجا أن يكافئك بالسعد؛ لكن إن تتكلم، ستكون مثل الولد في الهون: لن تعد تكبر ولن يكون لديك أبدًا لحية.
- لن أقول شيئًا، حتى ولا لأبي، لكن أريني فانتا البرتقال، أود التأكد من أنك لا تكذبين علي.

فتحت فيرچينيا حقيبتها وأظهرت له الفانتا والزلابية.

- اتبعيني، قال "كابوا".

استعادت "فيرچينيا" ومرشدها المدق الذي كان ينحدر بسرعة حتى المستنقع. غطت "فيرچينا" رأسها بمئزرها خشية أن تُعرف، لكن في شهور المطر هذه، قليل من النساء يقتحمن الوادي، و، فضلا عن ذلك، الطريق الضيقة ينتهي بها الأمر لتصل إلى آخر المستنقع تمامًا، هناك حيث كان محصورًا بين المنحدرات الصلبة للتلال، لم يكن قد زرع بعد.

أشار كابوا لفرجة في نباتات البردي الكثيفة.

- بشكل خاص، قال "كابوا"، لا تنحرفي يمينًا ولا يسارًا: سوف تغرسين في الطين ولا تعتمدي علي في سحبك منه، ليس لدي ما يكفي من القوة. ومن ثم، لو لمحتِ جاموس البحر دعيه يمر، لإنه أولًا طريقه، لكن، أضاف كابو اضاحكا، لا تخافي، لا يخرج من بركته إلا ليلًا.

غاصا تحت قبة الأعمدة الشفافة لأوراق البردي. اجتهدت فيرچينا ألا تعير أي انتباه للأزيز المستمر الصاعد من مياه المستنقع الخضراء ولا الهزات اللزجة التي تنفخ الطين الأسود.

- وصلنا، قال "كابوا".

كانت قد انجلت نباتات البردي، وسمحت ببزوغ جزيرة حصوية، حيث بدا الدغل الشوكي، وكأنه قد تاه في المستنقع.

- انظري، قال كابوا وهو يشير لكوخ في قمة الربوة الصغيرة، إنه منزل "روبانجا". لقد أوصلتك إلى حيث تريدين، أعطني ما كنت قد وعدتِني إياه.

أعطته فيرچينيا الفانتا والزلابية وكابوا، جاريا بكل السيقان، اختفى عبر الفجوة المفتوحة في نباتات البردي.

عندما اقتربت فيرچينا من الكوخ، رأت عجوزا صغيرا نصف ممد على مزقة من الحصير. كان متدثرا بغطاء مائل للسمرة ومعتمرا بلبدة من الصوف يعلوها شرابة حمراء. مشبك خشبي يزم منخاريه.

تقدمت فيرچينا مسعلة لتشير لمقدمها. لم يكن يبدو أن العجوز وضع في اعتباره حضورها.

- روبانجا، قالت برقة، روبانجا، أتيت لأسلم عليك.
- روفع روبانجا رأسه ونظر مليًا لفيرجينيا.
- أتيتِ لتسلمي علي، أنت، فتاة جميلة مثلك!. إذًا دعيني اتفرسك، منذ فترة طويلة للغاية لم أر عندي فتاة جميلة مثلك. اجلسي أمامي حيث تُظهر لي الشمس وجهك.

جلست فيرجينيا القرفصاء بفخديها على عقبيها.

- هنا، الآن، أرى وجهك. أتريدين نشوقًا مثلي؟ كما ترين، أملأ منه أنفي. قديمًا كانت السيدات الكبار يحببن أن تضع نشوقًا في الأنف.
- لا، روبانجا، اليوم الفتيات لم يعدن تناوله. تفضل، أحضرت لك هذا، قالت وهي تمد له زجاجة البريموس وقطعة من التبغ المفتولة المغلفة في طرف من لحاء شجرة موز.
- أتيتِ لتحضري إلي زجاجة بريموس، حتى هنا، في غور المستنقع! لست ابنتي. ما اسمك؟ ماذا تريدين مني؟
- اسمي فيرچينيا، اسمي الحقيقي موتاموريزا. أنا في الليسيه. أعلم إنك تعرف الكثير من الأمور عن الأزمنة السالفة. هذا ما يقوله كل الناس في جاسيك. لقد أتيت إليك لتحدثني عن ملكات الماضي.عندما يمتن، ماذا يُفعل؟ أعلم أنك تعرف هذا.

- لا يقال إن الملكة ماتت. بتاتًا. لا تعودي لهذا الكلام أبدًا، هذا سيجلب لك التعاسة. وتريدين معرفة ما نفعله بهن؟
- قل لي ذلك. أحتاج إلى معرفته.

أشاح روبانجا بوجهه، نزع المشبك الذي يزم الأنف، و، ضغط بسبابته على كل منخر، لينبثق منها شبكة مائلة للسمرة. مسح عينيه العمشتين بظهر يديه، حك حنجرته، بصق بعيدًا، ثنى ساقيه ووضع رأسه بين يديه العجفوين. صوته الضاو أولًا والمتهدج تعزز.

لا تسأليني. إنه سر. إبانجا. سر الملوك. أنا، أحد القيمين على أسرار الملوك. أنا أوموبرو. تعرفين اسمي، اسمي يحمل السر. لا أعرف كل أسرار الملوك. لا أعرف سوى أولئك الذين منحت حراستهم. لا يسلم الإبيرو أسرارهم. في عائلتي، لا نسلم الأسرار التي كان قد استودعها الملك ذاكرتنا. أعلم أن هناك من باع أسرارهم للبيض. والبيض كتبوا هذه الأسرار. ألفوا فيها أيضًا كتبًا، قيل لي. لكن البيض، ماذا يفهمون من أسرارنا؟ ذلك يجلب عليهم التعاسة. هناك أيضًا أوموبادري رواندي كان قد تحول إلى أوموبرو. كتب هو أيضًا الأسرار. ذلك يجلب علينا التعاسة. قديما كان الملك يقتله. الباتوا كانوا يثقبون عينيه وينزعون لسانه قبل أن يلقوه في النيابارونجو. حسنًا، لقد حفظت السر الذي جعلني الملك قيما عليه. الآن يسخرون مني. يقول الأبابادري إنني مشعوذ. لقد ألقى بي العمدة عدة مرات في السجن.لا أعرف لماذا. يقال إنني مجنون. لكن ذاكرتي لم تنس شيئًا مما استودع الملك عائلتي. بالنسبة للأوموبرو، النسيان هو الموت. أحيانًا كان يستدعي الملك كل الأبيرو إلى البلاط. يمنحهم أبقارًا، أباريق نبيذ العسل. كانوا مبجلين من كل النافذين في البلاط. لكن كبار الإبيرو، أولئك الذين يعرفون كل الأسرار– كانوا أربعة،

الأكبر، كان مونانيرا- يراجعون ذاكرتهم. كان مثل الامتحان القومي الذي يتحدثون عنه كثيرًا اليوم. التعاسة لمن كان يلتهمه النسيان. لأقل تردد، لأقل إغفال، يعزل، يستبعد لعاره وعار أهله.

"الآن لم يعد ملوك، كبار الإبيرو ماتوا، قتلوا أو أبعدوا إلى المنفى. لذا، على الأوراق الحمراء لشجرة الجهنمية أكتب أسراري. أنظر جيدًا حتى لا يكون هناك أحد يسمعني، عدا الأزهار الحمراء للشجرة التي هي دم ريانجومبي، سيد الأرواح. لكن في كثير الأحيان يتعقبني الأطفال ويختبئون ليسمعوا ما أتلوه وعندما أكتشفهم وأطردهم، يستغيثون وهم يصيحون:" أوموسازي! أوموسازي! المجنون! المجنون!" ولو قصوا على أمهم ما رأوا، ما سمعوا، ستقول لهم:" في الأغلب لا تقولوا شيئًا مما رأيتم، لا تكرروا ما سمعتم، لأي أحد، لا على الجيران، ولا على الأستاذ، ولا على الأومبادري. لا تقولوا شيئًا من هذا. فلتنسوا ما رأيتم، ما سمعتم.لا تتحدثوا عنه أبدا." إذًا، أنت لماذا أتيتِ لترينـي؟ أنت أيضًا، تودين أن أكشف لك عن أسراري؟ تريدين أن تبيعيها للبازونجو؟ تودين وضعها في كتاب؟ فتاة جميلة مثلك، تودين أن تصبي عليك اللعنات؟

- لن أكشف أسرارك. إن قلتها لي، سأحافظ عليها داخلي، في أعماق ذاكرتي، لن أسلمها لأي شخص. إن كنت قد أتيت باتجاهك، ذلك لأنني أعتقد أن ملكة قد أرسلتني، ملكة من الماضي.
- -ملكة من الماضي؟ أرأريت أوموزيموها؟
- ربما. اسمح لي أن أخبرك. لقد ذهبت عند أحد البيض مع صاحبتي. إنه مجنون حقيقي. يعتقد أننا، التوتسي، مصريون، أتينا من مصر. تعرف كل ما اختلقه البيض عن التوتسي. في ضيعته، عثر على مقبرة إحدى الملكات.

أخرج عظامها، لكنه لم يعطها للمتحف. شيد فوقها نصبًا تذكاريًا. لقد شرح لنا أن هكذا كانت تفعل الملكات الزنجيات اللائي كن يدعين كانداس. كان يود أن أكون له الملكة كانداس. أظهر لنا عدة صور. لا أعلم ما ينبغي أن يفعله المرء بعظام ملكة. سمعت يقال إنه قديمًا كان يحرسها ثعبان.لم أر ثعبانًا، لكنني رأيت الملكة. في أحلامي رأيت الملكة. لم أرها حقيقية. إنها كسحابة. مزقة من سحابة تنسل على منحدر الجبل، و، من خلال هذه السحابة، من حين لآخر، تتلألأ الشمس. سحابة مشرقة لكني أعرف إنها الملكة. وفي بعض الأحيان، خلف قناع من قطيرات نور، أميز وجهها. أعتقد إنها تطلب مني أن أفعل أمرًا ما من أجلها. لم تعد تتركني في سلام. أنت من يعرف أسرار الملوك، قل لي ما ينبغي أن أفعله.

- أنت من؟
- أنا عند عمتي، موكاندوري.
- أعرف عمتك. أعرف من تكون عائلتك. أنت من نسل طيب. إنه أيضًا نسلي.لذلك ومن أجل هذا سأخبرك بما أستطيع قوله. لكن لا تكرريه. ولا لأي شخص، فلتسمعيني. حيث إن عمتك التي تكون دائمًا في الإرسالية، وتحمل مسبحة حول عنقها، لن تعرف أبدًا أنك أتيتِ هنا. لا تحكِي شيئًا للبيض الذين يودون معرفة كل شيء ولا يفهمون منه شيئًا. أود أن أبلغ مساعدتك وللأوموزيمو، خاصة أوموزيمو الملكة. أعتقد أن الأبيض أيقظ "أوموزيمو" الملكة من سباتها العميق. عندما نوقظ الأرواح من سكينة نوم الموت يهتاجون. ربما يتحولون في شكل فهد، أسد، هذا ما كان يُعتقد قديمًا.

"، أنا، كنت قد ذهبت إلى جنازة إحدى الملكات. كان ذلك منذ فترة طويلة جدًا. كان لا بد ألا نقول إن الملكة ماتت. كان يقال:" شربت نبيذ العسل."

كنت شابًا. في صحبة أبي. قال لي:"تعال، كل ما ستراني أفعله، سوف تفعله يوما ما. ثم، سأنقل لك السر. ذلك السر الذي منحنا إياه لنحفظه في عائلتنا. أنت أيضًا، ستنقله لأحد أبنائك." كان أبي مخطئًا: لم أفعل قط ما كان يفعله أبي. أبنائي ذهبوا إلى مدرسة البيض. يخجلون من أبيهم. سيموت السر معي. إذًا أنت، أنت شابة، أتيتِ هنا، سأخبرك كيف نصاحب ملكة إلى مثواها الأخير، انتبهي جيدًا وأعتقد إنه سيكون هناك شيئًا ما من أجلك.

" جسد الملكة، أولًا، نجففه.لقد كان الإبيرو يشعلون نارًا تحت سرير راحتها. يقلبونه حتى يجف جيدًا في كل مكان. كنا نلفها في نسيج اللبخ. لكن أبي كان أوموبرو عظيم. فهو كان قد أتى ببقرة من أجل الملكة. كان قد منحني حمل وعاءكبير للبن، إچيكوبا، والذي كان قد تم نحته بكل تروٍّ، ولم يكن قد تلقى أبدًا اللبن. كان أبي يحلب البقرة ليقدم اللبن إلى الملكة. وهنا ينبغي أن تنصتي لي. كان هناك امرأة معنا. فتاة عذراء. لم تكن أوموبرو. ليس هناك نساء أوموبرو. كانت وصيفة للملكة. كانت قد اختيرت لأنها كانت الوصيفة المفضلة للملكة، إنكوندواكازيتها. أعطيتها الوعاء الكبير مملوءًا باللبن. كانت ستحمله للملكة. كان من أجل أوموزيمو الملكة. فهمتي جيدًا؟ كانت فتاة عذراء، الوصيفة المفضلة للملكة، تلك التي تحمل إليها اللبن. بعدئذ ذهبنا إلى المكان الذي كانت قد حددته القُرع من أجل راحة الملكة. استمرت الرحلة أربعة أيام. كل مساء، كنا قد التقينا في كوخ شيدناه لاستقبال الملكة والأبيرو. كان هناك عدة أباريق من البيرة، من سورجو، الموز، من عسل النبيذ تنتظرنا. بعد رحيلنا، نهدم الكوخ. هناك حيث كان ينبغي أن تقيم الملكة، شيدنا كوخًا ومنزلًا. كوخًا للملكة، كوخًا لنا، الأبيرو. انشغل أبي بحلب البقرة وحسب، وأنا بإعطاء وعاء اللبن للوصيفة والوصيفة بحمله فوق سرير الملكة.

بقينا أربعة أشهر بجانبها. تلقينا البيرة وأغذية بوفرة. في نهاية الشهور الأربعة، أتى إلينا موفد من الملك ليقول لنا إن الحداد قد رُفع. رحلنا. تركنا منزل الملكة الذي كان يجب أن ينهار من نفسه. أشجار لبخ المنزل ستصبح أشجارًا كبيرة. سوف تكون عما قريب كغابة صغيرة: كيجابيرو الملكة. ما من شخص يجرؤ على الدخول إليها! ويوجد أيضًا شجرة كبيرة، الجهنمية، وهذه، لم نكن قد زرعناها. كانت كبيرة جدًّا بالفعل. أعتقد أنه بسبب هذه الشجرة كان قد اختار الأبيرو أن يستودعوا الملكة هذا المكان. في موسم الجفاف، يغطيها الزهور: إنها الوحيدة من كل الأشجار التي قبلت أن تستقبل الريانجومبي عندما جرحها الثور حتى الموت، الزهور الحمراء إنها دمها. لم تبق روح الملكة في المقبرة، القرب من عظامها، لقد استقبلت الزهور الحمراء أوموزيمو الملكة. ملعون ذلك الذي يحمل عليها بلطته!

" وصيفة الملكة، لا أعرف ما فُعل بها. لا يمكنني أن أخبرك بذلك. قد تبقى بجانب الملكة. لا تسأليني.

"هذا ما رأيت، هذا ما علمت، هذا ما أستطيع قوله لك. لو أنني كشفت لك كل ذلك، لأنني أعتقده أنك رأيت حقًّا روح الملكة. الأبيض أيقظ أوموزيمها. لا بد من تهدئتها، لا بد أن تجد نعاس الموت. لو أن الملكة طاردتك في أحلامك، ذلك ربما لإنها تبحث عن وصيفتها، تلك التي كانت مفضلة لديها، التي كانت دائمًا بجانبها، التي ساندتها لأن الملكات يجدن صعوبة في السير بسبب ثقل الحلقات المعدنية التي تصل حتى ركبتيها، إنها تبحث عن تلك التي تمنحها اللبن، حتى بعد موتها، عندما نعاس النوم لا يكون قد أنام روحها بعد. لا بد أن يتبدد ظل الملكة عبر ضباب الموت وأن يتوه فيه مجددًا، وإلا ستتمادى في تعذيبك وفي تعذيب الأحياء، سوف

تعذبك حتى تنضمي إليها في بلد الموتى. إن تعودي، سأقول لك إذًا ما عليك أن تفعليه.

- سوف أعود، لكن عِدني بأن تبعد عني هذه الملكة أو تجعلني مفضلة لديها.
- سوف أخبرك بما ينبغي أن تفعليه وسأعطيك ما يلزم لذلك: أنا أوموبرو.
- أتيت متأخرة جدًّا، قالت كلوتيلد، لم أعد أنتظرك، كنت أظن أنك لن تأتي.
- تعرفين ما يكون للعمات، ندين لهن بالاحترام، نستفيد منهن. لقد أعطتني الإذن بأن أتي لرؤيتك، لكن، عند الانطلاق، وجدت كل الأعذار كي تحتجزني أطول فترة ممكنة، طريقة تذكرني بسلطتها. لا تستطيعين أي شيء أمام النية الحسنة لعمتك.

قبل عشية رحيلها، فازت فيرجينيا من سكولاستيكا بالذهاب لتودع كلوتيلد. "لم أكن أعتقد أنك مرتبطة كثيرًا بكلوتيلد هذه، قالتها العمة بنبرة فيها الحسرة والشك، لكن لا أود معارضة فتاة تلقت الكثير من التعليم، تعرفين ما تفعلين، فلتذهبي إذًا لتسلمي على صديقتك العظيمة قبل الرحيل."

بعد أن عبرت غابة الأوكالبتوس(الكافور) الصغيرة، استعادت "ڤيرچينا" طريق المستنقعات.

- سترين ثانية المشعوذ، قالت لها كابوا عندما مرت من أمام منزل "روجاجو". أتودين أن أقودك؟
- لم أعد بحاجة إليك، الآن أعرف الطريق. على الرغم من إنك تسمى "كابوا"، لا أريد كلبًا صغيرًا معي.
- ومع ذلك فلتعطيني شيئًا ما.
- تعرف ما طلبته من أجلك من روبانجا: إن تحدثت، ستصيبك اللعنة. لكن، خذ، سأعطيك مع ذلك قطعة النقود هذه.

- أعدك، لن أقول شيئًا، لم أرك.

غاصت فيرجينيا داخل نباتات البردي مرتجفة من العجاج، الاختلاجات، من المحلقات، من الرواكض التي تملأ المستنقع بألاف الحيوات القريبة جدًا لكنها دائمًا غير مرئية. آلت في النهاية أمام الربوة التي يسكن أعلاها روبانجا. وجدته كما المرة الأولي مقرفصًا أمام كوخه، لكن دون مشبك أنفه.

- كنت أنتظرك، قال روبانجا، كنت أعرف اليوم الذي سوف تأتين فيه. نحن الأبيرو الآخر، نحن إلى حدٍّ ما عرافين، كهان. فعلتِ خيرًا بعودتك، من أجلك، بل بشكل خاص من أجل أوموزيمو الملكة. إنها تعاني الملكة المسكينة. باكتشاف عظامها، الأبيض أيقظها من نعاس الموت ووجدت مأوى في أحلامك، تهيم رؤياك، اختارتك لتكوني خلفها، مفضلتها. إنها تعتمد عليك لتعيدها لبلد الموتى، من أجل أن تكوني برفقتها هناك، لكنك لا زلت صغيرة للغاية لتذهبي إلى بلد الموتى. لذا ذهبت من أجلك هناك حيث لا ينبغي لأحد أن يذهب. ما سأقوله لك، إنه سر عظيم، على الأقل جزء من سر عظيم. إن قلته لك صرتِ أوموبرو، لكنك ستشاركين السر تقريبًا. حينئذ أعددت ما ينبغي أن يشربه الأبيرو لحفظ السر.

ناولها قرع الكالاباش وشفاطة.

- فلتشربي هذا.
- لماذا تريدني أن أشرب هذا؟ ما هذا؟
- فلتهدئي، ليس سُمًّا، على الأقل ليس الآن. ما يجب أن تشربيه، إنه الإيجيهانجو. ما ينبغي أن يشربه كل الإيبرو. اشربي، ذلك سيحميكِ لكن، إن فضحتِ السر، سيتحول الإيجيهانجو إلى سم. المرض، التعاسة سيفترسانك وكل عائلتك. إن دمرتِ السر، السر سيدمرك.

- أثق فيك، ليس لدي اختيار، أعطني مشروبك من قرع الكالاباش. لن أدمر السر.

شفطت فيرجينيا واجتاح سائل لاذع وحارق فمها. أمسكت نفسها عن البكاء.

- حسنًا، أنت شجاعة. والآن، استمعي لي. لقد ذهبت من أجلك ومن أجل أوموزيمو الملكة إلى المستنقعات، إلى مستنقع نيابارونجو الكبير غير المنتهي . ما من طريق ، إن غصتي فيه، سوف تمشين، سوف تمشين دون أن تستطيعي الخروج منه أبدًا. لكنني أعرف كيف أذهب حتى إلى كوخ صغير، ليس كوخًا بسيطًا، حتى لو بدا في مأمن عن الصياد، إنه مأوى التامبور (الطبل). عندما تدخلين إلى الكوخ، لن تري التامبور، لن تستطيعي رؤيته، إنه في الأرض، في أعماق الأرض في الأسفل منك. إنه كارينجا، تامبور الملوك، تامبور رواندا، جذر رواندا، في أحشائه يحتوي كل رواندا. هل سمعتِ هدير كارينجا. عندما كان يدوي كارينجا – لإننا لم نكن نقرع الكارينجا كالطبول الأخرى، إنه هو نفسه من كان يدوي– إنها كل رواندا من كانت تسمعه، يبدو أن كل ما يوجد تحت السماء يسمعه، لذا بقيت النساء فجأة ساكنات منحنيات على فؤوسهن، تجمدت يد الرجال على فوق الإبريق، غير قادرين على غمس الشفاطة فيه، الصياد الذي يشد وتر قوسه لا يستطيع إنزال سهمه، الراعي الذي يعزف على نايه فقد أنفاسه، نسيت الأبقار الرعي والأمهات إرضاع أطفالهن. عندما يتوقف كارينجا عن الهدير، كان الأمر كما لو كان البلد استيقظت من سحر عظيم. لا يستطيع أي شخص أن يقول كم من الوقت رعد كارينجا. لقد طارده أعداؤه، أردوا حرقه، حينئذ توارى في الأرض. لقد بحث عنه أعداؤه، لم يعثروا عليه. ربما ذات يوم ينبثق ثانية من الأرض. لا أحد يعرف متى. لكنه، متواريا في الأرض، يسهر دائمًا على

رواندا؛ لأن أحدًا لم يكشف عما يحتوى بطن الطبل. أنا نفسي أجهل ذلك. لم ير أحد قلب كارينجا. إنه سر الأسرار.

كان صوت روبانجا يرتعش وهو ينطق اسم الطبل. سكت لفترة طويلة.

- حسنًا...إذًا...فلتسمعي جيدًا ما فعلته من أجلك ومن أجل أموزيمو الملكة...لقد نمت بالضبط فوق المكان المدفون فيه الطبل، و، في الحلم، كتشف لي ما ينبغي علي فعله من أجل أموزيمو الملكة. هذا ما ينبغي أن تفعليه من أجل أموزيمو الملكة. لقد كنتِ في مدرسة البيض، لكنك لا زلتِ عذراء. لذا لقد قطعت لك من خشب الجهنمية هذا الوعاء الصغير للبن، وعاء صغير للبن كأنه لطفل. الأموات ليسوا جشعين، بضع القطرات تشبعهم. وسوف أعطيك هذا الغصن وهذه الأوراق. إنها الأموريمبي، الأموريمبي نبات يهدئ الأموات لأنه بلا أشواك. قديمًا، قبل الإرساليين، كنا نضع هذه الأوراق في يد المتوفى. سوف تعودين عند هذا الأبيض مع الوعاء والأوراق.لابد من ملء الوعاء الصغير باللبن، من لبن بقر الإنيامبو، أنصتي لي، ليس لبن أبقار أخرى. لا بد أن يكون الحالب محاربًا شابًّا قويًّا، أنتور. ستذهبين إلى كيجابيرو حول المقبرة. بين الأشجار، يوجد شجرة الجهنمية، رأيتها في الحلم. سوف تغمسين الأوراق قي اللبن وترشين الجهنمية وأنت تقولين:" فلتعودي بلا أشواك، مثل الأوموريمبي." عندما يفرغ الوعاء، ادفنيه أسفل الشجرة. لكن انتبهي جيدًا، قبل ذلك، لا يجب أن يلمس الوعاء الأرض، إن لمس الأرض، سيفقد قوته. فلتحفظي كل ذلك في قلبك.

- أمازلتِ تمثلين دور الإلهة عند هذا المجنون الأبيض؟ سألت فيرجينيا.

- لم لا؟ أجابت "فيرونيكا"، يلبسني زي الملكة المصرية، يعطرني، يبخرني، يصورني، يخطط صورتي، يرسمني، هو، لا يلمسني: أنا تمثاله، دميته، إلهته. أرقص أمام تلك التي رسمها على شاكلتي أحيانًا أشعر، أنا أيضًا، وقد نقلت إلى عالم آخر.

- أعتقد أن جنون "فونتوناي" قد اجتاحك. أنت تخفيني. لا أعرف كيف يمكن أن ينتهي ذلك بك.

- ماذا لدي لأفقده؟ أنت وأنا، أتساءل غالبًا فيما يفيدنا استمرار الدراسة في هذا الكوليج حيث يشكل، كما يقولون، ما يسمى النخبة النسوية. لن نشكل أبدًا جزءًا من نخبتهم. نحصل على أفضل الدرجات، ليس لأننا الأكثر ذكاءً، بل لأننا ينبغي أن نكون الأفضل ونحن نتظاهر أن درجاتنا الجيدة ستحمينا، وأن، بفضلها، يبقى لنا أمل صغير في المستقبل. لكن شاهدي الأخريات: بالنسبة لبعضهن على الأقل، تأتين إلى الفصل، كمجرد إجراء شكلي، كما لو كن قد حصلن بالفعل على الشهادة، كما لو كن بالفعل زوجة وزير، تأتين إلى الفصل كموظف يأتي إلى مكتبه، الدرجات، أمر ثانوي، ليس هذا ما يهمهن. لكن، نحن ماذا سنصبح؟ شهادة التوتسي، ليست كشهادة الهوتو. ليست شهادة حقيقية. الشهادة، إنها بطاقة هويتك. إن وجد في الأعلى توتسي، لن تعثري على عمل أبدًا، ولا حتى عند البيض. إنها الكوتة.

- أعرف كل هذا، وغالبًا ما أقول لنفسي إنه من الأفضل أن أبقى من أجل الزراعة على التل. لكن أمي تتخيل أن الشهادة سوف تنقذ الجميع، أنا والعائلة... إذًا، سوف تذهبين دائمًا عند رجلك الأبيض.

ـ نعم، أرسل البورتريهات التي رسمها لي إلى أوروبا، يقول إنها نالت نجاحًا كبيرًا وكذلك الصور الفوتوغرافية، وأن ذلك جلب له الكثير من النقود، يقول إنني بالفعل معبودته، أني أجلب له الحظ، وأن هذه النقود هي أيضًا من أجلي، وأن جزءًا منها سيخصص لمصاريف دراستي في أوروبا. ويقول أيضًا إنهم الأن في أوروبا يعرفونني، وأنهم ينتظرونني هناك. ربما سأصبح نجمة، كما في السينما. "فونتوناي"، إنه ربما مجنون، لكنه مجنون يحقق هذيانه وقد يحقق أحلامي. هو، يعيش في حلمه. إنه يجند الأولاد الذين لم يؤدوا الامتحان القومي أو كانوا قد استبعدوا من التعليم الأساسي بسبب الكوتة. يود أن يعيشوا كالتوتسي من قبل. كما ألزم أحد قدامى البلاط أن يعلمهم الرقص. إنهم رعاته، راقصوه، أنتوره، محاربوه المصريون. وافق الأولاد، يدفع لهم جيدًا، أعطاهم وعودًا غامضة بأن يجد لهم مدرسة، فيما بعد، لا أعرف كيف. في هذه الأثناء، عقد معهم نقاشات طويلة حول أصولهم المصرية. أخشى أن ينتهي الأمر ببعضهم إلى تصديقه. فهو لم يعد يعرف ما يكونه، أحيانًا زعيم توتسي كبير، أحيانًا كاهن إيزيس. قال لي أيضًا إن الصحافيين سوف يأتون من أوروبا لعمل ريبورتاج حوله وحول معبده. سوف يصورون أيضًا فيلمًا صغيرًا، سوف أقوم بالتمثيل في الفيلم. أقوم بدور الإلهة. سوف أكون النجمة. ليتهم يصطحبونني معهم!

- أنت أيضًا تحلمين. سينتهي جنون "فونتوناي" بجرفك. احترسي جيدًا. لكن، يوم الأحد، أود الذهاب إلى "فونتوناي".

- أنت أيضًا، أتريدين أن تمثلي في جنون الأبيض. تعال، لا ينتظر سواك. يسألني دائمًا أين ملكته كانداس، ليتها تعود ذات يوم.سوف يجن من السعادة برؤيتك تعودين وترتدين زي الملكة كانداس. لقد أظهر لي الزي الذي لا يتنظر إلاك.
- ليس من أجل التنكر في ملابس الملكة كانداس أود الذهاب هناك، إنه لأمر ما لا أستطيع إخبارك به ، لا بد أن أذهب إليه بمفردي، أرجوكِ، لا تغضبي، لا أود أن آخذ مكانك، لا أود أن أكون الملكة كانداس كل أحد، لكنني أحتاج لمرة واحدة أن أذهب إليه بمفردي.
- لا أفهم شيئًا، لكنك صديقتي، أثق فيكي، لا أصدق أنك تودين خداعي، لابد أن ذلك مهم للغاية بالنسبة لك حتى تذهبي عند "فونتوناي"، لكن لديك بالفعل أسرار! الأحد، سوف تذهبين إلى روتاري، إلى الصخور الضخمة، ستكون الجيب في موعدها، سأعطيك رسالة ل"فونتوناي"، سأكتب له أنني مريضة، وأنني أرسلتك مكاني، سوف يكون مسرورًا لحصوله على ملكته كانداس، لكنني مع ذلك لا أفهم شيئًا...
- لا أود أن أقول لك شيئًا، ذلك سيجلب علينا نحن الاثنتين التعاسة.
- ها هي ملكتي كانداس، صاح السيد "فونتوناي" عند رؤية "ڤيرچينا" تنزل من الجيب، ضامة حقيبته إلى صدرها، كنت أنتظرها، كنت أعرف أنها سوف تأتي في النهاية. لكن أين إيزيس؟
- "فيرونيكا" مريضة، لقد كتبت رسالة لك.

قرأ السيد "فونتوناي" الرسالة. ارتسم اضطراب ما على وجهه.

- لا تخشى شيئًا، طمأنته فيرجينيا، ستكون "فيرونيكا" دائمًا إيزيسك، الأحد القادم، ستكون هنا وأنا، اليوم، أود بالفعل أن أكون ملكتك كانداس، لكن بشرط.
- بشرط؟
- هناك في منزلك ملكة حقيقية شيدت هرمًا على عظامها. أخشى ألا تحتمل أن ترى هنا ملكة أخرى. نحن الآخرون الروانديون، وأنت تعرف ذلك جيدًا، نخشى كثيرًا أرواح الموتى: لو أهاناهم، يصبحون مؤذيين. فأنا لست بالفعل ملكة، لو نيرامافوجو رأتني متنكرة في ملابس ملكة، ستدخل روحها هائجة، ستطاردني، وأنت أيضًا، بانتقامها. أولًا لا بد أن أقدم لها قربانًا لتصالحها معنا.
- تردد السيد "فونتوناي" للحظة ليفهم ما كان يعنيه، يخفيه كلام "ڤيرچينا". ثم فجأة بدا يجتاحه حماس.
- نعم، نعم، ملكتي... بالطبع، لا بد أن تبجلي الملكة السابقة، الملكة التي تحت هرم ملكات كانداس، وأنت التي رأيتها على المسلة في مرو، سوف توصلين هكذا سلسلة الأزمان...

أغلق السيد "فونتوناي" العنين كأنه مبهور بالبريق اللامحتمل للرؤية، كانت يداه ترتعش. في نهاية فترة طويلة بدت لفيرجينيا غير منتهية، استعاد هدوءه.

- ماذا تودين أن تفعلي، ملكتي؟ سوف أفعل كل ما تقولين لي أن أفعله.
- يكفي أن تقدم للملكة أنفس الأشياء بالنسبة لرواندي: اللبن. ولديك اللبن الذي يليق بملكة: لبن أبقار النيامبو.

أخرجت "ڤيرچينا" من حقيبتها قدر اللبن الصغير والساق المورق لـ الأومورِيمبي.

- يجب ملء قدري الصغير باللبن، إنه فقط ما يلزم لتهدئة الملكة.
- تعالي، سيملأ رعاتي قدرك باللبن من حلب الصباح، ثم نصعد إلى مقبرة الملكة حتى تكملين واجباتك نحوها.
- سيد "فونتوناي"، قالت فيرجينيا بينما كان هذا يستعد للدخول معها إلى الخميلة الجنائزية، بشكل خاص لا تغضب مني لكن إلى الكيجابيرو، لا بد أن أذهب هناك بمفردي. إنها غابة محرمة. لقد قطعت بلا شك أشجار، لقد حفرت الأرض، لقد كشفت عن عظام الملكة، شيدت فوقها صرحك. أنت أبيض، بل لقد اغتصبت الكيجابيرو. فلو كنت بجانبي، أخشى أن ترفض قرباني. لو المرء أغضب الموتى، قد يخاف من التأذي بشرورها. ربما لأنكم أنتم، البيض، لا يعنيكم هذا، لكن علي سيقع انتقامها. أرجوك، لا تغضبها.
- لكن، كانداس، لا أغضبها، على العكس، أفهم، أحترم الطقوس. عند العودة إلى الفيلا، سترتدين ملابس الملكة كانداس. سأصنع صورتك. إيزيس، كانداس، الأدلة تتراكم. حتى لو وجب اختفاء التوتسي، أنا حارس أسطورتهم. انسلت "ڤيرچينا" بين الجذوع الوعرة لأشجار اللبخ، تجنبت الفرجة التي ينتصب فيه الهرم، محاولة التعرف من خلال كثافة الغابة المقلقة على الشجرة ذات الزهور الحمراء. عبرت فكرة ما ذهنها:" ولو كانت حية الأصلة ترقبني من خلف فروع الأشجار؟" حثت الخطوة ووصلت بسرعة إلى الحد المقابل للغابة:" روبانجا، خدعني، قالت، ليس سوى دجال عجوز." لكن، مجرد أن خرجت من المحمية، لاحظت شجرة منفردة ليست ببعيدة. لم تكن تحمل زهور حمراء (كانت تعلم إنها لا تزهر إلا في موسم الجفاف) لكن بلحائها المشقوق، بأغصانها الملتوية، عرفت الشجرة التي كانت تبحث عنها: الجهنمية، الأومورينزي، الحارس، كما ينبغي أن ندعوها باحترام، تلك التي اختارها

الأبيرو منذ أمد بعيد جدًا لتستقبل أوموزيمو الملكة. لفت حولها، غمست غصن أوموريمبي في القدر ورشت الأومورينزي بقطرات صغيرة من اللبن متفوهة بالعبارة:" عودي بلا أشواك، مثل الأوموريمبي." عندما فرغ القدر الصغير، جثت على ركبتيها أسفل الشجرة وحفرت حفرة بمساعدة حجر مسطح لتدخل فيها القدر الصغير وغصن الأوموريمبي. عندما نهضت، ظنت إنها رأت ارتعاشة أوراق الجهنمية وشعرت إنها لقحت بقوة ندية." الآن، اعتقدت، أوموزيمو الملكة سيكون موات لي، أنا محظيته، لكن محظيته في هذا العالم."

فيما كانا ينزلان باتجاه الفيلا، أسرع الصبي نحوهما وأعلن وهو يلهث جدًا:

- معلم، يا معلم! ثمة زائر: الأب العجوز، ذلك الذي له لحية كبيرة. لقد أتي على الإبيكيبيكي.
- هذا الأب العجوز بينتار، لا يزال يركب دراجته النارية في هذه السن! ها هو يأتي ثانية ليهديني بهذايانات كتابه المقدس. سوف يحاول هدايتك أيضًا. إنه يحاول ذلك منذ عشرين عامًا. لا تسمعي له. لا تنسي أنني من كشف لك من أين تنحدرين، من مرو، لقد تعرفت عليك هناك كالملكة كانداس.

الأب بينتار ينتظر في الصالون الكبير. كان كرسي البامبو الصغير الذي كان يجلس عليه يبدو مستعدًا للهبوط تحت قامته الضخمة. رداؤه الأبيض المبقع بالوحل كان ملفوفًا، مثل صياد بجعبة خرطوشه، بسبحة ضخمة الحبات. لحيته الأبوية الطويلة استهوت كثيرًا فيرجينيا.

- "فونتونـاي"، دائمًـا، أرى أنـك لا زلـت تجـذب الفتيـات الطالبـات إلـى كنـيس شيطانك. إلا إنـه بالنسبة لضـلالاتك، ثمـة مـا يهدئني تقريبًا، إنـه لم يعد لديك العمر ومحظياتك ملكات منذ أربعة الآف عام.
- بـاركني، أيهـا الأب، لأننـي أخطـأت كثيـرًا، أجـاب "فونتونـاي" وهـو يضـحك، تدعى هذه الفتاة فيرجينيا ، أصنع لها بورتريهًا ونرى أنها أيضًا تلك الملكة منذ ألفي عام.
- فتاتي، لا تستمعي ل"فونتوناي"، أجدر بكِ أن تستمعي لي، أنت توتسي أظن، من جهة أخرى عند "فونتونـاي" لا يوجد غير التوتسـي. عندما وصلت إلى رواندا، سيكمل ذلك عما قريب أربعين عامًا، كنا نقسم فقط بالتوتسي، الكهنة،كما البلجيك. كان قد تم تغيير الملك، وسرعان ما عُمد الجديد، كانوا يريدون الأب قنسطنطين. ومن ثم البلجيك والكهنة غيروا شعارهم، لم يعودوا يقسمون إلا بالهوتو، الفلاحون الطيبون الديمقراطيون، خراف الرب المتواضعة. حسنًا، ليس لدي أي شيء لأقوله، أطيع النائب الرسولي، والإرساليون الشباب يصدقون بسذاجة كل ما يحكى لهم عن ديمقراطية الأغلبية. لكنني، ذلك منذ ما يقرب من أربعين عامًا أقوم بدراسته: الكتاب المقدس من ناحية، والتوتسي من الناحية الآخرى. كل شيء في الكتاب المقدس، تاريخ التوتسي كما الباقي.
- بينتارد! بينتارد! لا ترهقنا بنظرياتك العبثية. لا تود فيرجينيا سماع أي شيء. لكن الأب بينتار هو أيضًا لم يعد يود سماع أي شيء. كان قد بدأ، دائمًا يبدو متوجهًا لـ فيرجينيا، في مونولوج لا ينتهي كان يشمل في آن العظة والمحاضرة. دون العودة إلى نوح، يمكننا البدء بموسى. خرج العبرانيون من مصر. شق موسى بعصاه مياه البحر الأحمر، لكن البعض ضلوا الطريق،

ذهبوا نحو الجنوب، وصلوا إلى بلاد الكوش[*]، كانوا التوتسي الأوائل، ثم، كان هناك ملكة سبأ التي كانت هي أيضًا توتسية، لقد ذهبت لزيارة سليمان وعادت لبلدها بطفلها الذي كانت قد أنجبته من الملك العظيم وأصبح ابنها إمبراطور البلاد، حيث كان اليهود توتسيين ويدعون الفلاشا، وفي نهاية كل هذا لم تكن قد فهمت "ڤيرچينا" لماذا كان ينبغي أن ينتهي هذا في رواندا حيث التوتسي كانوا اليهود الحقيقيين مع الأبيرو[*] الذين كانوا يعرفون أسرار كنوز الملك سليمان.

كان السيد "فونتوناي" يضحك، رفع يديه إلى السماء، سكب كأسي ويسكي، وقدم منها لضيفه ذلك الذي رفض بخفوت أكثر فأكثر وقبل في نهاية الأمر. لم تجرؤ فيرجينيا على مقاطعة الأب بينتار لكن، عندما لاحظت أن الشمس في طريقها للغروب، همست في أذن "فونتوناي":

- الوقت تأخر، ينبغي أن أعود إلى الليسيه، لا بد أن تعيدني.
- – معذرة يا أبي، قاطعه "فونتوناي"، لا بد أن ترجع فيرجينيا إلى الليسيه. سأخبر السائق ليوصلها. لكن، فيرجينيا، فلتعديني، لا بد أن ترجعي الأحد القادم: أود أن أراك الملكة كانداس.
- فتاتي، قال الأب بينتار، فلتفكري جيدًا فيما قلت لك. سيعزيكِ هذا عن مآسي شعبك.
- قولي لي، فيرجينيا، هل أديتِ بالفعل دور الملكة عند "فونتوناي". قالت "فيرونيكا ".

---

[*]'مملكة كوش تنسب إلى كوش بن حام واتخذت هذا الاسم إبان تتويج الملك إلارا أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين النوبية الذي غزا وضم مصر.

[*] هم حفظة التراث والطقوس القديمة وأسرارها شفاهيا

- لقد فعلت ما كان يجب عمله. لكنني علمت أيضًا أن التوتسي ليسوا بشرًا: هنا نحن إنينزي، صراصير، ثعابين، حيوانات مؤذية؛ عند البيض نحن أبطال أساطيرهم.

١٠- ابنة الملك بودوان

عند العودة من إجازة عيد الفصح، كانت تود الأم الرئيسة أن تُظهر إلى أين يمكن أن تذهب نزعتها الليبرالية: لقد سمحت للطالبات بتزيين فواصل "حجرتهن ". بذوق واعتدال، كانت قد حددت، وقامت بتوزيع صورًا لنوتردام النيل كي توضع في الأعلى من رأس الأسرة. تأكدت "جلوريوزا" أن جميعهن كن قد وضعن بجانب صور نوتردام النيل صورة الرئيس. في رواندا، تدور كل الأنشطة الإنسانية تحت البورتريه الحارس للرئيس. في أكثر المحلات وضاعة، بورترية رئيس الدولة، المائل للحمرة من الغبار، كان يرعى كل شيء في الأعلى من الرف حيث كانت ترص بعض أجربة الملح، وأعواد الثقاب وثلاث علب من حليب نيدو؛ حتى في أقذر الحانات، كان يتأرجح فوق أباريق جعة الموز وأعلى الخزانة الفريدة لزجاجات نبيذ البريموس. في صالونات الأثرياء وأصحاب النفوذ، كانت تتنافس في الحجم، ضخامة بورتريه الرئيس كانت تشهد على الولاء السرمدي للموظف أو التاجر تجاه محرر أغلبية الشعب. يالتعاسة ربة المنزل التي كانت تهمل في أن تُخلص بتفانٍ كل صباح بورتريه القائد المحبوب من أي ذرة تراب.

فقط "جروتي" من تجرأت على انتقاد الصورة المبجلة:" أحب رئيسنا كثيرًا، كانت قد أشارت له، لكن، على الأقل بالنسبة للصورة كان يمكنه أن يرتدي كرئيس، بارتدائه قبعة الكيبي المستديرة، وبزة رسمية جميلة وكتافات، وكثيرًا من الشرئط على الأكمام ومجموعة من الأوسمة على البدلة، هكذا يكون مثل كل الرووؤساء، رئيسنا، بحلته البسيطة، يبدو كدارس اكليريكي." من حولها، بدا وكأننا لم نسمع أي شيء. كنا ننتظر رد فعل "جلوريوزا". تلك التي ردت بعد طول انتظار وأدهشنا اعتدالها:" لا

يحتاج رئيسنا بزة رسمية ليتوجه إلى الشعب، فهو، كل الناس تفطن له، إنه ليس مثلك ومثل والدك الكولونيل." السخرية من طريقة تحدث أهل الشمال، الذين كانوا يقطنون في سفح البراكين والذين كانوا يجاورون الغوريلات، كانت تشكل جزءًا من المزح التي لم تكن تصدم كثيرًا بقدر ما كانت مقبولة بالتواطؤ. لم نعرف لماذا لم تعبئ "جلوريوزا " ترسانتها من التهديدات المعتادة: فضح الأغراض المخربة بشكل واضح تمامًا من سلطات الحزب، الأسوأ أيضًا، من أبيها... يستنتج من ذلك ثاقبو البصر أن، حتمًا، العسكريين، وخاصة عسكريي الشمال، أصبحوا بالفعل نافذي الكلمة، وأن الرئيس نفسه لا بد أنه كان يحسب لهم حسابًا. فجأة بدت لهن أساليب "جروتي" إلى حدٍ ما يسارية ولغتها إلى حدٍما خشنة. تنافسن في عبارات التهكم المعتادة، وأكثروا فيما يتعلق بذلك من علامات الشفقة والانتباه، فيما كانت "جروتي" تستقبل ذلك بترحاب مستخف.

اتضحت الصعوبة الشديدة بالنسبة للطالبات في تزيين فواصل مهاجعهن، كما كانت قد طلبت منهن الأم الرئيسة. عُلقت بالفعل بعض الألواح الصغيرة المصنوعة من الخوص والمزينة بالموتيفات الهندسية التقليدية، مفارش موشاة بأزهار ساذجة، صور للأباء أو للأسرة كاملة ألتقطت بمناسبة زواج الأخت أو الأخ الأكبر. لكن الطالبات لم تكن راضيات عن النتيجة: هكذا كان الأمر يشبه مجرد فتاة عصرية،" متطورة"كما كان يقال في فترة الاستعمار، كان ينبغي أن تزين حجرتها.ما يجب أن يكون، كن يعرفن ذلك، كانت هناك صور لشباب ذي شعر طويل، مغنيين بنظارات "مضادة للشمس"، كما كان يقال، فتيات شقراوات، شقراوات أكثر من مدام ديكر، فتيات شقراوات بشعور طويلة يرتدين المايوهات على الشاطئ كأولئك اللاتي كنا نراهن في أفلام المركز الثقافي الفرنسي. بكل تأكيد، مثل هذه الصور، لم تكن موجودة في ليسيه نوترادم النيل، إلا ربما، اقترحت "" إيماكوليه"، عند المدرسين

الفرنسيين الذين كانوا شبابًا وعزابًا، خاصة عند السيد لوجران الذي كان له لحية ويعزف على الجيتار. قررت "جلوريوزا " إن "فيرونيكا " هي من كانت ستذهب لتطلب من السيد لوجران الذي كان يريد حقا إمداد تلاميذاته بالمجلات: "فتيات التوتسي مثلك، يستطعن التعامل في ذلك مع البيض، مرة واحدة، لن يكون ذلك من أجل الكلام بشكل سيئ عن الجمهورية."بدا أن السيد لوجران يبالغ في مديح طلب "فيرونيكا " و، بداية من اليوم التالي، أحضر إلى حصته حزمة من المجلات: اعداد من مجلة "باري ماتش" ومن "سالو ليه كوبان". "إن أردتن المزيد منها، أضاف، تستطعن أن تأتين لطلبها من مسكني. "اقتنع بعضهن أن الدعوة كانت موجهة لهن خاصة. تم تصفح المجلات بعصبية. كان يلزم مفاوضات طويلة لاقتسام وتقطيع الصور. تنازعن بقوة على صور "جوني هوليداي"، "البيتيلز"، "كلود فرانسوا"، ومن الصور النسائية، صور "فرانسواز هاردي" وجيتارها اللذان بديا حزينين جدًا، تينا تيرنر وماريام ماكبا جذبتا الانتباه بسبب ألوانهما، لكنها "نانا موسكوري" هي التي حصلت على أكبر قدر من النجاح بفضل نظارتها. كلهن أردن صورة "بيرجيت باردو". لم يكن يوجد منها ما يكفي. وزعتها "جلوريوزيا" بين محبوباتها. فقط بعضهن، بشيء من التحفظ والورع الحقيقي التزمنا بذلك فيما يخص بورتريه البابا وبعض مناظر السادة، منظر كنيسة "سان بيير" في روما أو منظر كنيسة "ساكريه كور" في باريس.

عندما استأنفت الأم الرئيسة تفتيش "الحجرات"، لم تستطع كبح كلمة" يا إلهي!" التي كانت تعبر في آن عن ذهولها وسخطها وغضبها.

–انظر ذلك، قالت للأب "هيرمينجيلد" الذي كان يصاحبها، لقد ظننا أننا نحمي بناتنا من خبائث العالم، والعالم كسر عنوة أبوابنا. لكني أخمن من منحهم هذه الفظاعات: سوف أخبره عن ذلك بكلمتين صادرتين من القلب.

– الشيطان، أجاب قس المنشأة، يتخذ كل الوجوه. أخشى أن تكون رواندا بلدنا المسيحي مهددة بالفعل.

وجهت الأم الرئيسة تعنيف قاسي للطالبات وحرمتهن من الخروج يومي أحد، عدا بطبيعة الحال أولئك اللاتي كن قد علقن صورة البابا. أمرت البنات بنزع هذه الصور الفاحشة بأنفسهن، وأن يسلمنها إلى الأب "هيرمينجيلد".

إلا أنها، وحتى تثبت بعض من النزعة الليبرالة، أعفت من التحريم صور "أدامو" و"نانا موسكوري". لاحظنا أن القس كان يمزق علانية صور المغنين لكنه ادخر صور "بيرجيت بوردو" وحاول جاهدًا أن يدس بعضها خفية في جيوب جبته.

لم يُعر كل من الأم الرئيسة والأب "هيرمينجليد" بشكل واضح أي اهتمام لمضجع "جوديف". ومع ذلك كانت زميلاتها محتارات من التزيين التي كانت قد علقته. فضلًا عن ذلك، الأيقونات التي تتفق مع اللائحة للعذراء وللرئيس، لم تُضمن إلا صورة واحدة: البورتريهات، من الرأس للقدم، لملك وملكة بلجيكا، "بودوان" و"فابيولا". فضلا عن ذلك، لوحظ أن البورتريهات الملكية لم تكن صورًا مقصوصة من مجلات بل صورة فوتوغرافية حقيقية. عندما سألنا "جوديف" لماذا كانت قد اختارت هذه الصورة وكيف كانت قد تحصلت عليها، كانت ترد بشكل فيه غموض، وتكتفي بأن ترد أنها لا يمكن أن تقول أي شيء، وسيُعرف عما قريب؟ "جلوريوزا"، المغتاظة، من عدم معرفة أي شيء، حاولت أن تكسر حقيبة "جوديف" فيما كانت هذه ضمن المجموعة المكلفة بتنظيف مصلى الكنيسة. لكن الأقفال قاومت.

فيما بعد بعدة أيام، جمعت الأم الرئيسة في قاعة الدراسة الكبرى كل التلاميذ وكل المدرسين. عندما صعدت على المنصة، كانت تبدو متأثرة للغاية. لقد لفت الطالبات بنظرة أمومية على غير العادة:" بناتي، هكذا أعلنت، سوف نعيش حدثًا

عظيمًا، حدثًا تاريخيًا، لا أخشى الإخبار به. مدرستنا، ليسيه نوتردام النيل، سوف تنال عظيم الشرف باستقبال ملكة البلجيك، الملكة "فابيولا". سوف يأتي الملك "بودوان" وزوجته في زيارة رسمية لرواندا. فيما سيتناقش الرئيس والملك في السياسة والتنمية، سوف تزور الملكة ملجأ السيدة الأولى في كيجالي، بل أرادت أن تثني على وتشجع سياسة الحكومة الرواندية للنهوض بالمرأة التي تمثل مدرستنا نموذجها الأفضل. تعرفن كرم وورع الملكة "فابيولا". سوف تأتي إذن لزيارة مدرستنا. لا بد أن نخصها باستقبال يظهر لها صورة رواندا كما هي في الحاضر. رواندا المسالمة والمسيحية. سوف يصاحبها وزيرة النهوض بالمرأة، وربما السيدة الرئيسة، لا نعرف بعد. سوف تبقى لمدة يوم أو نصف يوم، لم أستلم جدول المواعيد النهائي.. على أي حال، لدينا شهر حتى نستعد لهذا الحدث المهيب للغاية. سوف نقلل الدروس إذا لزم الأمر لذلك. اعتمد عليكن جميعًا، وعليكم أيها السادة الأساتذة، لتساهموا بحمية في نجاح هذا اليوم الذي سيبقى محفورًا للأبد في ذاكرتنا."

البهجة الصاخبة التي غزت الليسيه أثناء الاستعدادات للزيارة الملكية سُر بها كل التلاميذ. كان الأمر مجرد روحات وغدوات، صرخات، هرج ومرج، ضجيج الخدم الذين يمشطون الردهات، قاعات الدرس، حجرة الطعام، المصلى. نقلت طاولات الكتابة من قاعة الدرس الكبرى، بُسط على الجدران قماش مصور عليه صور الرئيس وملك البلجيك. توقفت الدروس فجأة بسبب الأخ "أوزيل" الذي أتى للبحث عن أعضاء الجوقة من أجل الإنشاد، ثم لاحت مدرسة اللغة الكينية الرواندية التي كانت تختار الراقصات. تقريبًا طوال اليوم، تصل وفود من العاصمة لتعطي توجيهات، لتؤكد تسريع الاستعدادات، والبت في التدابير الأمنية. أرسل وزير التعليم القومي مدير مكتبه، ورئيس الأساقفة أحد كبار نوابه، وسفير بلجيكا ملحقه الأول. أتى رئيس البروتوكول الرئاسي شخصيًا وتحاور طويلًا مع الأم الرئيسة والعمدة. هذا

الذي لم يعد يترك المدرسة بل كان يلهث، يمتص في الردهات والسلالم، من زوار لزوار، مريدًا التفوق بروتوكوليًا على الأم الرئيسة. عند الوصول المباغت لإحدى عربات "اللاند روفر" أو إحدى الحافلات العسكرية، يهرعن الطالبات إلى الشرفات وكن موجودات هناك بشكل دائم ليتعرفن، من بين الزوار الذين ينزلون من العربات الرسمية، على أخ، عم، ابن عم، جار، صديق. من دون انتظار الاذن، على الرغم من التهديدات المتخاذلة للمدرس، كن يغادرن الفصل من أجل الذهاب لتحيته.

كانت المدرسة تطن بأنشطة مخالفة للمألوف. من أجل إظهار التقدم في مسألة تحرير المرأة، قُرر– مع التجاوز عن التحفظات المفرطة للأم الرئيسة وبناء على إلحاحات وزيرة الإعلاء النسائي– تقصير تنورات الزي المدرسي. أرسلت نفس الوزيرة بلوزات بيضاء بدلًا من القديمة ذات اللون الأصفر. كانت تقريبًا شفافة، ما بدا إنه نال استحسان الأب "هيرمينجليد"، على الرغم من التحفظات التي كان يعلنها أمام الأم الرئيسة. كل فترة ما بعد الظهيرة كانت مكرسة لبروفات القياس وخياطة زي البوليرو شعارات بألوان أعلام رواندا وبلجيكا، على اليمين، شارات بلجيكا، وعلى اليسار، فوق القلب شارات رواندا. يجدل بنات السنة الثانية، ليقدمنها للملكة، سلال عليها يزركشن بألياف حمراء وسوداء تحيا الملكة، تحيا الرئيس، فلتدم الصداقة البلجكية الرواندية. خضعت الأغاني التي ألفها الأخ "أوزيل" لرقابة العمدة وخاصة "جلوريوزا"، عين الحزب. لقد وجدت أن المديح الملح للملوك والملكات لم يكن مناسبًا في الجمهورية، في بلد كان قد تحرر، منذ قليل، من حكم البامي الاستبدادي وكل الطبقة الأرستقراطية. اقتُرح على المؤلف أن يحتفى بفأس الفلاحين والتنمية السلمية للبلد التي صنعت للشعب البسيط بفضل حكمة الرئيس، وبالطبع،بمساعدة البلجيكيين، و، إن كان هناك إصرار، باظهار حماية إيمانا والعذراء الطيبة. نفذ الأخ

"أوزيل" على أفضل ما يكون، لكن الطالبات رفضن بكل وضوح حفظ النشيد الوطني البلجيكي الذي اقترح أن ينشدوه بعد النشيد الوطني.

كان قد أُستنفر شعب نيامينومبي لاستقبال الملكة. بكل تأكيد، لم يكن لديها الوقت لتذهب حتى المقاطعة التي تقع على بعد ثلاثة كيلو مترات من الليسيه، لكن كل السكان كانوا يشكلون حرس شرف على حافة الطريق ملوحين بأعلام رواندية وبلجيكية صغيرة كان من المتوقع تسليمها. كان يهتف الحشد للموكب بصيحات من قبيل" فابيولا أويي! الرئيس أويي!" كان قد حظر كلمة الملكة، أوموماميكازي، خشية أن توقظ عند البعض الحنين لما عفا عليه الزمن. الإماجاندا، الأعمال المشتركة، كانت قد كُرست لردم أخاديد المدق. زُرعت على كلا الجانبين أغصان شجر الكافور، شجر الموز التي تزين كالمعتاد ممرات الطريق، حيث تمر المواكب الرسمية والتي من النادر نموها على هذا الارتفاع. مفرزة عسكرية أقامت مخيمًا في محيط الليسيه وضاعفت عدد الدوريات. يؤمل ألا تُظهر الملكة رغبتها في مد زيارتها حتى منبع النيل (بالتأكيد لم يكن هذا في البرنامج) لأنه لم يكن هناك من الوقت ولا من الوسائل لترميم التمثال مزري الحالة نتيجة سوء الأحوال الجوية.

كان لا يزال موقف "جودليف" غامضًا. كانت تتابع بسيماء عليمة استعدادات الزيارة، وشاركت فيها بأقل قدر ممكن ولم ترد على أي سؤال. مما أثار حفيظة زميلاتها بشكل هائل. ومع ذلك، أكثر من كل الأخريات، كانت تترقب وصول الحافلات إلى فناء الليسيه وتقفز مع كل اصطفاك للبوابة. لوحظ إنها كانت قد رتبت كل أمتعتها في حقيبة وكأنها كانت تستعد لمغادرة الليسيه. أسبوع قبل اليوم العظيم، كانت قد أستدعيت "جودليف" إلى مكتب الأم الرئيسة. كان ينتظرها كل تلميذات الفصل النهائي عند الباب وأصطحبنها حتى"حجرتها". ذهبت تجلس على السرير،

بعد فترة صمت طويلة؛ نظرا لأن زميلاتها قررن عدم تركها، انتهى الأمر إلى أن تتحدث:

- اسمعن، سوف أودعكن، سأرحل وبلا شك لفترة طويلة.

- أين تذهبين؟

- إلى بلجيكا، سأرحل مع الملكة.

همهمات من الاندهاش جابت المستمعين.

- ترحلين مع الملكة؟

- إنه سر. سأخبركن به، لكن لا يجب إفشاؤه. لا أحد. خاصة الفصول الأخرى. فلتقسمن لي.

أقسمن لها بأشد الوعود صرامة أن يحفظن السر.

- تعرفن أن "بودوان" و"فابيولا" ليس لديهما أطفال. لن يتمكنا من إنجاب أطفال. لا أعرف إيا منهما السبب.إنه لأمر محزن ألا يكون هناك أطفال، وأكثر بالنسبة لملك وملكة.أصابهما اليأس. لذا فكر الرئيس- بما أنهما أتيا إلى رواندا، وأنه من دعاهما، أن أروع هدية تقدم لهما، إهداؤهما طفلًا. تعرفن جيدًا أن هذا ما ينبغي فعله عندنا. أسرة بلا أطفال، ليست أسرة.لا يمكن تركها في هذه المصيبة.أعظم المصائب! إذن أخ، قريب، جار لديه الكثير من الأطفال لا بد أن يتنازل لها عن أحدهم. إذا لم يفعلوا ذلك، فلنحتقرهم، نتمني الأذى لهم. إن قدمت أحد أطفالك، بطبيعة الحال سينضم إلى أسرة أخرى، لكنه سيبقى مع ذلك طفلك. أنت أنقذت أسرة، ستدين لك دائمًا بالاحترام والامتنان. هذا ما أراد فعله رئيسنا: يمنح ابنته من أجل رواندا.

- وأنت من سيمنحها لملك البلجيك؟ في سنك! كبيرة كما أنت! مع الدرجات التي تحصلين عليها! ترين نفسك كابنة لـ "فابيولا"!

- لا، سيمنح إحدى بناته، "ميرسيانا"، الصغرى. سنها تسع سنوات ومن ثم بريئة للغاية، تشبه أمها. تبدو تقريبًا بيضاء.

- وأنت إذًا، ماذا تفعلين هناك؟

- أنا، أصاحب "ميرسيانا" إلى بلجيكا. لا بد أن يكون معها شخص ما يمكنه تحدث الكينية الرواندية حتى لا تشعر بالحنين لبلدها ويطهو لها ثمار الموز أو البطاطا إن أرادت منها الكثير.

- آه! ستكونين خادمتها! هنا نوافق على ذلك!

- أنتن تدعين الذكاء، لكنكن لا تعرفن عنه إذًا أي شيء. كل الملكات والأميرات لديهن وصيفات، حتى عندنا قديمًا. هن سيدات عظيمات، بنات من عائلات كريمة، من طبقة النبلاء الراقية المختارات. يطلق عليهن سيدات الرفقة. إنه لشرف عظيم أن تكوني رفيقة ملكة أو أميرة.

- ولماذا اختارك أنت الرئيس؟

- أبي، لا يعمل بالسياسة. إنه رجل مصرفي، كما تعرفن. إنه ثري. يعرف الرئيس منذ فترة طويلة جدًا. كانا معًا في الفيلق ماري. محل ثقته. قال له الرئيس:" مع واحدة من بناتك، المتعلمة في أفضل مدرسة في رواندا، أنا مطمئن، سترعى صغيرتي ميرسيانا جيدًا. أفعل ذلك من أجل رواندا. بالتخلي عن طفلتي، أنقذ رواندا من الفقر: عوضًا عن ذلك سوف يضطر البيض لمساعدتنا. نحن جزء من العائلة.إنه أكثر من عهد الدم. سوف يكون لـ"ميرسيانا" أبوان، أنا والملك "بودوان"،

نحن مرتبطين بهذه الطفلة المشتركة." لذا لم يتردد أبي: لقد تم تعييني لمرافقة ابنة الرئيس. على أية حال، أنا ولدت في بلجيكا، و، على الرغم من أنني لا أتذكر ذلك جيدًا، ربما لأنني بلجيكية إلى حدٍ ما على أي حال، وهذا أفضل بالنسبة للتبني. الآن، فلتتركوني، علي أن أنتهي من حقيبتي.

على الفور يجتمع كل الفصل في المكتبة لمناقشة تصريحات "جودليف". وحتى لا يستطيع أي شخص فهم أي مقطتف من النقاش، قررن أن يغلقن على أنفسهن بهدوء في المخزن الاحتياطي. في الحال أعلنت "جورتي" عدم تصديقها أي كلمة مما قالته "جودليف"، التي كانت تختلق قصصًا. لو أن الرئيس سيمنح بالفعل ابنته، كيف يمكنه اختيار البنت الأقبح والأغبى في الليسيه لمصاحبتها؟ إلا إذا كان والدها قد دفع من أجل ذلك أو إنه قدم أي وعد. لم تستطع "جلوريوزا" تمالك سخطها.

– أنت تسبين ثانية رئيسنا. قد يكون عاقبة ذلك سيئة بالنسبة لك. قالت لها "جودليف"، منح ابنته لإنقاذ بلدنا. ربما لن تكون "ميرسيانا" الملكة لكنها ستكون أميرة في بلجيكا. سيتزوجها أمير. سيضطر البلجيك بالفعل لمساعدتنا. سيكون من المخجل لهم أن بلد إحدى أميراتهم لا تزال فقيرة جدًا. و"جودليف" رواندية حقيقية، لا يمكن أن نخطئ ذلك، ذلك لا يقيم بالدرجات، وليس كذلك بالأقل جمالًا، إنها سوف تمثل بالفعل أغلبية الشعب.

– لكن، قالت "موديستا"، لو أن "فابيولا" عقيم، لماذا لا يتخذ "بودوان" امرأة أخرى؟ ذلك ممكن بالنسبة للملوك؛ لأنه يجب أن يكون لهم خلف على نحو حتمي.

– "بودوان" كاثوليكي متزمت، لا يمكن أن يُطلق.

– دائمًا يمكن ترتيب ذلك مع البابا. ذلك يُصنع من أجل الملوك. ليسوا أناسًا بسطاء. يدفعون، يمنحون الرشاوى والبابا في النهاية يقول إن الزواج لم يكن غير صحيح.

– اسمعن، قالت "إيماكوليه"، سوف أوضح شيئًا ما: ليست "فابيولا" العقيم، إنه "بودوان" العاجز.

– أوه! من أين تخرجين هذا؟ ليس عليك عار! لو أن أمك أسمعتك هذا!

– سمعته يقال من أبي. إنه يحكي ذلك كثيرًا لأصدقائه. سمعته يحكيه فيما كنت أقدم لهم البريموس في الصالون. كان ذلك يضحكهم كثيرًا. أبي، كان في كينشسا يوم استقلال الكونغو، في هذه الفترة، كانت لاتزال "ليوبلد فيل". لا أعرف إذا ما كان قد رأى كل شيء أو سمعه يقال، لكن هذا ما يحكيه.

"وصل الملك "بودوان" إلى المطار. كان واقفًا في سيارة مكشوفة، أمريكية ضخمة كالتي نراها في الأفلام. كان "بودوان" منتصبًا، كبيرًا جدًا، صلبًا للغاية، لم يكن يتحرك، يبدو كأنه تمثال. كان يرتدي زيًا رائعًا، أبيض للغاية وكيبي (*) كبيرة وعلى جانبه، كان يوجد سيفه، المذهب بأكمله، سيف الملك."كاسافوبو"[*]، كان يبدو ضئيلًا للغاية. كان هناك حشدًا كبيرًا على جانبي الطريق وكثير من رجال الشرطة. من البيض. حينئذ خرج شاب من الحشد. كان شابًا أنيقًا، يرتدي بدلة ورابطة عنق. نجح، لا نعرف كيف، في تخطي حاجز رجال الشرطة، هرول وراء سيارة الملك التي كانت تسير على نحو بطيء للغاية. وهوب، فجأة أمسك بالسيف، سرق سيف الملك، لوح به بيديه من فوق رأسه ليوضح جيدًا إنه قد استولى على سيف ملك البلجيك. واصلت السيارة التقدم. كان لا يزال الملك منتصبًا، جامدًا، من دون حركة، وكأن

(*) أول رئيس للكونجو ليوبلدفيلد قبل أن تصبح الكونجو الديمقراطية

شيئًا لم يحدث، كما لو كان لم يبصر أي شيء. يبدو أنه كان مسحورًا. بعد قليل قبض على رجل مع سيف الملك. لكن كل الناس قالت إنه ليس هو من سرق سيف الملك. اللص الحقيقي، كان ماهونجو، ليس إنسانًا، روحًا، أوموزيمو، شيطان كما كانت تقول الأم الرئيسة. ماهونجو، أياً كان إنسان أو روح، أو إنسان مسته روح ماهونجو، إنه ساحر كبير، سمم سيف الملك، وضع بعض العقاقير على السيف. أعيد السيف إلى "بودوان" وأصبح "بودوان" عاجزًا. فُعل كل شيء لمعالجته. استشار كل أطباء أوروبا وأمريكا، لكن أدويته كانت أقوى. لم يستطع الأطباء البيض فعل أي شيء. حتى أُستدعيّ إلى بروكسل سحرة من تنزانيا، البوها(*)، لكن أعتقد أن أبي يبالغ هنا. الأكيد، هو أن بودوان لن يكون لديه أطفال أبدًا. وهذا هو ما يحكيه أبي.

تبنى كل الفصل حكاية "إيماكوليه". أوجزت "جروتي" رأي الجميع:

- نعم، يجب دائمًا الحذر. هناك دائمًا سمامين يسعون لجعلك عقيمًا. أعرف بعضهم. لا تقتربن كثيرًا من "فابيولا"، فهي بلا شك مسممة، هي أيضًا، وربما تكون مُعدية.

الأيام التالية، تساءلنا عما إذا كانت سيارة الرئاسة ستسعى إلى "جوديف" أم سترحل هي من بعد الزيارة في صحبة الملكة. لم تعد "جوديف" تتحدث لأي شخص واكتفت بالإجابة من خلال ابتسامة متعجرفة لأولئك اللاتي يوجهن لها الحديث.

لقد كانت "جروتي" مقتنعة دومًا بأن كل هذا لم يكن سوى أكاذيب وتباهٍ. لم تتلق "جلوريوزا"، أي توجيه من الحزب، بقيت في تحفظ حذر تمامًا مشيرة إلى إنه، في نطاق المصلحة السياسية لرواندا، قد نختار شخص ما أكثر دراية "سياسية "لينصح "ميرسيانا" التي كنت شابة رائعة. لم تكن "جوديف" تدعو إلى "غرفتها" سوى

"إيماكوليه". لقد كانت تعتبر "إيماكوليه" في كل الليسيه بمثابة وسيط الأناقة وكانت مشهورة بمعرفة أسرار جمال البيضاوات.

حسب ما روته لباقي الفصل، كانت "جودليف" قد طرحت عليها أسئلة حول المكياج وتصفيف الشعر: كانت قد لاحظت أن أظافر مدام "ديكر" حمراء، كانت تريد معرفة كل شيء حول ملمع الأظافر وعما ينبغي عمله لأظافر القدم وألا يوجد كذلك ملمع للشفاة؟ والعطور، ليس الأماراشي، تلك التي يمكن أن نجدها عند الباكستانيين، بل الحقيقية، تلك التي ترشها البيضاوت، والتي تأتي من باريس، ماذا كانت أسماؤها؟ بل كان يوجد بشكل خاص منتجات تبيّض البشرة التي يجب أن تكون أكثر فاعلية من أنابيب "فينوس دو ميلو " التي كانت تشترى من السوق، لقد رأت، في المجلات التي كان يمنحها إياها، مسيو لوجران، سودوات، بلا شك أمريكيات كن شبه بيضاوات وكان لديهن شعر طويل ناعم، وذو سواد لامع، كانوا هناك أيضًا، تتساءل "جودليف" كيف أصبحن شقراوات.

كانت "جودليف" قلقة للغاية. كيف سيكون مظهرها بين كل هؤلاء السيدات اللاتي كن بيضاوات، شقراوات ومعطرات. ما كانت تحكيه "إيماكوليه" جعل الفصل يضحك كثيرًا لكن، يومين قبل زيارة الملكة، أتت سيارة ضخمة سوداء، في الصباح الباكر، تبحث سرًا عن "جودليف". الطالبات اللاتي كن يهرعن بملابس النوم لم تستطعن ملاحظة المرسيدس التي كانت تعبر البوابة و"جودليف" التي، عبر الزجاج الخلفي، كانت تلوح لهن بقوة. بعضهن قلن إن ذلك بمثابة الوداع، وأخريات قلن إن ذلك سخرية.

حمل نفس هذا النهار أيضًا خيبة عظيمة. أتي العمدة اللاهث ليخبر الأم الرئيسة بالتعليمات التي تلقاها تليفونيًا من الرئيس. اجتمعت الأم الرئيسة المدرسين

وجميع طاقم العاملين لاطلاعهم على الترتيبات التي يتعين اتخاذها. ومن ثم، بلطلف يعرف الطلاب. جدول مواعيد الملكة كان فوق طاقة "فابيولا". كان ينبغي، فضلًا عن دار أيتام السيدة الرئيس، أن تضع منحة في مركز جاتاجارا لاستقبال الأطفال المعاقين، زيارة دار رهبات أخوات Benebikira Maria (بنات مريم). بكل تأكيد، كانت ليسيه نوتر دام النيل بشكل دائم في برنامجها، لكنها لا تستطيع تكريس أكثر من الساعة لها. لم تكن تود بأي حال إلى الإخلال بجدول التلاميذ، لكنها أصرت على الحضور، على الأقل لبضع دقائق، حصة لتشجيع التلاميذ ولتقدير الجهود التي تبذلها الحكومة من أجل تعليم المرأة. إذًا كان يجب اقتضاب خُطب الترحيب، التنازل عن معظم أغاني الأخ " أوزيل"، إيجاز الرقصات. لن تقوم بجولة عبر قاعة الدراسة الكبرى، لكن ستُستقبل الملكة في الفناء إن يسمح وقتها، وإلا سنعطف ثانية على قاعة الاستقبال. كان متفقًا أن الملكة ستحضر –حوالي دقيقتين، كان قد حددها العمدة– حصة الجغرافيا للأخت "ليدوين". تدور حول الزراعة في رواندا. وضع برنامج لفترة ما بعد الظهيرة. ستجري محاولة تخمين الأسئلة التي قد تطرحها "فابيولا" والإجابات التي يرد بها. بالضبط قبل رحيل العاهلة، طالبات السنة النهائية سيقدمن لها الهدايا ويغنى فريق كورال الأخ "أوزيل" النشيد الوطني وبعض الأغاني إن كان هناك وقت.

عارض الأساتذة البلجيك: كانوا قد وعدوا بأن يقدموا شخصيًا لملكتهم وقد يتحادثون لبضع لحظات معها. أُنعم عليهم بعمل ذلك في الممر، أمام الفصول؛ عند مرور "فابيولا"، يمكنهم تحيتها، وبلا شك سوف توجه بضع كلمات لكل واحد. قال المدرسون الفرنسيون إنهم لم يكونوا معنيين، لكنهم يلتقطون بعض الصور للذكرى. منع ذلك العمدة رسميًا.

اليوم التالي، عشية الزيارة الملكية، كان لايزال مضطربًا. رأينا وصول ضباط الأمن. كان برفقتهم خمسة من السادة البيض، كانوا يسيرون بسرعة لدرجة أن العمدة وجد صعوبة كاملة في اللحاق بهم. تناقشوا مع الأم الرئيسة في مكتبها، استعلموا عن الحالة الذهنية للطلاب، عاينوا قائمة المدرسين، طلبوا بعض التوضيحات عن الشباب الفرنسيين المتعاونين. سألوا العمدة عن المناخ الذي يسود مقاطعته، وهو الذي سيؤكد لهم أن الهدوء الكامل يسودها، وأن الحالة الذهنية للشعب ممتازة، حيث ينتظر الحدث بفارغ الصبر، وأن الملكة يمكن أن تعول على استقبال حار، لأنه بنفسه ينظم ويشرف على الاستعدادات منذ شهر، كل يوم، من شروق الشمس حتى غروبها وفي بعض الأحيان حتى فترة كبيرة من الليل. لكن البيض، عديمي الأدب، قاطعوه وطالبوه بالإيجاز. ومع ذلك كان لديه وقت لينصحهم بمراقبة بعض بيوت التوتسي، وهو ما صدق عليه الضباط الروانديين. لقد قلبت الشرطة المدرسة رأسا على عقب. حتى أن الأخت مديرة المدرسة اضطرت لفتح باب مخزنها حيث لم يكن لأي شخص آخر الحق في الدخول. فيما كانوا يفتشون خلف بطاريات علب البيف المحفوظة والمربى، كانت تخشخش بسلسلة المفاتيح كعلامة على الاعتراض. أعطى رجال الشرطة التعليمات للعمدة وللأم الرئيسة. اثنان من بينهم، بلجيكي ورواندي، بقيا في المدرسة. أقاما في جناح الضيوف.

ما إن كانت قد ابتعدت عربة الأمن الجيب حتى توقفت في الفناء حافلة متهالكة. ثلاثة من البيض، مرتدين سروالًا قصيرًا وسترة كاكي، يعتمرون قبعة الأدغال، ينزلون منها. كان يتبعهم أسود يرتدي قميصًا ورابطة عنق ذات لون أحمر فاقع. الأسود الذي أوضح أنه صحفي من راديو رواندا طلب رؤية الأم الرئيسة. أظهر إذن بالتصوير موجهًا من وزير الإعلام وقدم رفقاؤه كمخبرين صحفيين كبار يعملون في جريدة يومية بلجيكية وجريدة أسبوعية فرنسية. كانوا يودون عمل ريبورتاج

عن ليسيه نوتردام النيل التي، يؤكدون، إنها كانت معروفة في بلجيكا وفي أماكن أخرى كمدرسة رائدة، نموذج للنهوض بالمرأة في قلب أفريقيا. التقطوا بعض الصور وأجروا بعض المقابلات مع المدرسين وخاصة، بقدر الإمكان، الطلبة وبطبيعة الحال، الأم الموقرة نفسها. هذه الأخيرة، أطريت لكنها كانت قلقة بعض الشيء، وأوصتهم بقدر كبير من الرزانة ومنحتهم كمرشد وناصح الأب "هيرمينجيلد". عاد الصحفيون إلى حافلتهم ورجعوا منها مصفحين بآلات التصوير والتسجيل.

الفضول أو بالأحرى عدم حصافة الصحفيين صدم الأب هيرمينيجليد بعمق. كان يود البيض رؤية كل شيء، تسجيل كل شيء. لم يصوروا فقط مصلى المدرسة، الفصول (وكانت قد أُعلمت بالوقت المناسب، الأخت "ليدوين" التي كانت تنفذ أمامهم الدرس المعد للملكة)، بل أصروا على زيارة المنامات، مهاجع طالبات السنة النهائية وزخرفها، تحسسوا الأسرة، سألوا عن أماكن رشاشات الاستحمام، دخلوا أيضًا إلى المطابخ، رفعوا أغطية القدور، بل وصل الأمر أن تذوقوا الفاصوليا التي تعدها الأخت كيزيتو. لم يعروا أي انتباه لخطب وشروحات الأب "هيرمينجلد" الذي كان يفخم من الجهود الجبارة والنجاحات الوافرة للحكومة لصالح تعليم البنات، كانوا يفضلون أن يطرحوا على الطلاب أسئلة متضاربة، متحورة، وقحة: تشتكين من الغذاء؟ ألا تشعرن بالوحدة الشديدة؟ ماذا تفعلن عند سفرهن؟ ألديهن صديق صغير؟ ما رأيهن في تنظيم الأسرة؟ هل الأبوان من سيختار لهن زوج المستقبل؟ هل هن هوتو أم توتسي؟ في الليسيه، كم من الهوتو، كم من التوتسي؟ أشار لهن الأب "هيرمينجلد" بالسكوت لكن بعضهن، فخورات بالتحدث إلى الميكروفون، ارتبكن في الإجابات اللانهائية وسألن في النهاية: "هل سنسمع في الراديو؟"

لزم تجميع الراقصات، كانوا يريدون تصويرهن قطعًا. في مبنى الألعاب الرياضية، استحسنوا للغاية الفتيات (كن طالبات السنة النهائية) في الزي الرياضي.

جذبت "فيرونيكا" قهرًا آلات التصوير. طلب منها الصحفيون أن تصعد المنصة، تقف بمفردها، من الوجه، من الجانب. "يمكنها أن تقوم بالتغطية، رائع، رائع! "كانوا يقولون. "جلوريوزا"، ساخطة، سألتهم لماذا لم يهتموا سوى بـ "فيرونيكا ". انفجروا ضاحكين وقالوا: "حسنًا، سوف نأخذ صورتك أيضًا."

فيما كانوا يستعدون للعودة إلى حافلتهم، ذكرهم الأب "هيرمينجيلد" بأنه كان ينبغي أن يجروا مقابلة مع الأم الرئيسة." لم يعد وقت، قالوا، لقد فعلنا كل ما يلزمنا. فلتشكر الأم الموقرة كثيرًا. نود الذهاب إلى منبع النيل. هناك شخص ما يرافقنا؟ الأب "هيرمينجليد"، الناقم بسبب أساليبهم، شرح لهم طويلًا، بانتقام، أن ذلك مستحيل، حيث إن الطريق كان قد انهار بسبب انهيار أرضي." من ناحية أخرى، أضاف، إنها تبدأ في المطر، فلترحلوا بسرعة إن لم تريدوا، أنتم أيضًا، أن تحاصروا عند النزول نحو العاصمة. "الصحفي الإذاعي والسائق استصوبوا جدًا نصائح الأب "هيرمينجيلد" وأقلعت الحافلة بارتياح كبير من القس.

انتظرنا الملكة. طويلًا. فوق كل تل، رؤساء الأديرة كانوا قد حاولوا حشد كل الشعب الصالح مجددًا. كثيرون كانوا عبوسين. خاصة النساء. كان لديهن دائمًا حقل البازلاء وعشب النجيل الضار الذي يجب أن يزال، ذلك لا يجب أن ينتظر، ومن ثم الرضيع الذي كان مريضًا للغاية، لم يتحمل وجوده في الظهر، تحت الشمس والمطر، طوال اليوم. انتهى الأمر إلى جمع ما يكفي من الناس لترصيع اثنين من الكيلومترات على حافتي الطريق. وزع على أطفال المدرسة الابتدائية، بالقرب من المقاطعة، أعلام صغيرة بلجكية ورواندية. سيوضح لهم المدرب كيف يلوحون بها وجعلهم يكررون مرة أخيرة الأغنية التي كان قد ألفها للترحيب بالملكة: "تتصرفون هكذا لو كان الرئيس"، أوصاهم.

كانت الليسيه في حالة فوران تام. التلاميذ، الذين لم يكن استطاع بعضهم إغلاق عينه ليلًا، كانوا قد استيقظوا بالفعل قبل جرس الإيقاظ وصرير البوابة. تبادلوا الحوار، تنازعوا على المرايا، الأمشاط، أنابيب كريم "فينوس دو ميلو". لم ينتهين إلى فك الشعر، رغبة أولئك اللاتي كان لهن ميزة الشعر الناعم. كانت تتساءل كل منهن كيف تلفت إليها نظر الملكة، أو، هذا ما كان ربما أكثر أهمية، لفت نظر الوزيرة التي ترافقها. لكن ما العمل بما أن كلهن ترتدين نفس الزي؟ لم تكن المسألة تتعلق بعمل إشارات، حتى أقل غمزات العين. بل التدريب على تحميل الابتسامة ب الحماس والإعجاب. اعتمدت بعضهن على سحنتهن الفاتحة وشعرهن الناعم، لكن المعظم اعتمدن على المصادفة: ستتوقف الملكة عندهن، تتوجه لهن ببضع كلمات. وهي لن تعد تنساهن. لكن هذا، سيكون معجزة وليس سوى نوتردام النيل من تقرر ذلك.

بالنسبة لوجبة الإفطار، كانت الأخت المديرة قد فتحت بعض علب المربى الكبيرة التي كانت تدخرها لنزهة الحج الخلوية أو لمجيء صاحب السيادة. ثم استمرت طالبات الليسيه للأسف في العودة لفصولهن بما أن الملكة كانت ترغب في اكتشاف الليسيه خلال أنشطتها المعتادة. كررت إذن الأخت "ليدوين" دون كلل درس الجغرافي وتأكدت من أن الطالبات سيجاوبن بتلقائية وطبيعية عن الأسئلة المتوقعة. سرعان ما تنازل المدرسون الآخرون عن أداء الدرس: لقد هرع تلاميذهم جميعًا نحو النوافذ مجرد أن ظنوا أنهم سمعوا جلبة تعلن عن قدوم الموكب المنتظر كثيرًا. من ناحية أخرى، بقي الأساتذة البلجيك متسمرين في مقاعدهم خشية تجعد ملابسهم أوبعثرة غبار الطباشير. المغنيات والراقصات اللاتي كن قد تم اختيارهن انتظرن في غرفة الألعاب الرياضية، مستعدات لإشارة الأخ " أوزيل " للاستعداد في الفناء. ذرع الشرطيان الممرات. العمدة، لاهثًا، قام بالذهاب والإياب عدة مرات بين الطريق

والليسيه. الأب "هيرمينجيليد"، حول رواق المصلى، كرر بصوت عالٍ وبحركات عظيمة، كلمة الترحيب. كانت الأم الرئيسة في كل مكان: كانت تحاول إقرار النظام في الفصول، أرسلت مدرسًا فرنسيًّا كان قد حضر مفتوح الياقة للبحث عن رابطة عنق، كانت تعدل نظام الأسرة في سكن الطالبات، تستدعي الخدم للمرور مرة أخرى بإسفنجة على طاولات الطعام وممسحة في الحمامات، كانت تكتشف في كل زاوية داخلية شبكة وهمية للعنكبوت، تفضح بأصبع صارم عن شبكة من التراب على الدعامات العليا لكتب المكتبة، تذكر الأخت "كيزيتو" بالحجم القانوني لرقائق الكسافا...

انتُظرنا الملكة إلى الساعة٩.٣٠. في الساعة ١٠ إنه المطر الذي أتى.السحب، النائمة حتى الآن أعلى الحافة، تغطي كل السفح وتدفن الليسيه.على حافة الطريق، اغتنم الكثير الفرصة لتفادي ذلك. ثم انسل الضباب في شكل خيط سريع الزوال، لكن السحب الكبيرة الساكنة بدأت في صب شلالاتها من المطر.

قليلًا قبل ١٠.٣٠، رأينا الأخت " جيرترود " تجرى في الرواق على طول الفصول صارخة:" ها هي! ها هي!" التلاميذات اللاتي، تحت أوامر من دون صياح من الأم الرئيسة كن قد عدن إلى أماكنهن، هرع جميعهن معًا نحو النافذة. عبر الزجاج السيال بالماء، أتت عربتا جيب عسكريتان كانتا مكشوفتي الغطاء لتأخذا موضعهما على جانبي البوابة، ثم أربع عربات "رانج روفر " يغطيها الوحل، أتت لتصطف بمحاذاة درجات السلم الأربع المؤدية لباب قاعة الاستقبال. نزل الركاب منها، على الأقل اثنى عشر،أحصتهم الطالبات: الكثير من الرجال والكثير من النساء، الكثير من السود، الكثير من البيض. اثنان منهما جريا نحو الحافلة التي كانت قد ركنت أقرب ما يكون لدرجات السلم، يفردون مظلات مطر كبيرة ويفتحون البوابة. الملكة!- لا يمكن أن تكون سوى الملكة- والوزيرة!- إنها بكل تأكيد الوزيرة-

خرجتا من السيارة لتحتميا تحت مظلات المطر، لكن تحت قلنسوات معاطفهم الواقية من المطر كان يستحيل تمييز وجوهيهما. الأم الرئيسة، الأب "هيرمينجيليد"، العمدة، الذين كانوا ينتظرون على الدرجة العليا، انحنوا احترامًا، والملكة، الوزيرة وحاشيتهما، دون أن يأخذا وقت في الرد عليهم، ابُتلعا بسرعة في قاعة الاستقبال.

أعضاء الكورال والراقصات الذين كانوا قد تكوموا في القاعة بسبب المطر حكوا لزملائهم عن مشهد الاستقبال. وجهت الأم الرئيسة كلمة ترحيب للضيوف البارزين الذين شرفوا بزيارتهم ليسيه نوتردام النيل الضائعة في الجبال، ثم انطلق الأب "هيرمينجيليد" في خطبته التي كان قد صححها وعدلها حتى آخر لحظة، لكن الملكة بناء على إشارة خفية لأحد أعضاء حاشيتها الذي كان ينظر باستمرار في ساعته، قطع بمجاملة دسها ببراعة الطوفان المتدفق من بلاغة القس الذي كان يهدد بعدم نضوبه. الملكة، التي بمجرد الدخول كانت قد تخلصت من دثارها ذي القلنسوة والتي اعتمرت الآن قبعة عظيمة، أعلنت إنها سعيدة وفخورة بزيارة ليسيه نوتردام النيل التي تشكل، من خلال روح مسيحي وديموقراطي، مستقبل الصفوة النسائية للبلاد. أعربت عن تشجيعها شخصيًا مجهودات الطلبة، المعلمين، ومجهودات الحكومة في هذا الاتجاه. أكدت الوزيرة أن الرئيس، مدعومًا من غالبية الشعب، كان عمل دون تراخٍ على تنمية البلاد، مستحيل دون مساعدة النساء ومن ثم التعليم، وفق الأخلاق المسيحية والمبادئ الديموقراطية، كان أحد أولوياته. ضوء فلاشات مصوريّ حاشية الملكة أرجفت العمدة الذي ظن للحظة أن ثمة محاولة اغتيال. الرجل الذي كان ينظر باستمرار في ساعته أتي ليتحدث في أذن الأم الرئيسة التي، في الحال، دعت الملكة والوزيرة لمتابعة الزيارة وللذهاب، وكأنها تعرب عن رغبتها في ذلك، إلى الفصول، مع الطلاب ومدرسيهم. كان قد أُعد أربعة أغانٍ مع الأخ " أوزيل "، تبرم

أعضاء الكورال ولم يغنوا سوى واحدة كما إنهم غنوها بينما كان كل الناس يصعدون السلم، ولا يعرف حتى إذا ما كانت الملكة والسيدة الوزيرة قد سمعاها.

التزمت الملكة في نهاية المطاف بزيارة كل الفصول. في كل فصل منها، قدم المدرس نفسه إلى الملكة التي ردت عليه ببضع كلمات، ثم وجهت تهنئتها وتشجيعاتها للطلاب. كان يبدو أن وجهها يرتدي قناعًا بابتسامة مستديمة عدا عندما تتوجه بنظرة قصيرة لرجل الساعة. في فصل السيد "دو ديكر" استُغرب من توقير زوجته التي كانت قد صاحبت زوجها لتحية العاهلة. تأخرت "فابيولا"، كما كان متفقا، بضع دقائق أكثر في فصل الأخت " ليدوين"، تركت المعلمة تطرح ثلاث أسئلة ثم، راضية عن الإجابات، سألت الطالبات عما يردن عمله مستقبلًا: ممرضات، أخصائيات اجتماعيات، قابلات؟ وحتى لا يخيبن آمالها، اختارت الطالبات التي سئلت، كيفما اتفق، إحدى الوظائف التي اقترحت عليهن. أبدى رجل الساعة علامات نفاد الصبر. عادت الملكة والوزيرة والحاشية بسرعة لقاعة الاستقبال، حيث طالبات السنة النهائية، اللاتي نزلن في فترة وجود "فابيولا" عند الأخت "ليدوين"، كانوا في انتظارها لتقديم الهدايا. "جلوريوزا" و"جروتي" سلماها السلال والمفارش المطرزة. بعد أن أعجبت بها، ناولتها الملكة لسيدة من الحاشية، شكرت بحرارة التلميذتين، سألتهما عن اسميهما وقبلتهما على وجنتيهما. ثم، محاطة ب"جلوريوزا " و"جروتي"، تحدثت الملكة، معلنة إنها تحتفظ بذكرى لا تنسى من زيارتها، القصيرة للغاية حسب تقديرها، إلى ليسيه نوتردام النيل، وإنها كانت منفعلة لأنها أتت لرؤيتها، وإنه يمكن الاعتماد دائمًا عليها لدعم الجهود التي ينشرها هذا البلد الجميل لصالح التعليم والنهوض بالمرأة. بعد أن قامت بتحية الأم الرئيسة، الأب "هيرمينجليد" والعمدة، عادت الملكة والوزيرة إلى الخشابية مظلة مطر "الرانج روفر" الموحلة، بينما أعضاء الحاشية هرعوا- في فوضى- نحو الحافلات الأخرى.

يسبقه عربتا الجيب العسكريتان، عبر الموكب البوابة، ابتعد على الطريق وتلاشى خلف ستارة المطر.

قاتت لفترة طويلة زيارة الملكة "فابيولا" محادثات الطالبات. أسفن إنها كانت قصيرة للغاية، وأن البرنامج الذي كان قد أخذ إعداده فترة طويلة وعناية فائقة لم يستطعن عرضه كما خُطط له: كان أعضاء الكورال والراقصات الأكثر مرارة. لماذا كانت الملكة متعجلة للغاية؟ كان ذلك قد بدا صادم للغاية من جانب ملكة. هل نسير باسرع ما يكون عندما نكون ملكات؟ أو حتى عندما نكون امرأة تُحترم؟ ندرك هنا بالفعل سوء أدب البيض. تعرض "فيرونيكا "لنموذج "الباميكازي" قديمًا: فهن، كن يستطعن التحرك ببطء مهيب، كما لو كن يحصين كل خطوة من خطواتهن، لم تخطر الفكرة لأي شخص حتى يقول لهن أن يسرعن كما بدا عمل رجل الساعة: الوقت، هن من كن يقررنه. ردت "جلوريوزا" في الحال، أن هؤلاء ملكات من التوتسي، ومن ثم متكاسلات لم يكن قد لمسن فأس، متطفلات حيث سخرة الشعب الفقير كانت تلزم لتغذيتهن. وإنه لم يكن هناك صيغ طيبة بالنسبة للرواندیات الحقيقيات.

قامت "موديستا" بالإشارة إلى إنه مع كل الغوايش اللاتي كن يرتدينها في أذرعهن والحلقات في سيقانهن، ما كن يستطعن التقدم دون مساعدتهم.

حُمل النقاش خاصة حول جمال "فابيولا". المعظم كان يجدها جميلة بالفعل، أجمل من مدام "ديكر"، بيضاء، أشد بياضًا من كل النساء البيض في العاصمة. فضلًا عن أن كل شيء عندها أبيض: ترتدي تنورة بيضاء، سترة بيضاء، تقريبًا كجاكيت رجالي، حذاء أبيض وكان قد بقي هكذا، تساءلت كيف، "إيماكوليه". أسف بعضهن إنها لم ترتد رداءً طويلًا جدًا، بذيل، رداء ملكة حقيقي، كما في صور كتاب

التاريخ، كرداء سندريلا. فسرت "إيماكوليه" على نحو حكيم أن الملكة كانت ترتدي تايير، وإنها هكذا كانت كما ترتدي البيضاوات، عندهن، في أوروبا.

– ليست أجمل من الملكة "جيكاندا"، لم تستطع منع نفسها من التعليق فيرونكا.

– ملكتك السالفة، انفجرت "جلوريوزا"، جمالها المدعى لم يخدمها في شيء عظيم. سُجنت في فيلتها في "بوتور"، لا أتنبأ لها بمستقبل رائع. وأنتم، التوتسي، دائمًا تعتقدون أنفسكم الأجمل في العالم، لكن، الآن، الجمال غير معسكره. سيجلب لكم جمالكم المزعوم التعاسة.

ومن ثم كان هناك القبعة. سر القبعة. قبعة ضخمة، بيضاء أيضًا، بعقد من الحرير الوردي، ريشات وأزهار، جنة حقيقة، جنة عدن كما يقول الأب "هيرمينجيليد". ماذا فعلت حتى تحتفظ بها تحت قلنسوة المطر التي كانت قد حمت "فابيولا" من المطر؟ هل وضعتها تحت مظلات المطر قبل أن تدخل ثانية إلى القاعة؟ هنالك السر؟ على أية حال، كلهن تعرفن ذلك، كانت قبعة حقيقية للملكة، أفضل من التاج، لم نر مثيلًا لها قط في رواندا. ليس هناك سوى ملكة تتحمل هذا المَعلَم على رأسها.

كنا ننتظر بفارغ الصبر أخبار من "جوديف". هل الملك والملكة صحبا معهما ابنة الرئيس؟ هل تبنياها كابنتهما الخاصة، أستكون كابنتهما الفعلية؟ و"جوديف"، آنسة الشرف، تبعتهما في الطيارة؟ سئلت الأخت " جيرترود " التي كانت تسمع الراديو إذا ما كانت قد سمعت شيئًا ما. في الراديو، لم يُقل أي شيء. كتب إلى الجميع وخاصة إلى كل أولئك اللاتي كن نعرفهم في العاصمة. وضعنا طرفًا إلى طرف قصاصات الحكاية. ما يمكن الاحتفاظ به كحقيقة، هو أن الرئيس كان لديه بالفعل النية لإهداء إحدى بناته لينقذ السلالة. كان يأمل هكذا أن يكون

البلجيك دائمًا، كما كانوا في الاستقلال، إلى جانب أغلبية الشعب. دخل في العائلة: من أجل شرف طفلتهما المشتركة، لن يُسمح بسقوطه. لكن الملك والملكة لم يفهما. ثمة أشياء لن يفهمها البيض أبدًا. كان قد رد البلجيك أن، بطبيعة الحال، ابنة الرئيس تستطيع أن تقوم بدراساتها في بلجيكا. سيكون ذلك بديهيًا. لكن بالنسبة لمنحة الطفل، كانا يتظاهران بعدم السمع، بعدم الفهم. بقيت ابنة الرئيس هناك و"جودليف" أيضًا.

- كان لدي حق، تقول "جوريتي"، لم يكن كل ذلك سوى حكايات. كانت "جودليف" حمقاء لدرجة أن انتهى بها الأمر لتصديق أكاذيبها الخاصة.

- سنرى حقًا ما ستحكيه عندما تعود، بحذر قال الآخرون.

لن تعود "جودليف" أبدًا إلى الليسيه. لقد كانت أهون من أن تمتلك القوة على مواجهة سخريات زميلاتها. ذهبت مع ذلك إلى بلجيكا. وجد لها أبوها مدرسة داخلية أنيقة. يقال إن الأم الرئيسة فعلت شيئًا ما.

١١- أنف العذراء

- "موديستا"، قالت "جلوريوزا "، ألاحظتِ جيدًا وجه العذراء؟

- أي منهن؟

- وجه تمثال نوتردام النيل.

- ماذا في ذلك؟ إنه بالفعل ليس كوجه تماثيل مريم الأخرى. إنه أسود. صبغها البيض باللون الأسود. إنه بلا شك ليسعدونا نحن الروانديين، لكن ابنها، في الكنيسة، ظل هو أبيض.

- لكن لاحظتِ أنفها؟ إنه أنف صغير مستقيم تمامًا، أنف توتسي.

- أخذوا عذراء كانت بيضاء، دهنوها باللون الأسود، احتفظوا بأنف البيض.

- نعم، لكن الآن حيث إنها سوداء، لها أنف التوتسي.

- تعرفين، في هذه الفترة، البيض والمبشرون كانوا في جانب التوتسي. لذا عذراء سوداء بأنف توتسي، بالنسبة لهم، بالتأكيد أفضل.

- نعم، لكن، أنا، لا أود السيدة العذراء بأنف توتسي. لم أعد أود الصلاة أمام تمثال له أنف توتسي.

- ماذا تودين أن نعمل في ذلك! تعتقدين أن الأم الرئيسة والقس، لو طلبتِ منهما، سوف يغيران التمثال.إلا إذا حدثتِ أباكِ في ذلك...

– بكل تأكيد سوف أحدثه في ذلك ... فضلًا عن إنه قال لي إنه سينزع التوتسية عن المدارس والإدارة.

بدأ ذلك في كيجالي وفي الجامعة في "بوتار". نحن سنزيل أولًا توتسية السيدة العذراء، سوف نعدل أنفها، هناك عدد قليل منها يشمل هذا التنصل.

– تريدين كسر أنف التمثال! عندما سيُعرف أنكِ أنتِ من فعلتِ ذلك، ومع ذلك، تجازفين بفصلك.

– تظنين، سوف أوضح لكل الناس لماذا كان ينبغي عمل ذلك: إنها إشارة سياسية وبالأحرى سوف يهنئونني وثم مع أبي...

– حسنًا، إذًا، ماذا ستفعلين؟

– ليس صعبًا: نكسر أنف التمثال ونلصق له أنفًا جديدًا. يوم أحد، سوف نذهب عند الباتوا، هناك بعضهم في كنازي. سوف نأخذ الصلصال، المجهز جيدًا، المدعوك جيدًا، ذلك الذي تصنع منه الأواني الفخارية، وسوف نشكل منه أنفًا جديدًا لمريم.

– والأنف الجديد، ستلصقينه متى؟

– سنذهب ليلًا، عشية الحج واليوم التالي، سيرى كل الناس أنفًا جديدًا لنوتردام النيل. أنفًا رواندية حقيقية، أنف غالبية الشعب. سيستحسن ذلك كل الناس. حتى الأم الرئيسة. ما من حاجة لتوضيحه. أو بالأحرى إذا، إن كنت أنا من سيوضح لهم. أعرف منهم من سيخفض رأسه، ومن سيحاول إخفاء أنفه الصغير. أنت أولهم، "موديستا"، بأنف أمك.لكنك ستساعديني بما أنك صديقتي.

– "جلوريوزا"، أنا خائفة. إلا أنك ستقعين في مأزق وأنا، خاصة لو ساعدتك.

– لكن لا، أخبرك، أننا محاربات. ما سنفعله هو تصرف عسكري، و، مع أبي، لن يجرؤ أي شخص أن يقول شيئًا ما. سوف يكونون مضطرين بالفعل لتغيير التمثال، وأن يضعوا آخر، روانديًا بالفعل هذا، أنف الأغلبية. سوف ترين، الحزب سيهنئنا. سنكون سيدات سياسة. سيؤال الأمر إلى أن نصبح وزيرات.

– أنت من دون شك، لكن أنا هذا الأمر قد يدهشني!

كان مشروع ""جلوريوزا" "يقلق "موديستا". كانت تأمل ألا تعود صديقتها إلى التفكير في ذلك، أن تكون قد تخلت عنه في أسرع وقت. في خلال شهر، سيكون الحج، لذلك، بلا شك ستكون قد نسيته "جلوريوزا" تمامًا. هذا ما قالته، فذلك من أجل الضحك، الكلام، تمضية الوقت؛ لأنه من الرتابة الشديدة جدًا في ليسيه نوتردام النيل، تنبثق لكم أحيانًا أفكار غريبة. فهناك من بينهن من تتخيلن أن مدرس أبيض وقع في غرامهن، وإنه سيفتن بهن ويخطفهن، لأنه في الفصل لا ينظر سوى لهن، سيرحلن معه على الطائرة، على خطوط السابينا(*)، تقول أخريات أن العذراء تحدثهن ليلًا وإنهن يكتبن في مفكرة صغيرة ما قالته لهن مريم، ومن بينهن من تعتقدن إنهن ملكات فيما مضي ، لا ينبغي لمسهن ،إنهن نفيسات للغاية،هشات للغاية،مستعدات دائمًا للإغماء عليهن، أخريات قلن إنهن سيتوفين لإنهن تسممن، تسممن لإنهن فائقات الجمال، يفقن جمال كل الأخريات، الغيورات تطاردهن بكل الشعوذات، لا يستطعن تناول أي طعام، السم في كل مكان. هذه الأفكار السيئة التي تدور، التي تصطدم في رأس الفتايات، أحيانًا تستقر فيها، أحيانًا ترحل. تأمل "موديستا" أن فكرة "جلوريوزا" السيئة تكون قد رحلت كأفكار أخرى كثيرة.

الأحد التالي، عند الخروج من القداس، قالت "جلوريوزا" إلى "موديستا":

(*) خطوط الطيران البلجكية

– فلتسرعي، سوف نذهب إلى المنبع. أود تحديد الأماكن. لا بد أن نرى كيف نستطيع التسلق حتى محرس مريم النيل.لا بد أن نعرف بالضبط كيف نستطيع الصعود.

– أما زلتِ تودين عمل ما أخبرتِني به؟

– بالطبع، أكثر من أي وقت مضى، وأعتمد عليك أن كنت تودين أن تبقي صديقتي.

– هذا يخيفني، تنهدت "موديستا"، فأنا ليس لدي والدك... لكني سوف أساعدك رغم ذلك، بما أنك تقولين لي إنني صديقتك.

كانت تمطر. على الطريق. تخطت "جلوريوزا" و"موديستا" بعض السيدات العائدات من القداس،ومقعدهم الصغير فوق الرأس.

– حقا، قالت "موديستا"، نحن نسكن السحاب.

– أنا، قالت "جلوريوزا"، أحب هذا المطر، إنه ما كنت أريد ولست بحاجة لـ "نياميرونجي" لجعله يسقط. ليس هناك أي شخص سيذهب ليصلي لنوتردام النيل، حتى أولئك اللاتي يأتين ليسألنها الدرجات الجيدة، لن يجازفن بالمجيء.

نزلتا بسرعة المنحدر الصلب الذي يؤدي إلى المنبع، تلتوي أقدامهما في الأخاديد، تتعلقان بالشجيرات حتى لا تنزلقا. توقفتا أمام خرزة البئر التي تستوقف ماء المنبع قبل أن تتابع مجراها نحو مصيره النهري. بدا لهما تمثال مريم عاليًا للغاية، صعب الوصول إليه في ضريحه المعدني المعلق، لا نعرف كيف، بين صخرتين ضخمتين. رغم مأواه، تركت مواسم المطر علاماتها على التمثال كانت قد تجزعت

مينا وجهه الأسود بشقوق مائلة للبياض، ويداه المعقودتان وقدماه العاريتان مثقوبتان بلطخ من نفس اللون.

– إنها نوتردام الحمير الوحشية، قهقهت "جلوريوزا"، ترين إنه يجب دهانه مجددًا أو بالأحرى تغييره، وأنفه إنها بالفعل أنف توتسي، لكنه توتسي أمهق.

– اسكتي.لا تقولي أشياء من هذا القبيل، سيجلب لنا هذا النحس.ذهبتا حتى الركام الحجري، التفتا حول الصخور.كانت ملساء ولامعة. عبر وعورتها، أربعة أعمدة تدعم منصة من الألواح المغطاة بالطحالب والأشنات والتي عليها كان قد أقيم بيت العذراء.

– انظري، قالت "موديستا"، إنه عالٍ للغاية، يلزمنا سلم.

– ستكونين أنت السلم. سوف تحملينني على كتفيك وأصعد وأنا أتعلق بالألواح وأنت تمسكينني وتدفعينني. سوف نصل هناك.

– "جلوريوزا"، أنت مجنونة!

– افعلي ما أقوله لك، لا تناقشي إن كنت تودين أن تظلي صديقتي دائمًا.

– تقعى "موديستا" في سفح المنصة. اعتلتها "جلوريوزا" واستقرت على كتيفها

– هيا، انهضي.

–لا أستطيع، أنت ثقيلة للغاية. ومع مؤخرتك الضخمة، لا أرى أي شيء.

– تعلقي في العمود

أطبقت على العمود ورفعت بتمهل "جلوريوزا" التي كانت تشجعها: "هيا، استمري، تقريبًا وصلنا!"

- حسنًا، خلاص، قالت "جلوريوزا"، مرفقي على الألواح. انتبهي، أنا انتصب، أمسكي جيدًا، سأكون هناك.

نجحت "جلوريوزا" في الانزلاق إلى الممر الضيق بين الصخرة واللوح المعدني. تستطيع أن تشرع في الوقوف وموديستا تراها تختفي في المحرس.

- خلاص، ألمسها. أنا أكبر منها. ترين سيكون سهل، ضربة جيدة على الأنف، وهوب!

من جديد تسللت "جلوريوزا" بين المحرس والصخرة.

- انتبهي، صرخت، أقفز، أمسكيني.

قفزت "جلوريوزا "، هبطت فجأة على "موديستا" ساحبة لها في سقوطها.

– انظري في أي حالة نحن، قالت "موديستا" وهي تشير، تنورتي مملوءة بالطين وتمزقت، هنا، من الجانب، وساقاي جُلفت تمامًا. ماذا يمكننا بالفعل أن نقول للمشرفة؟

– سنقول لها إننا انزلقنا ونحن ذاهبتان لأداء صلاتنا لنوتردام النيل. سوف ترثى لنا وتهنئنا من أجل رحمتنا. أو بالأحرى نقول لها إن قطاع طريق هاجمانا ليغتصبانا، لكننا هربنا منهم، أفضل الرواية الثانية، نحن فتاتان شجاعتان، إنهم الـ إنيانزي الذين هاجمانا، هناك بعضهم في الجبال...

– تعرفين جيدًا أنه لم يعد هناك إنيانزي، التوتسي، يقومون بالتجارة في بوجومبورا أو في كمبالا.

– يقول أبـي إنـه يجـب أن نكـرر دون توقـف أن هنـاك دائمًـا إنيـانزي، وإنهـم مستعدون دائمًـا للعـودة، وأن هنـاك منـهم مـن يتسـلل، وأن التوتسـي ينتظـرونهم بفـارغ الصبر، وكذلك أنصـاف التوتسـي مثلك. يقول أبـي إنـه لا ينبغـي أبدًا نسيان تخويف الشعب.

تقـدر "جلوريـوزا" أنـه بالنسـبة للاحتمـال الـذي سـتحكيانه للمشـرفة، كـان مـن الأفضـل انتظـار الليل قبل أن تعودا إلـى الليسيه. ستذهان للإيواء فـي كابينـة الراعـي المهجورة فـي "ريميرا"، أسفل الطريق. تستلقيان علـى قش العشب الكثيف الذي ظهر بعد أن تجدد منذ قليل. "ترين، قالت "جلوريوزا"، الكابينـة معمورة حتـى لـو كـان السرير إلـى حدٍّ مـا متصلبًا بالنسبة لما سنفعله فيها. سأصل بالفعل إلـى معرفـة من يتواعد هنـا. "تمـددت علـى القش: "فلتـأتي لتسـتلقي قبـالتي وارفعـي رداءك. تعرفين مـا يجـب فعله من أجل الاستعداد للزواج، هذا ما تفعله أمهاتنا دائمًا."

– ماذا حدث لكما، صغيرتي المسكينتين؟

صـرخت الأخـت " جيرتـرود " عنـدما رأت "جلوريـوزا " و"موديسـتا"، ممزقتـا الملابس ويغطيها الطين.

لقد هاجمنـا، قالـت "جلوريـوزا " بصـوت وكأنـه مكسـور عاطفيًـا، رجـال كانـت وجوههم ملثمـة بقطعـة من قمـاش أسـود، لا أعرف كم كـانوا، انقضـوا علينـا، بالتأكيد كـانوا يريـدون اغتصـابنا ومـن دون شـك يقتلوننـا بعد ذلـك، لكننـا دافعنـا عـن أنفسـنا، التقطنـا عدة حصـيات، صـرخنا، سـمعوا سيارة تويوتـا كانـت قادمـة، شـعروا بـالخوف، هربـوا...لكن أعرف جيـدًا إنهم، لقد سـمعت مـا كـانوا يقولونـه، إنهـم إنيـانزي، لا يـزال يوجد بعضـهم هنـاك، يختبئـون فـي الجبـل، أخبرنـي أبـي بـذلك، يـأتون مـن بورونـدي،

إنهم مستعدون دائمًا لمهاجمتنا كلما استطاعوا ذلك وهم متواطئون: التوتسي هنا. لا بد من إبلاغ الأم الرئيسة.

دخلت الطالبتان إلى مكتب الأم الرئيسة. حكت "جلوريوزا" مرة أخرى قصة الاعتداء لكن، برواية جديدة، لقد كانت الحقائق أسوأ بكثير: لا يزال عدد النيانزي في تضخم، إنها المدرسة التي كانوا يتأهبون لمهاجمتها، كانوا يريدون اغتصاب كل الطالبات، كانوا سيقتلونهن بعد تنكيل رهيب، لن تنجو الراهبات، ولا حتى البيض. كانت "موديستا" صامتة: لم تألُ جهدًا في البكاء والنواح طبقًا للتعليمات التي كانت قد أملتها عليها "جلوريوزا "." بسرعة، أكدت، ليس هناك لحظة لنضيعها، جميعنا في خطر، النيانزي قريبون جدًا، إنهم في كل مكان."

اتخذت الأم الرئيسة القرارات التي كانت لازمة. جمعت الأب "هيرمينجليد"، الأخت "جيرترود"، الأخت المديرة في شكل مجلس حرب. أوفدت الأخ "أوزيل" وشاحنته إلى مجلس المقاطعة، عاد مع العمدة واثنين من الشرطة. جمعت الطالبات في كنيسة المدرسة والأب "هيرمينجليد"، دون الشرح كثيرًا لماذا، تناوب تراتيل دينية وما يقارب عشرًا من الصلوات بالمسبحة. وزعت الأخت المديرة على الخدم سكاكين المطبخ، حيث دونت بعناية العدد في دفترها الصغير، ونظمت الفرقة التي تقوم بحراسة بوابة المدرسة. كان الليل قد هبط. قررت الأخت المديرة توزيع كل البسكويت التي كانت قد احتفظت به من أجل الحج القادم. في الكنيسة على الرغم من إصرار الأب "هيرمينجليد" على إطلاق التراتيل والصلوات، انتهت الجلبة إلى اقتلاعه. كان هناك تهامس أن الرئيس كان قد تم اغتياله، أن النيانزي كانوا قد عبروا البحيرة، أن الروس كانوا قد أعطوهم أسلحة مخيفة، إنهم سيقتلون كل الناس، حتى الفتيات، بعد اغتصابهن... كثيرات كن يبكين، طلب بعضهن من القس الاعتراف، والبعض كان

يتمنى، لم نكن نعرف إلى حدٍّ بعيد لماذا ولا كيف الهروب من المذبحة خلاف الاغتصاب.

سُمعت حافلة الأخ "أوزيل". الحرس المرتابون (كانوا يخشون أن تكون الحافلة قد وقعت في كمين) فتحوا ببطء البوابة على الرغم من الكلاكس نافد الصبر لصبي السائق. رأينا بشيء من الراحة أن الأخ " أوزيل " عاد ليس فقط بالعمدة والشرطيين وبنادقهما، بل أيضًا بعشرين من الجنود المسلحين بالسواطير.

اجتمع مجلس الحرب ثانية في مكتب الأم الرئيسة: كان يشارك فيه الأم الرئيسة، العمدة، الأخت المديرة، الأب "هيرمينجليد" الذي ترك الطالبات تحت رعاية الأخت " جيرترود ".دعيت "جلوريوزا " للحضور بوصفها شاهدة وضحية. أعادت ثانية على العمدة حكاية العدوان: المتطاولون النيانزي كانوا دائمًا أكثر عددًا وأكثر عنفًا، رفعت فستانها حتى أعلى فخذيّها لتظهر للكل الخدوش العديدة التي أحدثوها. "موديستا"، صامتة دائمًا وهذه المرة تبكي بالفعل، نُقلت إلى الممرضة، الأخت "أنجليك" التي كانت ترعاها. أعلن العمدة إنه كان قد استطاع الاجتماع بالمحافظ الذي، هو نفسه، كان قد استنفر معسكر الجيش. سوف يرسل الكولونيل على وجه السرعة خمسين جنديًّا يقودهم الملازم "جاكوبا". في هذه الأثناء، وضعَ المحاربين في النقاط الإستراتيجية وأرسل إلى المركز التجاري الصغير دورية من المحاربين يقودها شرطي. سُمح للطالبات بالعودة إلى مخادعهن والنوم، لكن من دون خلع ملابسهن، كانت قد قالت الأم الرئيسة.

انتظرنا. كان الليل حالك للغاية والجبل صموت. عادت الدورية من القرية الصغيرة. لم يكن مستيقظًا سوى بضعة كلاب حيث العواء الكئيب أو العنيف استغرق طويلًا حتى يهدأ. بعد منتصف الليل بقليل، وصلت حافلتين مملؤتين بالجنود. هؤلاء

الذين اتخذوا مواقعهم على الفور حول المدرسة. الملازم الشاب الذي كان يقودهم تفاوض في المكتب مع الأم الرئيسة والعمدة. أعادت "جلوريوزا" حكايتها: أضافت هذه المرة إنها كانت تعتقد إنها تعرف صوت أحد هؤلاء الذين كانوا قد هاجموهما، لم تكن متأكدة تمامًا من ذلك، لكن ذلك يمكن أن يكون بالفعل صوت "جان بيزيمانا"، ابن "جاتيرا"، التوتسي الذي يملك دكانًا صغيرًا في السوق.قال الملازم أن التوتسي كانوا دائمًا شركاء النيانزي، لم يساوره أي شك أن العصابات التي كانت قد أتت من الخارج تختبئ الآن عندهم. سيرسل دوريات لتفتيش بيوتهم، يساعدهم المحاربون كمرشدين. سوف نذهب في الحال لتوقيف "جان بيزيمانا"." مع النيانزي، قال الملازم، لا يجب تضييع الوقت."

الإجراءات المقررة من قبل الملازم نفذت على وجه السرعة. عاد قواد الفرق، بعد الساعة، ليقدموا تقريرهم إلى الملازم في حضور الأم الرئيسة، العمدة و"جلوريوزا" التي كانت قد رفضت الذهاب للنوم في حجرة الضيوف التي اقترحوها عليها، الأجمل مع ذلك، حجرة القس. لقد تم توقيف "جان بيزيمانا" دون مقاومة تذكر وسط الأزمات، دموع أبويه، إخوته، أخواته. كان قد استجوبه العسكريون بالقسوة اللازمة حتى يشي بشركائه. لم يعترف بأي شيء. كان قد استودع في السجن الكبير، في شمال البلد." ثمة فرص قليلة حتى يُرى ثانية يتسكع في بلدتي"، قال العمدة ضاحكا.

لقد قام العسكريون بتفتيش البيوت النادرة التي كانت لا يزال يسكنها التوتسي. لقد قاموا– باهتمام شديد– بشق حواصل الحبوب، كسر الجرار، استجواب كل سكان البيون، حتى الأطفال. بلا طائل.لقد قام النيانزي بالفرار دون السؤال عن بقيتهم." حسنًا، قال الملازم، بنتان شجاعتان نجحتا في جعلهم يهربون. المؤسف إننا ما زلنا لم نحصل على بعضهم. لكن هذا إجراء جيد: يجب دائمًا تذكير التوتسي إنهم ليسوا سوى صراصير، نيانزي، في رواندا.

شغلت "جلوريوزا " حجرة القس لعدة أسابيع، حتى الحج، كانت قد طلبت ذلك. ليس لدينا أي شيء يرفض للبنت التي كانت قد أظهرت الكثير من الشجاعة وأن الأب "هيرمينجليد"، في إحدى عظاته، كان قد قارنها بجان دارك. مآثر الطالبتين، خاصة مآثر "جلوريوزا "، كان قد ذاع صيتها حتى أعلى المستويات في الحزب." طالبتان بطلتان هربتا من المجرمين الخطرين الذين أتوا لإشاعة الفوضى في البلاد"، كان عنوان الجريدة. لقد أصبحت "جلوريوزا" البطلة التي أنقذت الليسيه وربما البلد كاملًا.

أكثرت الراهبات والمدرسات من الاعتبارات عند توجيه الكلام لها: من حولها، ساحة الصديقات المبادرات كانت قد اتسعت للغاية، بل بعضهن كن يتجنبن مع ذلك الثرثرة معها طويلًا جدًا خشية أن يرتكبن أي خروقات. وحدها كانت "جروتي" تحتفظ بمسافة، و، أمام أولئك اللاتي بقين مخلصات لها، سمحت لنفسها، بكلمات مغطاة، ببث بعض الشكوك حول حقيقية مآثر "جلوريوزا".

كانت تأمل "موديستا" خشية أن تتعرض شهرة المغتصبة للخطر، أن تتنازل "جلوريوزا" عن مشروع تشويه تمثال نوتردام النيل، لكن، أثناء حصص الأخت "ليدوين"، همست لها:" لا تنسي، الأحد سنذهب عند الباتوا."

ما يقارب عشرة من الأكواخ الصغيرة المشعثة، المبعثرة في أحد بساتين الموز المشتتة، كانت تتألف قرية الباتوا. على سطح مستوٍ تمامًا، دائرة كبيرة ضاربة إلى السواد كانت تشير إلى موضع الموقد حيث الفخاريات كانت قد حُرقت بضعة أيام قبل السوق. في كل مكان، كان يرتفع، كأهرام صغيرة منهارة، تلال من كسر الفخار.

مع اقتراب الفتاتين، غمامة من أطفال عراة، ببطون ممتقعة من نثار الصلصال، منتفخة كبالونات صغيرة، هربوا صائحين. كانت القرية تبدو خالية،

صامتة على نحو غريب. جائبتين الدروب التي تؤدي إلى الأكواخ، انتهيتا إلى اكتشاف امرأة كانت تشكل قِدرًا. في داخل مصنع الفخار المكسور الذي يرتكن عليه الصلصال، يظهر تدريجيًّا، بواسطة لفائف تتركب، البطن الأملس والمستدير للقدر.الخزافة، المنهمكة في مهمتها، لم ترفع عينيها عندما اقتربت ""جلوريوزا" و"موديستا" منها. سعلتا سعالًا خفيفًا للفت انتباهها. السيدة، من دون أن توقف عملها ولا تفرسهما، وصلت إلى التذمر: "لو كان من أجل شراء قدر، لا يوجد البعض منها الآن.إنها تجف. فلتأتيا إلى السوق، أنا هناك دائمًا. سوف تشتريان مني كل القدور التي تريدانها.

شيئًا فشيئًا، الأطفال الذين كانوا قد هربوا بمقدم الطالبتين خرجوا من مخابئهم، اقتربوا منهما، حوطوهما، انضموا لهما عن قرب، حاولوا لمسهما. بالغين، رجال بلحى، سيدات ثرثرات، اختلطوا شيئًا فشيئًا بالأطفال. "قولي لهم أن يبتعدوا، قالت "جلوريوزا" إلى الخزافة وهي تضم ثنيات تنورتها، لا أريد أن يلمسوني.– انصرفوا"، قالت هذه، بينما عجوز بسكسوكة بيضاء، يبرز من أحد الأكواخ، يدفع بعصاه الأشد جرأة. أتى ليجلس بجانب الخزافة. أوضحت "جلوريوزا" ما كانت تريده: قطعة من الصلصال طلبتها الأستاذة في المدرسة. بدا كل من الخزافة والعجوز لا يفهمان. كررت "جلوريوزا" طلبها.

– تودين أن تكوني خزافة، قال العجوز وهو يقهقه، تودين أن تعملي مثلنا، الباتوا.أأنت موطوا؟ أنت كبيرة جدًا بالنسبة لموطوا!

– أعطني واحدة من أنابيب الصلصال، أصرت "جلوريوزا"، سوف أدفع لك ثمن قدر كامل، إبريق، إبريق كبير.

فكرت السيدة والعجوز فترة طويلة، تشاورا بصوت عال، متأملين من حين لآخر "جلوريوزا" و"موديستا" بهيئة ساخرة.

- إبريقان، قالت أخيرًا الخزافة، إبريقان كبيران للجعة، إنه الثمن وستحصلين على أنبوبك.عشرين فرنكًا، إنها عشرون فرنكًا.

قدمت لها "جلوريوزا" ورقة بعشرين فرنكًا كرمشتها الخزافة مباشرة في لفة كروية ودفنتها في عقدة في مئزرها. نادت طفل ذهب يجمع أجمة من العشب. ضفرت نوع من الشباك ستغلف فيه إحدى لفائفها التي بها يثبت فخارها.

- أمسكي، قالت، لكن لا تخبري أحدًا بما بالداخل. يبدو أنك أصبحتِ موطوا.

ابتعدت "جلوريوزا " و"موديستا" بأسرع ما في وسعهم عن القرية، يتبعهما حتى المدق حشد بهيج يصرخ، يغني ويرقص.

عندما وجدتا نفسيهما أخيرًا بمفردهما، فتحت "جلوريوزا" الغلاف العشبي وتأملت طويلًا لفافة الصلصال.

– تأملي، قالت، يوجد الكثير مما يُعدل أنف كل عذروات رواندا!

– في هذا الكيس، قالت "جلوريوزا"، لدي كل ما يلزم لهذا المساء.

فتحت "جلوريوزا" الكيس، ورأت "موديستا" إنه يحتوي على مطرقة، مقشط وكشاف يدوي.

– كيف حصلتِ على هذا؟

– إنه "بوتيسي"، الميكانيكي الصغير، الذي استعارها لي من ورشة الأخ "أوزيل".

– أعطيتيه نقودًا؟

– لا داعي. يعرف من أكون. إنه سعيد جدًا لإسداء خدمة صغيرة لي.

– وكيف سنخرج من الليسيه، ليلًا؟

– سوف تنضمين إلي في حجرة الضيوف، بما، إنك، عدتِ إلى المهجع. لن يرفضوا ذلك.

بالتأكيد، أنا من سيطلب ذلك. خلف جناح الضيوف، ليس من الصعب قفز الجدار، وضعت مَعلَمًا على المكان حيث يوجد خرق.

– دائمًا ما تريدين عمل ما قولتيه؟

– أكثر من أي وقت مضى! الآن بما أنني بطلة، وأنت كذلك بالتأكيد، سيقال إنه أيضًا أحد مآثرنا، إنه أحدها، صدقيني.

– تعرفين جيدًا أن كل هذا يعتمد على أكاذيبك.

– إنها ليست أكاذيب، إنها السياسة.

" سوف نرحل عندما يكون الجميع نيامًا"، كانت قد قالت "جلوريوزا ".انتظرتا حتى تكون الليسيه قد غاصت في النوم وفي الليل. في أوله كان هناك هرج ومرج الطالبات اللاتي وصلن المهجع، همس الصلاة الأخيرة التي كن يتلونها قبل النوم. رنين الجرس، صرير البوابة التي كانت تغلق أعطيا الإشارة بغلق الأنوار. فيما بعد بنصف الساعة، أزيز المولد الكهربائي انطفأ. الحراس بحربتهم أو ساطورهم في اليد، قاموا بدوريتهم الأخيرة، ثم تدثروا في أغطيتهم أسفل البوابة و، على الرغم من

التعليمات، انتهى بهم الأمر للنوم.لم يعد أي مصباح مضاء في نافذة مكتب الأم الرئيسة." إنها اللحظة، قالت "جلوريوزا"، لنذهب."

تسلقتا الجدار من دون صعوبة، إلى داخل الحديقة، وتدثرتا في مئزرهما." أمسكي، تحملين حقيبتي، قالت "جلوريوزا "لـ "موديستا"، أنا، سوف أمر أمامك. "ترددتا على حافة الطريق. كان الليل قد محا العلامات المألوفة. يبدو أن الجبال كانت قد تضخمت بظلمات سميكة وقد غمرت حتى الفجوة المدوخة التي في داخلها كنا نلمح البحيرة.

- سوف نتوه، قالت "موديستا"، أشعلي مصباحك.

- هذا خطير للغاية. ربما لا يزال هناك دوريات من الجنود أو المحاربين. لقد أخافتهم إلى حد بعيد حكاياتي عن النيانزي.

نجحتا بالتلمس في متابعة الطريق والوصول إلى المركن الذي كان يطل على المنبع. الدرب الذي سلكوه كان ممهدًا وخاليًا من الحجارة من دون شك تحسبًا للحج. أضاءت "جلوريوزا" الكشاف. تجنبتا الصخور الضخمة. اندهشتا من تأكدهما أن سلم كان قد سُند على المنصة." ترين، قالت "جلوريوزا"، الحظ معنا،إنها علامة على أننا ننجز عملًا وطنيًا: البستانيين الذين أتوا لتنظيف المحرس ووضع زهورًا لتجميله نسوا السلم."

صعدت "جلوريوزا" على المنصة و، مزودة بمطرقة، ومقشط، وعمود من الصلصال وكشاف اليد الذي كانت تمده لها "موديستا"، انزلقت أمام التمثال وارتكزت على أواني الزهور التي سقطت في الحوض، حيث كانت تُحفظ ماء المنبع. فاقدة توازنها على حافة المنصة، ضربت "جلوريوزا" بعنف على أنف العذراء بضربة من

المطرقة بمثل هذا العنف الذي جعل رأس التمثال طارت في شكل شظايا. نزلت بسرعة من على المنصة وأخبرت "موديستا" إنها ترتجف من البرد والقلق:

– لقد كسرت رأس مريم، مستحيل تركيب الأنف مجددًا. لكن، على الأقل ،سيضطرون بالفعل لتغيير التمثال.

– كيف أصبحنا؟ ياللهول الإثم! تأوهت موديستا، لو أُكتشف يوما أننا من فعل ذلك...

– أنت دائمًا قلقة، "موديستا"، أنا أعرف بالفعل ما سأفعل.

منذ أضواء النهار الأولى، كانت قد امتلأت الليسيه بابتهاج فائر. إنه اليوم العظيم، يوم الحج. استعادنا الزي الجديد، الزي الذي استخدمناه للمرة الأولى في زيارة الملكة، لكن فيما يخص البوليرو كنا قد فتقنا الشعار ذا الألوان البلجيكية لنحل محله الشعار الذي أمدنا به الأب "هيرمينجليد"، عليه كان موشى قلبيّ يسوع ومريم المتشابكين.

حدث التجمع في الفناء أمام المصلى، كل فصل خلف العلم الذي كان قد وشَّته الطالبات أثناء حصص الحياكة منذ العودة. أتى الأب "هيرمينجليد" لمباركتهن والأخ " أوزيل " وزع الأوراق المخططة بالإستنسل بتراتيله الجديدة. كانت الأخت المديرة تُحصي علب سمك السردين، وعلب لحوم البقر المحفوظة، الجبن الكرافت، المربى التي عبأتها في سلال كبيرة كان يحملها الخدم على رؤوسهم. ساد الصمت عندما ظهرت الأم الرئيسة في رواق المصلى، تصطحب العمدة، اثنين من عساكر الشرطة، والبندقية على الكتف، يتبعهما كل المدرسين.ألقت خطبة قصيرة، مستدعية تاريخ نوتردام النيل، طالبة للجميع الرحمة العظيمة، التفتت نحو العمدة، وأعلنت أننا

قد نطلب هذا العام بشكل خاص من العذراء السوداء أن تُحل السلام والوفاق على آلاف الروابي في هذا البلد الجميل.

تحرك الموكب، عبر الحاجز الذي كان يحرسه المحاربون، متتبعا الطريق على طول طريق التل، نزل إلى الدرب واستقر، فصل فصل، على المنحدر المواجه للمنبع. فجأة، صرخة رعب تدوي: لم يعد لدي العذراء رأس أو بالأحرى ما بقي منه كان يشبه قدرًا مكسورًا. تهشم وجه المادونا والشقافة تتناثر على المنصة. كانت تطفو عدة زهور على مياه الحوض، إحدى الأواني بعد أن سدت قناة التصريف، هددت بتجاوز خرزة البئر.

– تدنيس المقدسات، تدنيس المقدسات! صرخت الأم الرئيسة.

– إنه عمل الشيطان، زايد الأب "هيرمينجليد" الذي أكثر من إشارات المباركة بهدف طرد الأرواح الشريرة.

– التخريب، دمدم العمدة الذي انطلق في الحال خلف الصخور، ومن ثم سرعان ما رأى السلاح فوق التمثال المنزوع الرأس ممسكًا في يده كتلة كروية ضاربة إلى السواد.

– قنبلة يدوية! صاح مدرس شرع على الفور في الجري على المدق، جاذبًا زملاءه الذين صعدوا المنحدر برشاقة لم نكن نظنُّها أبدًا.

أحد الشرطيين وضع بندقيته على كتفه وانطلق نحو الجزء السفلي من الوادي، حيث سرخسيات الأشجار. التي كان يجري تحتها جدول الماء.

استولى الهلع على الطالبات. تدافعن، تداوسن، جرين على الطريق في تدافع أوامر، توسلات، إلحاحات الأم الرئيسة المرتبكة في ردائها الطويل، يشمر الأب

"هيرمينجليد" تونيته، العمدة لاهثًا لم يستطع الكبح. ذلك الذي كان يلوح بالكرة الضاربة إلى السواد صارخا: " هذا لا شيء، هذا لا شيء، إنه الصلصال. "كان الخدم قد تركوا سلال المؤن الكبيرة التي كانت عهدتهم وعلب الأطعمة المحفوظة انزلقت على المنحدر بيأس كبير من الأخت المديرة التي سرعان ما اضطرت للتخلي عن متابعتها.

تواجد كل الفارين في فناء الليسيه. استُعيد النفس." في المصلى"، نظمت الأم الرئيسة. فيما كان قد عثر كل واحد على مكانه على الدكك، تحدثت.

- بناتي، لقد كنتم شهودًا على الانتهاك الرهيب. أياد ملحدة، لا أود معرفة أيها، اعتدت وجه مريم الوديع، حاميتنا، نوتردام النيل. والأمر متروك لنا للتكفير عن هذه الجريمة ضد الله. سوف نصوم، اليوم لن يكون لدينا أي طعام إلا فاصوليا بالماء. فليسامحنا الرب بخصوص هذا أو هؤلاء الذين اقترفوا مثل هذه الخطيئة.

حينئذ تُرى "جلوريوزا " تخرج من بين صف الدكك وتتقدم نحو سلم المذبح. تقول بعض الكلمات في أذن العمدة الذي اقترب من الأم الرئيسة. تناقشا فترة طويلة بصوت خفيض. في النهاية، الأم الرئيسة، التي كانت تبدو مكرهة إلى حدٍّ ما، أعلنت في نهاية المطاف:

- لدى "جلوريوزا" شيء ما لتقوله لكم.

صعدت "جلوريوزا" على أعلى درجة أمام المذبح. جابت بنظرها زميلاتها، متأملة بعضهن بابتسامة ماكرة أو راضية. مجرد ما أن تحدثت، صوتها الرنان جعلهن ينهضن:

- صديقاتي، ليس باسمي طلبت التحدث إليكن، إنه باسم الوطن، وطن غالبية الشعب، أوجه إليكن هذه الكلمات. الموقرة أمنا الرئيسة قالت إنها لا تود معرفة من كان قد هشم رأس نوتردام النيل لكن، نحن، نعرفه جيدًا: هؤلاء الذين اقترفوا هذه الجريمة، إنهم أعداؤنا الدائمون، جلادو آبائنا وأجدادنا، النيانزي. إنهم شيوعيون، ملحدون. إنه الشيطان الذي يقودهم. كما في روسيا، يريدون حرق الكنائس، قتل الكهنة والراهبات، يضطهدون كل المسيحيين. إنهم يتسربون، إنهم في كل مكان. أخشي أيضًا أن يكون البعض منهم هنا، بيننا، في مدرستنا. لكن لدي ثقة في السيد العمدة وفي قوتنا المسلحة إنهم يستطيعون القيام بعملهم. أنا، ما أود قوله، إنه سيكون لدينا في أقرب وقت تمثال جديد لنوتردام النيل، التي ستكون رواندية حقًا، بوجه غالبية الشعب، عذراء من الهوتو نكون فخورين بها. سوف أكتب لأبي. يعرف نحاتًا. في فترة وجيزة، سيكون لدينا نوتردام النيل الحقيقية على صورة النساء الروانديات التي نصلي لها من دون روغان، التي ستسهر على بلدنا رواندا. لكن مدرستنا، وأنتن تعرفن، لا زالت تمتلئ بالطفيليين، الأنجاس، القذارة الذين يجعلونها غير جديرة باستقبال نوتردام النيل الحقيقية. يجب أن نبدأ في العمل دون توانٍ. يجب تنظيف كل شيء حتى في أدنى زاوية. إنه عمل لا ينبغي أن يكرهه أحد. إنه عمل المناضلين الحقيقيين. هذا هو كل ما كنت أود قوله لكم. الآن فلنتغنِّ بالنشيد الوطني.

كل طالبات المدرسة صفقن، وشدا العمدة بالأنشودة التي رددها الجميع بوصفهم كورالًا:

Rwanda rwacu ,Rwanda Gihugu Cyambyaye

Ndakuratana ishyaka n,ubutwari

Lyo nibutse ibigwi wagize kugezo ubu،

Nshimira abarwanashyaka

Bazanye Republika idahinyuka

Twese hamwe , twunze ubumwe dutere imbere ko...

رواندا، رواندانا التي منحتنا النور،

أمجدك، أيتها، الشجاعة والباسلة.

أتذكر محنًا عديدة عبرتِها

وأبجل المناضلين،

هؤلاء الذين أسسوا جمهورية راسخة.

معًا،منسجمين،فلنذهب إلى الأمام...

- انظري، قالت "جلوريوزا " لـ"موديستا" عند عودتها إلى مقعدها، هنا، أنا بالفعل الوزيرة.

١٢- انتهت المدرسة

أثناء الشهر الذي تلا الاعتداء ضد تمثال نوتردام النيل، تركزت أنشطة المدرسة حول الاستعداد للاستقبال الاحتفالي الذي كان ينبغي أن يحفظّوه لمادونا النهر الجديدة والصحيحة. القديمة كان قد تمت إزالتها دون اعتبار من محرسها. لم نكن نعرف تمامًا ما ينبغي القيام به. ربما كان تدميرها خطيرًا؛ لأننا نخاف انتقام هذه التي كنا نجلها لفترة طويلة جدًا والتي توجهنا إليها بصلوات عديدة. انتهى الأمر إلى إقصائها تحت مشمع في منزل صغير يحوي أجهزة إلكترونية في الحديقة. اشتبهنا لفترة طويلة في أن العجوز الأخت "كيزيتو" تذهب، زاحفة على عكازيها، لتقوم من حين لآخر بالصلاة أمام هذه التي كانت قد رأتها تُشيّد أعلى المنبع بكل إجلال وحماسة.

انتصرت "جلوريوزا". بالمباركة الناشطة والمساعدة الفعالة للأب "هيرمينجليد"، كانت قد أعلنت نفسها رئيسة لجنة تتويج نوتردام النيل الموثوقة. شغل الاثنان المكتبة التي كانا قد جعلاها المركز العام والتي كان قد مُنع دخولها من الآن من دون إذنهما. الهاتف، المخصص حتى ذلك الحين فقط لمكتب للأم الرئيسة، كان قد تم تركيبه فيها. لم تعد تذهب "جلوريوزا" إلا نادرًا جدًا إلى الحصص. في صحبة الأب "هيرمينجليد"، لم تكن تتردد في مقاطعة الحصص في الفصول الأخرى لتوجه، باللغة الكينية الرواندية، كلمات قصيرة في شكل شعارات مزدوجة المعنى. كانت قد تصالحت خاصة مع "جروتي" بالترحيب بها بين أعضاء مكتب اللجنة. لكن "جروتي"، المقدرة والمشجعة تمامًا نشاط "جلوريوزا"، كانت قد رفضت وظيفة نائبة الرئيسة التي كانت قد عرضتها عليها، وأعلنت أمام الطالبات الأخريات تحفظًا حذرًا. لم تعد الأم الرئيسة تخرج من مكتبها إلا بالكاد، و، إن خرجت، تتصنع عدم رؤية الفوضى التي كانت تسود في منشأتها. عندما كان يأتي الأب "هيرمينجليد"، من قبيل احترام التراتبية التي تخفي بصعوبة تلميحًا وقحًا، ليقدم تقرير عن أنشطة اللجنة، كانت الأم الرئيسة ببساطة تجيب:

- حسنًا، حسنًا، أبي، حضرتك تعرف ما تفعله،رواندا بلد مستقل،مستقل... لكن، لا تنسى، نحن نتحمل مسئولية مدرسة فتيات، فتيات فحسب...

ثم تغوص في سجلات العهدة التي كانت قد طلبتها من الأخت المديرة للفحص، بحجة التنبؤ بالعودة القادمة.

رحلت "جلوريوزا" والأب "هيرمينجليد" في مهمة لبضعة أيام إلى "كيجالي" و"بوتار". مرسيدس ضخمة، كانت قد وضعت تحت تصرفهما من قبل والد "جلوريوزا"، أتت تسعى إليهما في المدرسة. عند عودتهما، جمعا على عجل مكتب

اللجنة، أعلما الأم الرئيسة، واستدعيا لاجتماع عام الطالبات والمدرسين في قاعة الدراسة الكبرى. تركت "جلوريوزا" أولًا الكلمة للأب "هيرمينجليد". هذا الذي أوضح أنه بدعم الهيئات العليا للحكومة والحزب الجديد المتوج ونوتردام الحقيقية ستكون مناسبة لتجميع صفوة الشبيبة الرواندية (JMR) التي في نفس الوقت، في كل البلاد تواصل الثورة الاجتماعية المجيدة لآبائهم. طلاب من الجامعة، طلاب من الليسيه، سوف يأتون إذًا حتى نيامينومبي في ميني باص. ننتظر خمسين منهم، اختيروا من بين أفضل عناصر الشبيبة. نصبنا خيامًا مقدمة من الجيش على كل أرض أعلى المنبع، لأن الأمر لم يكن بوضوح مسألة إيواء أولاد داخل نفس الليسيه وحسب، بالقرب من فتيات. سيكون الاحتفال في نفس الوقت ديني ووطني. ستنجز خطبته بالكينية الرواندية . معلنًا أن شباب رواندا سَيُقسِم لنوتردام النيل، التي تمثل الآن الروانديات الحقيقيات، بأن يتذكروا دائمًا عصور العبودية التي أغرقهم فيها غزاة متغطرسون، وأن يدافعوا عن مكتسبات الثورة الاجتماعية، وأن يحاربوا دون تخاذل أولئك الذين في الخارج وبشكل خاص من في الداخل ظلوا أعداء حقودين للغالبية العظمى من الشعب. "جلوريوزا"، دائمًا باللغة الكينية الرواندية، أضافت أن ليسيه نوتردام النيل لن تتأخر في اتباع نموذج المحاربين الشجعان الذين بزغوا في كل المدارس والإدارات ليحرروا البلاد من متواطئي النيانزي. طالبات نوتردام النيل، الصفوة النسوية الرواندية، يستطعن، أن تظهر جدارتها بشجاعة أبويها، و، هي، نيرماسوكا، يستطعن أن يتأكدن من استحقاقها الاسم.

صفقت كل القاعة. فقط جرؤ السيد "لو جراند" على أن يعبر عن اعتراض خجل:

- لكن مع كل هذا الاحتفال، كيف سينهى البرنامج؟ أليس هناك مجازفة بأن نحرم من المصادقة، وأن يضيع العام كله؟

رد عليه الأب "هيرمينجليد" بلطف متكئا على أن المدرسين الأجانب والأصدقاء ليس لديهم ما يقلقهم، كل ذلك لا يعنيهم بأي حال. ليسيه نوتردام النيل، التي تعتبر الأفضل في البلاد، ليس لديها شيء تخاف منه، ككل عام، لسوف تتوج بالمصادقة القومية على امتحان نهاية العام.

- "فيرجينيا"، ذلك يقترب، فلتضعي ذلك في اعتبارك جيدًا. ليس لأننا في ليسيه للمتميزات، سنفلت منهم. على العكس، نحن غلطتها الأضخم. ولن يتأخروا في تصحيحها. "جلوريوزا" تصمم على ذلك: تاريخ النيانزي الأشباح، الاعتداء على التمثال، مادونا الهوتو الجديدة. كل شيء جاهز. لم نعد ننتظر غير حشد الشبيبة. وهم لن يأتوا لإنشاد تراتيل المجد المريمية، سيأتون بعصيهم الغليظة، صولجانتهم، سواطيرهم، من أجل تبجيل نوتردام النيل خاصتهم. افترض أن المستجدات فهمن جيدًا ما سيحدث لنا. لكن لو أنه لا يزال هناك من يتعلقن بالأوهام؛ لأنهن لن يكنَّ بعد قبولهن في الليسيه وزيرات المستقبل، لا بد من تحذيرهن. بحذر. إنه لخطير للغاية التجمع. تخيلي المؤامرة: اجتماع للتوتسي! وعندما تحين لحظة هروبنا، يجب أن يفعل ذلك كل من جانبه من أجل طمس المدقات. سيمسك ببعضهن لكن البعض، أتمنى، سينجحن في الهرب.

- اسمعي، قالت "فيرجينيا"، أنا، لن أغادر الليسيه من دون الشهادة، التخلي والشهادة قريبة جدًا، أبدًا. لو تعرفين ما تمثله لأمي، الأحلام التي شيدتها على هذه القطعة من الورق. ثم إنني أفكر في كل اللاتي كن موهوبات أيضًا وربما أكثر منا واستبعدتهن الكوتة الشهيرة. لقد استسلمن ليصبحن فلاحات بسيطات، فلاحات بائسات طوال حياتهن. تقريبًا من أجلهن أريد هذه الشهادة حتى لو إنها، في رواندا، قد لا تفيد في أمرًا عظيمًا. على أي حال، ليست

المرة الأولى التي نهدد فيها، إنه قدرنا اليومي. فلننتظر الشهادة و، إن لزم الرحيل، سأجد وسيلة جيدة.

- لست متأكدة من ذلك. تعرفين، في كل البلاد، انطلقوا في طرد الموظفين والطلاب التوتسي. قريبًا، سيكون الدور على مدرستنا نوتر دام النيل، لماذا نهرب منها؟ سينتهي التطهير العرقي على نحو رائع في ليسيه الصفوة النسوية. تعرفين ما ينتظرنا. أنسيتي ما عانيناه من قبل وما يعدونا به كل يوم؟ في عام ١٩٥٩، لجأ نصف عائلتي إلى بوروندي، ثلاثة من أعمامي قتلوا، في عام ١٩٦٣، لم يقتلوا أبي– في كيجالي ، لم يقتلوه بقدر ما كانوا يريدونه بسبب أناس من الأمم المتحدة– لكنه وضع في السجن مع كثيرين آخرين، لقد ضربوه قدر ما استطاعوا وعندما أطلقوا سراحه، لأن الرئيس كان يريد أن يظهر للبيض كم كان مسالمًا، أجبروه على دفع غرامة ضخمة، حجزوا على الحافلة والتاكسي اللذين كان يملكهما وخاصة، أجبروه على توقيع ورقة على إنه جاسوس ومتواطئ مع النيانزي. خاف أبي، الورقة لا تزال في الأمن. بسبب ذلك، ربما يقتلونه اليوم.
- إن قتلوا آباءنا، فمن الأفضل أن يقتلونا أيضًا. هل تعرفين ما حدث عندما لجأنا إلى الإرسالية؟ كان هناك الكثير من اليتامى، كان قد ذُبح آباؤهم وأمهاتهم من وقت قريب. حسنًا، جاء المحافظ ليقول إن هناك عائلات من الهوتو مستعدون لتبنيهم، استخدم كلمات عظيمة أمام الإرساليين: الرحمة المسيحية، التضامن المدني وعندما كررها أبي، غضب وأخذت أمي تبكي. حينئذ، قسموا اليتامى: الأولاد، أولئك الذين يستطيعون العمل في حقولهم، والفتيات، كان لهن نصيب كبير من النجاح، تخمنين لماذا! عندما يصل

الشبيبة كما وعدت "جلوريوزا" ونحن نعرف ما يجب القيام به، سيكون هناك متسع من الوقت لاختفائنا وللالتحاق بأسرناو العبور بعد ذلك إلى بوروندي.

- أنا سوف أذهب إلى "فونتوناي"، سيدافع عني، لن يتركني في أيدي المغتصبين والقتلة: بالنسبة له، أنا إيزيس، وبالتأكيد، لن يعرف أي شخص، غيرك، أنني سأذهب إليه.
- أمتأكدة حقا؟ ألن يتعقبك أحد؟ ألم تقولي شيئًا لـ"موديستا"؟ أحيانًا تساورني الشكوك: لماذا تحب التحدث إلينا كثيرًا إلينا نحن التوتسي مستترة عن صديقتها العظيمة، ألأن نصفها توتسي أم لتتجسس علينا؟ المسكينة، لماذا تعقد الحياة على نفسها هكذا؟
- لا أعرف. من الصعب أن أقول. ربما خمنت شيئًا ما. تسألني في كثير من الأحيان عما أفعله يوم الأحد، و، هي تضحك، تعطي بعض التلميحات عن العجوز المجنون الأبيض الذي يحب كثيرًا رسم جميلات التوتسي.
- احذري. حتى لو كانت أمها توتسي، أنت تعرفين إلى أي جانب ستنحاز دائمًا.
- لكن، "فيرجينيا"، إن كان لا بد أن نهرب، كيف نفعل ذلك؟ الليسيه، لا نرى غيرها في "ياميمنومبي". إنها محاطة من كل مكان، أنا متأكدة أن العمدة، شرطته، والمحاربين يراقبونها بالفعل عن قرب. وفي اليوم المحتوم، سيقيمون متاريس على المدق. فلا يمكن في تويوتا، حتى لو تخفيت في شكل فلاحة عجوز، أن تغادرين "نيامينومبي". وفي داخل الليسيه، لا تعولي على أحد. لقد أغلقت الأم الرئيسة مكتبها على نفسها حتى لا ترى شيئًا. المدرسون البلجيكيون يواصلون دروسهم بهدوء. والفرنسيون، حتى لو أعربوا عن قليل من اللطف تجاهنا، و، على ما يبدو، بسبب جسمنا، ينصاعون لتعليمات

سفارتهم: لا تطفل، لا تطفل! عندما سيهجم القتلة علينا، البعض سيقول: في أفريقيا، الأمر دائمًا هكذا، مذابح همجية لا يفهم منها أي شيء، وحتى لو البعض أغلقوا على أنفسهم حجراتهم ليبكوا، دموعهم لن تنقذنا. لكنني، لدي أمل، إنه "فونتوناي". تعرفين إنه أرسل صوري إلى أوروبا، يعرفونني هناك. يكرر علي إنهم ينتظرونني. لا يمكن أن يتركني أُقتل أمامه دون أن يفعل شيئًا. تعالي معي. أنت أيضًا ملكته كانداس. لا بد إن ينقذ إلهته وملكته.

- لن أذهب للاختباء عند أبيضك.إنه غريب، لست خائفة، كما لو كنت متأكدة أنني سأخرج من هنا، كما لو أن شخصًا ما، شيئًا ما قد وعدني بذلك.
- من إذًا؟
- لا أعرف ذلك أنا نفسي.

كانت فيرجينيا تخصم الأيام التي كانت تقود بلا رحمة طالبات التوتسي نحو المصير الذي كانت ترى أنه لا مفر منه. لم تكن تشك في أن سيناريو الأب "هيرمينجليد" كان سيتحقق خطوة خطوة. لكنها لم تستطع أن تطرد من داخلها اليقين، وذلك أربكها، إنها ستفلت من ذلك. أثناء ذلك، جعلت "جلوريوزا" من نفسها القيمة المطلقة على الليسيه. كانت تسيطر أيضًا على حجرة الطعام. على المنصة الصغيرة، بينما الطاولة، حيث كانت الأخت "جيرترود" ومشرفوها كانوا يترأسون ويراقبون الطعام، بيقيت خالية. ستعلن "جلوريوزا" أنها لم تعد تريد فتح فمها أمام إنيانزي. من الآن سوف يأكلن بعد الرواندیات الحقيقيات. سيراعى تركهن للكوتة بتناول الطعام حيث الغالبية العظمى من الشعب لا تزال تقر بالطفيليات. كل الجالسات على الموائد الأخرى سيحذون حذوها. كذلك أمرت "جلوريوزا" بأنه لم يعد ينبغي على أي شخص توجيه الكلام للتوتسي النيانزي، حيث يجب منعهم من الحديث بينهن. لقد وضعهن

المحاربون الحقيقيون نصب أعينهم وحملوا إليها كل الأفعال والحركات التي كانت تبدو لهم مريبة. ومع ذلك لاحظت "فيرجينيا" أن "إيماكوليه" كانت ترتب دائمًا لتكون الأخيرة في مغادرة المائدة، وأنت تترك بتحفظ جزءًا كبيرًا من حصتها.

لم تعد تستطيع "فيرجينيا"، لم تعد تريد النوم. كانت ترصد الأصوات، تنتظر بقلق صرير البوابة، نخير المحركات، صرير الإطارات الذي يعلن عن مداهمة القتلة. وبعد ذلك سيوجد عنف الصيحات، الاحتجاجات، السحق بالأحذية التي بها مسامير على السلم، هلع الهرب ...

تمنت "فيرجينيا" أن يحدث ذلك ليلًا. كانت تظن إنه سيكون من السهل عليها هكذا غرس مطارديها في ممرات الليسيه، أن تصل للحديقة عبر السلم المؤدي إلى المطبخ، تقفز من على الجدار، تجري، تجري نحو الجبل... بعد ذلك لم تعد تعرف ما يمكن أن يحدث. لم تستطع تخيله. في أي حال لا بد أن يكون هذا في ليلة بلا قمر.

صور هروبها، دائمًا هي نفسها، تُستعرض دون توقف في رأس "فيرجينيا"، لكن، ذات ليلة، لم تستطع مقاومة النعاس وواتاها حلمًا، عند الاستيقاظ، غرس ثانية هذا اليقين الغامض بأنها ستكون بمنأى، ولكنها عاجزة عن تفسيره. ترى نفسها ضالة في متاهة ضخمة الأسوار، كالتي كانت تشيد للملوك القدماء. تحت مجموعات البامبو التي كانت تؤطر مدخل الفناء، كان هناك رجل، شاب، كبير جدًّا، والذي بدت ملامح وجهه لها جميلة بلا عيوب وكان ينتظرها" لا تعرفيني، قال لها، ومع ذلك أتيتي إلى منزلي، ألا تعرفين روبانجا الأوموبرو؟" ناولها وعاء كبيرًا من اللبن: "ستحملين ذلك إلى الملكة، تنتظره، تنتظره." استعادت "فيرجينيا" طريقها بين الأسوار العالية المتداخلة،

وانتهى بها الأمر لتصل إلى فناء وسيع حيث كانت فتيات فاتنات يرقصن على إيقاع فاتر لأغنية تذكرها بواحد من الكراسي الهزازة المفضلة لدى أمها. خرجت الملكة من الكوخ الكبير. كان وجهها مختفيا وراء حجاب من اللؤلؤ. جثت فرجينيا أمامها وناولتها وعاء اللبن. شربت الملكة ببطء مبهج، أعطت الوعاء لواحدة من وصيفاتها وتوجهت نحو "فيرجينيا" :" لقد أفدتِني بالفعل، موتاموريزا، أنت محظيتي. انظري، ها هي المكافأة." رأت "فيرجينيا" اثنين من الرعاة يقودان نحوها بقرة بيضاء." إنها لك، قالت الملكة، تدعى جاتار، احفظي اسمها جيدًا، جاتار."

كانت قد استقيظت "فيرجينيا" فجأة على صرير البوابة. قفزت. القتلة؟ هدأ جرس المنبه من روعها. يبدأ هذا اليوم ككل الأيام الأخرى. ذكرى حلمها تجتاح تفكيرها. لاذت به وشعرت أنها متدثرة بحماية لا مرئية. كررت كتضرع اسم بقرة الحلم:" جاتار، جاتار."كانت تود لو بقيت للأبد في حلمها.

وصل تمثال نوتردام الجديد في حافلة مغطى بمشمع. لقد حاوطه في الحال جمهرة من الطالبات. لكنهن أحبطن تمامًا. لقد كان التمثال مغلقًا عليه في صندوق خشبي رفعه الخدم على أكتافهم، تحت توصية قلقة من الأب "هيرمينجليد"، ونقلوه إلى المصلى. القسيس المقيم أغلق عليه مع "جلوريوزا " ومنع الدخول. سمعنا دقات مطارق الخدم الذين يفكون الصندوق." إنها جميلة، قالت "جلوريوزا" أثناء خروجها من المصلى، جميلة جدًا، حقًا سوداء، لا ينبغي أن يراها أحد قبل أن تتشرف الليسيه باستقبالها ويباركها النائب الرسولي." ومع ذلك هرعت الطالبات إلى داخل المصلى ولم يرين، أمام المذبح، سوى شكلٍ متذبذب، مغلف في علم كبير لرواندا. بلا جدوى بحثت

"فيرجينيا" عن "فيرونيكا ". لم تكن في الحصص، كذلك لم تحضر إلى حجرة الطعام. تظاهرن طالبات السنة النهائية وكأنهن لم يلحظن اختفاء صديقتهم. فقط "جلوريوزا" قالت بصوت عال إلى حدٍّ ما حتى تسمعها فيرجينيا:" لا تقلقن، "فيرونيكا" ليست ببعيدة، أعرف أن هناك من بيننا من تعرف أين توجد، أنا، أعرف ذلك أيضًا ومن مصدر مؤكد"، أضافت، وهي تنظر لـ"موديستا". أثناء الصعود للمهجع، في هرج ومرج السلم، نجحت "موديستا" في تسريب بعض الكلمات لـ"فيرجينيا": "خاصة، لا تحاول الذهاب عند العجوز الأبيض، فلتجد شيئًا آخر لكن خاصة لا تذهب هناك."

طوال الليل، تتساءل "فيرجينيا" كيف تخبر "فيرونيكا". أثناء مشاهدة وصول التمثال، بما أنها كانت خطتها الوحيدة، فلقد ذهبت لتختبئ عند "فونتوناي"، لكنه لم يعد سرًّا لأحد، الكل يعرف مخبأها. كبحت دموع ألمها وحنقها حتى لا تستطيع أن تقول لها ولا واحدة في الصباح وهي تضحك:" انظري، على الرغم من اسمك الجميل، نجحنا في انتزاع بعض الدموع منك."

عندما اجتاحت فوضى عظيمة الليسيه، كان المدرسون يهدئون دائمًا الحصص كالعادة. المواعيد، الحضور والتزام المعلمين كانا، النقطتين الوحيدتين في اللائحة اللتين كانت ما تزال الأم الرئيسة تستطيع جعلهما تحترمان، بشرط إغلاق الأعين عن الغيابات المتكررة لبعض التلميذات. أثناء حصته، السيد لو جراند طلب منا أن نذهب للبحث عن الكراسات التي كان قد جمعها للتصحيح والتي كان قد تركها في درج قاعة المدرسين. تقدمت "إيماكوليه" كل الأخريات. عند عودتها، وزعت الكراسات. وجدت "ڤيرچينا" ورقة مربعة في كراستها. قرأت:" عندما يصل (JMR) الشبيبة، يبدو إنه الغد، لن تهربي كالأخريات. حاولي أن تصعدي إلى المهجع، ادخلي إلى حجرتي

وانتظريني. ثقي بي، سأشرح لك. دمري هذه الورقة، ابلعيها إن لزم الأمر. "إيماكوليه" موكاجاتار."

قرأت فيرجينيا وقرأت ثانية قطعة الورق الصغيرة التي كانت تمسكها في راحة يدها. ربما كانت خطة " إيماكوليه" مبتكرة، لكن أينبغي أن تثق فيها؟ لم تكن "إيماكوليه" صديقتها بالفعل. بكل تأكيد، لم تكن جزءًا من عصابة "جلوريوزا". كانت تبدو ساخرة من السياسة وخاصة "جلوريوزا". كان يبدو أنها لا تهتم سوى بجمالها. إذًا لماذا تقوم بكثير من المجازفات من أجل إنقاذ توتسية؟ تختبئ في حجرتها، ما يعني تسليمها نفسها كليا بين يديها. وماذا تفعل بعد ذلك؟ لكن كان هناك اسم " إيماكوليه"، اسمها الحقيقي، ذلك الذي كان قد منحها إياه أباها، موكاجاتار. جاتار، أكان ذلك ما يشير إليه حلمها، جاتار، ما هو أبيض، ما هو نقي؟ شعور كونها تحت حماية لا مرئية يمسك بها من جديد. نعم، ستتبع الخطة التيه عرضتها عليها "إيماكوليه"، موكاجاتار، ماذا تخسر؟

حدث ذلك تقريبًا كما تخيلته فيرجينيا. اثنتان من عربات الميني باص عبرت مسقطة الحاجز الحديدي ووقفت بالضبط في مواجهة رواق المدخل الكبير. شباب، من الصغار جدًا، نزلوا منهما ملوحين بهراوات كبيرة. في الحال هرعت الطالبات التوتسي إلى الممرات في هروب بائس. انطلقت التلميذات الأخريات لمطاردتهن لكن دون أن يستطعن الإمساك بهن. رأت "ڤيرچينا" فصلًا كان خاليًا. دخلت إليه واختبأت تحت مكتب المدرس. مرت فرقة المطاردات صائحات. عندما كانت قد اطمأنت إلى أن الممر قد صار خاليا، لم تستطع "ڤيرچينا" أن تمنع نفسها من إلقاء نظرة على الشرفة المطلة على الفناء. لمحت "جلوريوزا" التي كانت تواصل توجيهاتها لذلك الذي يبدو قائد

المحاربين. لم تجد صعوبة في فهم الخطة التي اعدتها "جلوريوزا": تدفع التلميذات زميلاتهن التوتسي باتجاه الحديقة حيث كان ينتظرهن جماعة الشبيبة وهراواتهم. واربت فيرجينيا باب الفصل. لم يعد هناك أحد في الممر. التحقت به على حذر، في الفصول الخالية، كان قد بقي المدرسون البلجيكيون إلى مكاتبهم يبحثون بشكل واضح عما يمكن أن يكون الفهم الجيد في مثل هذه الحالة. لقد كان المدرسون الفرنسيون متجمعين ومنغمسين في نقاش متحمس. فيرجينيا، في حين هالة من الهدوء تحميها، صعدت السلم الذي يفضي إلى المهجع دون أن تقابل أحدًا، ووصلت إلى حجرة "إيماكوليه". تأكدت أنه في حالة الخطر يمكن أن تنزلق تحت السرير. انتظرت، راصدة أدنى صوت. صرخات، صيحات، تصعد من خلف المبنى، من الحديقة، ظنت ذلك مرتجفة. سرعان ما تسمع خطوات، دفعت بنفسها تحت السرير.

- أنت هناك؟ سألت "إيماكوليه".
- أهو أنت؟ "إيماكوليه"، ماذا تريدين أن تفعلي معي؟
- ليس هناك وقت لأن أشرح لك، أولى بكِ أن تسمعي. لديك مئزر على السرير، لفي نفسك داخله. ستذهبين لتتخفين عند "نيامبرونجي"، صانعة المطر. لقد خططت كل شيء. لقد أرسلت إليها كاجابو ليطلب منها. وفقا لكاجابو، وافقت صانعة المطر دون صعوبة. لن يأتي أحد للبحث عنك هناك. سأرسل "كاجابو" عندما توجد سيارة ليأخذنا، سأصحبك عند الحاجة في صندوق السيارة. أسرعي. كاجابو ينتظرك، ليس لديك أي شيء تخافين منه، سأعطيه ما يكفي من المال كما أن السحرة لا يحبون الاحتكاك بالسلطات. سوف أمر أمامك لأخبرك إن كان هناك خطر.

في السوق، كانت قد قالت "إيماكوليه"، ينتظرك في السوق. في هذه الساعة من ما بعد الظهيرة، لقد انتهى السوق منذ فترة طويلة. كانت بعض الكلاب الضامرة تنازع الغربان والبوم الكومات الحقيرة من الفضلات. من خلف موانع من الأواني الصدئة، كانت تسمع:" يإوي، تعالي من هنا." اكتشفت كاجابو متربعًا بجانب حزمة من الخشب الجاف. تفحصها بهيئة ساخرة.

- مئزرك بالفعل جديد للغاية فمن أجل أن تلعبي دور الفلاحة، أعطني هذا.

نهض، أخذ المئزر، كرمشه بقوة، وسحبه في التراب ودلتا الجدول العطنة التي تطوف الأرض.

- حسنًا، هكذا رائع، اخلعي حذاءك واقتربي.

أخذ وجه فيرجينيا بين يديه المحمرة من الأرض، دعك بشدة وجنتيها وناولها قطعة من قماش متسخ لتغطي شعرها.

- هكذا، الآن تموهتِ كفلاحة حقيقية. خذي هذه الحزمة، ضعيها على رأسك، وسيري ببطء، كفلاحة حقيقية. ليس هناك أمرًا عظيمًا لتخافي، كل الناس خائفون، لا يفهمون ما يحدث، لايجرؤون على الخروج، أغلق التجار دكاكينهم. ثم أنا أحميك، فليس من الجيد الاقتراب من أحد المسممين!

عندما دخلت "فيرجينيا" تحت الكوخ المليء بالدخان، لم تر إلا لعبة تبادل الظل والبريق اللذين يصنعهما ويكسرهما لهب الموقد. من الظلمة المصغرة أسفل قبة القش المجدول، حيث لا تلمع النار المركزية، وصلها صوت ضعيف:

- ها أنت، موتاموريزا، انتظرك، اقتربي.

اتجهت "ڤيرچينا" إلى عمق الكوخ وأخيرًا ميزت خيال امرأة عجوز ملفوفة ومقلنسة بملحفة بنية اللون، حيث يغرق وجهها المكرمش من التجاعيد والذي

يذكر "ڤيرچينا" بوجه صغار القرود التي، عند أمها، كانت تأتي لتسلب حقل الذرة.

- اقتربي، لا تخافي، كنت أعرف إنك ستأتين، لا تظني أن كاجابو من أخبرني بمجيئك، كنت أعلم ذلك من قبله وحتى قبل التي أرسلته لتطلب مني استقبالك. أعرف من أرسلتك لي، ومن أجلها قبلت استقبالك.
- نياميرونجي، كيف أشكرك؟ تنقذين حياتي وليس لدي شيء أمنحه لك في المقابل. لقد تركت في الليسيه كل ما لدي. لكن من دون شك كاجابو سلمك ما ودت صديقتي أن تعطيك إياه من أجلي.
- حمله إلي. لم أرد ذلك. ليس من أجل صديقتك أفعل ذلك، لم يكن من الضروري إذًا أن تدفع لي. لو أني استقبل محظية تلك التي في الجانب الآخر من الظل، ذلك لإنها ستمنحني أيضًا فضلها، أعرف ذلك.
- تنظرين إذًا في أحلامي؟
- رأيت بقرة بيضاء وتلك من منحتك إياها لكن، أنا لا أراهم في الأحلام، رأيتهم عندما نقلتني الأرواح إلى الجانب الآخر من الظل. أنت محظية الظلال، أهلا بك عند نياميرونجي.

استقرت "ڤيرچينا" بجانب نياميرونجي. كانت تعد لها كل يوم عصيدتها من الذرة البيضاء. كان يبدو أن نياميرونجي تستحسنه. تيقنت "ڤيرچينا"من أن الشونة خلف الكوخ، كانت ممتلئة تمامًا. لا ينبغي أن تفوت نياميرونجي" زبائنها". عندما حل الليل، جلست القرفصاء بجوار النار، تمد يدها اليمنى، مشيرة بسبابتها ذي الظفر الطويل للغاية تجاه الجهات الأربع، ثم تثنيه تحت ملحفتها مكتفية بهز الرأس وهي تهمهم ببعض الكلمات التي لا تستطع فيرجينيا إدراكها. انصرم أسبوع. كانت فيرجينيا تزاد قلقا. ماذا حدث في

الليسيه؟ كيف أصبحت "فيرونيكا"؟ وكل الآخريات؟ بعضهن، جاهدت لتصدق هذا، كن قد استطعن الهروب؟ هل كانت قد نسيتها " إيماكوليه"، فضحتها؟ مختبئة خلف صخرة، كانت تقضي فيرجينيا أيامها في مراقبة المصب الذي ينحدر حتى الليسيه.

لكن ذات مساء، ذراع نيراميرونجي، السبابة وأظفرها الطويل أخذا في الارتعاش ولزمها لتثنيه مساعدة من ذراعها الإيسر. تفرست فيرجينيا، عيناها تبرقان:

- قال لي المطر إنها سترحل، ستترك المكان، وهكذا ينبغي عليها، في الجو المعفر. وقال لي أيضًا إنه في الأسفل، في رواندا، موسم الرجال تغير. لكنه أخبرني كذلك بعدم الوثوق في ذلك: الذين يعتقدون في الجو الهادئ، تفاجئهم الصاعقة. ستضربهم، سيهلكون. ستغادريني قريبًا. غدًا، من أجلك، سأجري القرعة.

أيقظت نيراميرونجي "فيرجينيا" قبل الفجر، وأحيت النار بأن ألقت عود حطب صغيرًا على الرماد.

- تعالي، يجب إجراء القرعة قبل أن يشرق النهار. مع الشمس، الأرواح لا تجيب.

تناولت غربالًا كبيرًا وأخرجت من كيس صغير من قماش اللبخ سبع عظيمات.

- الخروف أعطانا عظامه من أجل معرفة المصير. لا تأكليه.
- أغلقت عينيها وألقت التسع عظمات على الغربال الكبير. فتحت عينيها وتأملت طويلًا، دون أن تقول شيئًا، مجموعة النجوم التي رسمتها العظيمات.
- ماذا ترين؟ سألت "فيرجينيا"، قلقة بعض الشيء.

- سوف ترحلين بعيدًا جدًا عن رواندا. ستعلمين أسرار البيض. وسيكون لك ابن. ستسمينه نجاروكا، "سوف أعود".
- انظري، يقول كاجابو، صديقتك تنتظرك، هناك في سيارتها.

انفتح الباب الخلفي لـ "اللاند روفر" ورأت فيرجينيا" إيماكوليه" تشير لها بالصعود:– تعالي بسرعة. فلنعد. لا حاجة لتخفيكِ، لكن لا تلفتي للغاية مع ذلك.

- لا أفهم، قالت "فيرجينيا"، وضحي لي ما يحدث.
- تتحدث نياميرونجي مع السحاب، لكن ليس معها راديو ترانزستور. حدث انقلاب. استولى الجيش على السلطة الرئيس السابق في مقر رئاسته تحت الحراسة. منذ أن علموا بالخبر اندفع المحاربون داخل سياراتهم الميني باص، ورحلوا بأقصى سرعة. إنها الأخت " جيرترود " التي تسمع دائمًا الراديو من أذاعت الخبر. لا نعرف أين والد "جلوريوزا "، ربما هرب، ربما في السجن. الكل انقلب على "جلوريوزا"، أخذوا يسبونها. هي التي كانت شديدة المكر: الاضطرابات، العنف... بسببها، الشهادة النهائية للإنسانيات قد لا يصدق عليها. سيكون قد ضاع كل العام الدراسي. كل هذا غلطة هذه الطموحة التي قد يكون أبوها الآن في السجن. ألقت" جورتي" خطبة طويلة. أجبرت "جلوريوزا" على سماعها: إنهم الآن الهوتو الحقيقيين الذين استولوا على السلطة لينقذوا البلاد، أولئك الذين قاوموا كل الاستعمار، استعمار التوتسي، الآلمان، البلجيك، أولئك الذين كانوا قد فسدوا بصيغ التوتسي من الأفضل لهم أن يشرعوا في تحدث الكينية الرواندية الحقيقية، تلك التي حفظت في سفح البراكين. الآن فهم الجميع "جروتي" من دون صعوبة وبعضهن اجتهد أيضًا في تقليد طريقتها في التحدث. جاءت سيارة عسكرية تبحث عن "جلوريوزا"، لا

نعرف ما أصبحته. لكن لست قلقة للغاية بالنسبة لها، بمثل هذا الطموح، "جلوريوزا"، نيّراماسوكا! لا يزال لديها مستقبل سياسي. سنراها ثانية. سوف تصل لأهدافها. ومن ثم، أتت الأم الرئيسة لتعلن أن العطلة الكبيرة كانت قد قُدمت ثمانية عشر يوما، خفضت السفارات متعاونيها حول العاصمة، الليسيه ينبغي أن تغلق، لقد أبلغت أولياء الأمور ليأتوا ساعين لبناتهم، لقد أجَّرت سيارات ميني باص لمن لا يستطيعوا المجيء. قال الأب "هيرمينجليد" إن تتويج نوتردام الجديدة تأجل إلى العودة، سنستفيد من ذلك من أجل الاحتفال بالوحدة القومية. أنا استطعت إبلاغ أبي، أرسل سائقه، هيا، لنرحل.

- والأخريات، في الليسيه، كيف حالهن؟ أستطعن الهرب؟ ماذا! قتلوهن؟
- لا أصدق. ليس كلهن، على أي حال. تعرفين، بصرف النظر عن "جلوريوزا"، لم يكن من بينهن كثيرات يرغبن حقا في قتل زميلاتهن بأيديهن. طردهن من الليسيه، هذ، نعم، كن موافقات على اعتقاد أن التوتسيات ليس لهن مكان بينهن. عندما عدت إلى الفناء، هذا هو الخطاب الذي كان يلقيه الأب "هيرمينجليد" على المحاربين:" اطردوا هؤلاء التوتسي من الليسيه، لكن ليس من الضروري تلويث أيديكم. اقبضوا على بعضهن وكيلوا لهن الضرب بالعصي، ذلك سيحول ميلهم عن الدراسة. ستهلكن في الجبال، من البرد، الجوع، ستلتهمهم الكلاب الضالة والحيونات المفترسة، ومن يبقى منهن على قيد الحياة ومن ينجحن في عبور الحدود، يضطررن لبيع هذا الجسم الذي يفخرون به للغاية بثمن ثمرة طماطم في السوق. العار، إنه أسوأ من الموت. نسلمهن لحكم الله." في رأيي، كثيرات استطعن إنقاذ أنفسهن، وجدن إغاثة في منازل بالقرب من بعض شيوخ المبشرين البيض الذين احتفظوا بحنين لفترة كان فيها التوتسي المؤمنين المفضلين أو استطعن مقابلة رهبان توتسي

مطرودين من الإبراشيات التي كانت تحميهم: ربما نجحوا معًا في عبور الحدود. وحتى الفلاحين، لم يكن جميعهم مستعدين لقتل فتيات متعلمات من أجل قصص عن مدرسة لم تكن تعنيهم. إنهن الآن في بوجومبورا، في بوكافو أو في مكان آخر. لم اسمع حديث عن موتى، لو كان قد حدث ذلك لبعض الطالبات من بينهن، لم تكن ""جلوريوزا "" لتفوت فخرها بذلك. لكن أنت و""فيرونيكا ""، ""جلوريوزا "" تريد بالفعل قتلكما، إنها لا تحتمل فكرة أن تراكما بجانبها يوم التتويج الرسمي للشهادات.

- و"فيرونيكا "، أين "فيرونيكا "؟ ماذا حدث لـ""فيرونيكا ""؟
- لا أعرف. لا تطرحي علي هذا السؤال.
- لكن، تعرفين.
- لا أو د إخبارك.
- سوف تخبرينني. أنت مدينة لي بذلك.
- أخجل من أن أحكي لك، هذا يخيفني، الآن أخشى كل البشر، أعرف أن كل كائن بشري يخفي داخله شيئًا ما مريعًا. حتى صديقي الصغير، لم أعد أود رؤيته: لقد كتب لي إنه فخور لإجازته كمحارب جيد، لإنه ضرب التوتسي في مؤسسته، ولا يعرف إن كان قد قتلهم، لكنه يأمل بضرباته التي قام بها، بأن يكون من بينهم من سيظل عاجزًا. لم أعد أود رؤيته.ومع ذلك تودين معرفة ما فعلوه ب"فيرونيكا". إذًا، فلتسمعيني، لكن لا تبكي أمامي، أنت موتاموريزا، التي لا ينبغي جعلها تبكي. إن تبكين، سيجلب علي ذلك التعاسة.
- " ومن ثم، عندما انتهى الشبيبة من طرد التوتسي، قالت لهم "جلوريوزا ":" لا يزال هناك اثنتان: الأولى، أعرف أين تكون، لكن الثانية، لا بد أنها تختبئ

في الليسيه، لا بد أن أعثر عليها، ومن أجلها، أود أن تذهبوا حتى آخر المهمة. أود أن أراها تذرف الدمع من كل جسمها، موتاموريزا! لا بد، نحن الطلبة، أن تأخذونا على محمل الجد! "يبحثون عنك في كل مكان، يفتشون كل الليسيه. لقد كنتٍ بعيدة، بكل تأكيد. كانت "جلوريوزا" غاضبة. انقضت على موديستا التي كانت تتعقبها دائمًا ككلبها. أخذت تسبها:" قذرة، لقيطة، أنت التي أخبرت "فيرجينيا"، من قال لها أن تهرب، إنها صديقتك، صديقتك الحقيقية، كنتِ جاسوستها إلى جانبي، سأعاقبك كالطفيلي الذي كنتيه، الذي كان مرتبطًا بي لفترة طويلة جدًا لخداعي. حتما، أنت بالفعل ابنة أمك. لم تمنحيني سوى نصفك النيانزي، حسنًا، أنا، سوف أقوم بتطهير نصفك التوتسي الذي دفعك لخيانتي."استدعت ثلاثة محاربين. سحب المحاربون موديستا إلى داخل الفصل. سُمع بكاء ، توسلات، صرخات، تأوهات. استمر ذلك لفترة طويلة. ثم رأينا "موديستا" التي سُحبت حتى الكنيسة في محاولة لعلاج جسمها المخضب بالدماء ممزقة الزي. حينئذ استدعت "جلوريوزا " كل المحاربين، قالت لهم :" هناك نيانزي أخرى، حقيقية، لا تزال أكثرخطورة، تحصل على لقب ملكة التوتسي. أعرف أين تكون مختبئة. ليس بعيدًا جدًا. عند عجوز أبيض. هنالك، لا يجب تفويتها. الأبيض متواطئ مع النيانزي، مزرعة البن، جعل منها لهم وكرا، قاعدة لمهاجمة الغالبية العظمى من الشعب، جند شباب التوتسي، دربهم كجنود كوماندوز. في هذه الأثناء، يستدعي الشيطان وتوتسيته، تدعى "فيرونيكا"، لقد جعل منها شيطانته، يرتكبان معًا أفعالًا شنيعة كما الملكة كانچوجيرا التي، وفقا لأبي، كانت تقتل أربعة من الهوتو كل صباح لتثير شهيتها. ترقص أمام الشيطان. يجب أن نُجهز عليها مع هؤلاء الشياطين، افعلوا بسرعة."

- " رحل حوالي عشرين من المحاربين في إحدى عربات الميني باص مع محاربًا من نيامنوبي ليستخدموه كدليل. عادوا عند حلول الظلام. كانوا مثارين للغاية ، يصيحون: "حصلنا عليهما! حصلنا عليهما!" انقضوا على زجاجات البريموس. طلبت "جلوريوزا" من القائد أن يقص عليها مآثره. لم تكن لترجوه. قال إنهم كانوا قد اجتاحوا الفيلا أولًا. لم يكن هناك أحد. كسروا كل الأثاث. ذهبوا إلى الحديقة. هناك رأوا مصلي الشيطان. دخلوا. كان هناك، رسومات على الجدار، موكب كامل من فتيات توتسي عاريات تمامًا في حالة تعبد، على الجدار الداخلي، الشيطانة الكبرى، وهنالك، توتسية حقيقية، كانت ترتدي على رأسها قبعة بقرون الشيطان.في الأسفل، ثمة عرش، و، فوق العرش، قبعة بقرون للشيطانة. ركضوا. حاول الأبيض والتوتسية أن يختبئا في حرجة البامبو الصغيرة. كان مع الأبيض بندقية لكن لم يسعفه الوقت لاستخدامها. قفز جميعهم فوقه وصرعوه. أخذوا "فيرونيكا". اقتادوها إلى المصلى. قال قائد المحاربين إنها كانت تشبه تمامًا الشيطانة المرسومة على الجدار. جردوها من ملابسها وأجبروها بضربات من العصي على الرقص عارية تمامًا أمام الوثن شبيهها، ثم ربطوها بالعرش. وضعوا القبعة على رأسها. باعدوا بين ساقيها. لن أخبرك بما فعلوه بعصيهم ولا كيف أكملوا. بعد ذلك، ذهبوا ليحرقوا المنزل الذي كان قد شيده هذا الأبيض على ضيعته، لم يجدوا النيانزي الذين كان قد جندهم الأبيض، كانوا قد فروا منذ فترة طويلة، لكنهم ذبحوا الأبقار وحرقوها أيضا. لوَّح قائد المحاربين بالقبعة ذات القرون. كان لا يزال غاضبا. "ها هو، صاح، تاج ملكة النيانزي، قبعة الشيطان، لكن الآن انتهى الأمر بالنسبة لها، لقد نالت العقاب الذي كانت تستحقه وسيستمر في الجحيم. أنا آسف لأننا لم نقتل كل الآخرين، لكنني أتعشم أن نعثر عليهم ذات يوم."

" اليوم التالي، ذهب العمدة مع شرطييه وبعض المحاربين ليقبضوا على "فونتوناي" ويعلنوه بأمر ترحيله. لقد عثرو عليه مشنوقًا في المصلى. قالوا إنه انتحر. لو الشبيبة هم من قتله، لن يفتخروا بذلك. فقتل أحد البيض، أمر دقيق بالنسبة للحكومة. كل الفتيات اللاتي كن يستمعن إلى قائد المحاربين ارتعدن، بعضهن بكين، ومع ذلك، كان لا بد من التصفيق." أرأيتن، قالت "جلوريوزا "، إله التوتسي، إنه الشيطان!" إن، هذه الحكايات شيطانية المسلك، لا أعتقد فيها، إنها أيضًا من أكاذيب "جلوريوزا ". ما فعلوه بـ"فيرونيكا " أمر مرعب. الآن أنا متأكدة من ذلك، ثمة وحش ينعس داخل كل إنسان:في رواندا، لا أعرف من أيقظه. لكن قولي لي، ماذا كانت تفعل "فيرونيكا" عند هذا الـ"فونتوناي"، كانا يصوران فيلما؟ كانت تحب السينما كثيرًا...لا بد أنك تعرفين هذا،"فيرجينيا"، كنتِ أفضل أصحابها، الكل يعلم إنها لم تكن تخفي عنك شيئًا.

- لا أعرف. لا تقولي لي أي شيء، لا تسأليني عن شيء إن أردتِ ألا أبكي.

بقيتا لفترة طويلة صامتتين. بلا انقطاع، ينزلق المدق إلى وديان ضيقة، يتسلق المنحدرات المغطاة بمزارع الموز الكثيفة، مقتفيا القمم المزدانة بلحاء أشجار الكافور، ليغرق ثانية في وديان جديدة، ومتسلقا منحدرات جديدة... كانت فيرجينيا تصارع من أجل إبعاد صور الرعب التي لم تتوقف عن مهاجمتها وكبح دموعها...

– " إيماكوليه"، أدين لك بحياتي، لكنني ما زلت لا أفهم لماذا فعلتِ كل ذلك من أجلي. أنا توتسي، لم أكن صديقتك حقا...

– أنا أحب التحديات. أعتقد أنني كنت أتمسك بالدراجة البخارية التي كانت ترعب الشوارع في كيجالي أكثر من تمسكي بصديقي الصغير؛ ذهبت لرؤية الغوريلات لأنني كنت أكره "جلوريوزا"؛ كنت أود إنقاذك أنت و"فيرونيكا"؛ لأن الأخريات كن يريدن قتلكن، والآن سوف أتحدى كل الرجال، وسوف أذهب إلى الغوريلات.

– سوف تعيشين عند الغوريلات.

– علمت أن البيضاء التي تود إنقاذ الغوريلات سوف تجند الروانديين لتشكل منهم مساعدين. لدي كل ما يلزم لتجنيدي: أنا رواندية، متعلمة، أعتقد أنني بالأحرى جميلة، أبي رجل أعمال معروف جدًّا. سأكون خير دعاية لها: ستكون مضطرة لأن تأخذني. لكنك، ماذا تنوين عمله. لن تتركي في نفس الأمر شهادتك. أنت تعرفين أن العسكريين أعلنوا إنهم كانوا قد استولوا على السلطة من أجل إقرار النظام. سوف يهدئون أولئك الذين كانوا ثائرين، من جهة أخرى، هؤلاء، حصلوا على ما كانوا يريدون: أماكن التوتسي. سأطلب من أبي أن يتدخل عند اللزوم. أفهم لماذا أوصلوني على نحو لطيف للغاية عند الغوريلات في "روهينجيري": كان ذلك ليقولوا للقيادة العليا إنها تستطيع الاعتماد على نقوده. لا شيء يرفض له، و، لابنته، لا يرفض أي شيء أبدًا.

– لم أعد أريد هذه الشهادة . سوف أذهب إلى والديّ لأقول لهما الوداع. وسوف أرحل إلى بوروندي، إلى زائير، إلى أوغندا، إلى أي مكان، هناك سوف أستطيع عبور الحدود ... لم أعد أريد البقاء في هذا البلد. رواندا، إنها بلد الموت. أتذكرين ما كنا نقوله عن التعاليم المسيحية: طوال اليوم، يجوب الله العالم، كل مساء، يعود إلى بلده، يعود إلى منزله في رواندا. حسنًا، فيما كان الله يتجول،

استولى الموت على مكانه، عندما عاد، صفق الباب في أنفه. أقام الموت مملكته فوق بلدنا رواندا المسكين. لديه مشروعه: قرر أن ينجزه حتى النهاية. سوف أعود عندما تعاود شمس الحياة شروقها من جديد على روانداننا. أتعشم أن أقابلك.

– بكل تأكيد سنتقابل. إلى اللقاء عند الغوريلات.

الفهرس

١- نوتردام النيل
٢- العودة
٣- أعمال وأيام
٤- المطر
٥- إيزيس
٦- دم العار
٧- الغوريلات
٨- تحت معطف العذراء
٩- أوموزيمو الملكة
١٠- ابنة الملك بودوان
١١- أنف العذراء
١٢- انتهت الدراسة